مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية

مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية دورية محكمة تعنى بالقضايا التاريخية والاجتماعية يصدرها فريق بحث المعارف للدراسات التاريخية والاجتماعية ونشر التراث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط – موريتانيا

الرئيس الشرفي: د. حمودي ولد حمادي عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مدير المجلة: د. محمد الراضي ولد صدفن **رئيس التحرير: د. محمد الأمين ولد أن**

أعضاء هيئة التحرير:

د. الشيخ سعد بوه كمرا، موريتانيا

د. محمدن ولد التليميدي، موريتانيا

د. أحمد مولود ولد أيده، موريتانيا

د. أمهادي ولد جقدان، موريتانيا

أ. عبد الوهاب ولد محفوظ، موريتانيا

د. محمد الأمين ولد محمد موسى، موريتانيا

د. واغي عثمان، موريتانيا

د. الحسين ولد بديدي، موريتانيا

د. عبد الرحمن بعثمان، الجزائر

الهيئة الاستشارية:

أ.د إسماعيل نوري الربيعي، البحرين

أ.د عبد القادر بوباية، الجزائر

أ.د محمد بن معمر، سلطنة عمان

أ.د بلهواري فاطمة، الجزائر

د. محمد المختار ولد سيد محمد، موريتانيا

أ. د الحمدي أحمد، الجزائر

د. أحمد ولد حبيب الله، موريتانيا

د. عيسى محمود العزام، الأردن

د. عمر راجح شلبي، فلسطين

شروط النشر

1- يجب أن يكون المقال المقترح للنشر أصيلا لم يسبق تقديمه لمجلة أو أي جهة ناشرة أو أكاديمية، وأن لا يكون جزءا من رسالة عليمة.

2- لا يتجاوز المقال الواحد 15 صفحة حتى تتاح فرصة النشر لأكبر عدد من الباحثين.

3- ترسل المقالات إلى المجلة مطبوعة على الحاسوب باستعمال Word باللغة العربية:

- **الخط المستخدم في المتن Simplified Arabic الحجم 14 أما الحواشي فتكون يدوية أسفل المقال؛ بنفس الخط حجم 12**

4- بالنسبة للمقالات المحررة باللغة الفرنسية:

- **الخط المستخدم في المتن Timed New Roman الحجم 12، أما الحواشي فتكون بنفس الخط بحجم 10**

5- أن يكون توثيق الكتب بذكر شهرة المؤلف متبوعا باسمه الأول والثاني واسم الكتاب، واسم المحقق أو المترجم، والطبعة والناشر ومكان النشر وسنته، ورقم المجلد.

6- أن يكون توثيق الدورية بذكر اسم كاتب المقال، عنوان المقال موضوعا بين علامتي تنصيص " " ، واسم الدورية، ورقم المجلد والعدد والسنة، ورقم الصفحة.

7- يلتزم الباحث القيام بالتصويبات والتعديلات التي اقترحها المحكمون خلال شهر من تاريخ تسلمها.

8- الأبحاث المنشورة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها

9- يخضع ترتيب الأبحاث في المجلة لمعايير فنية

10- يكتب الباحث في الصفحة الأولى من البحث إسمه وعنوانه الكامل بالهاتف والإيميل والمؤسسة التي ينتمي إليها، وكذلك الدولة.

11- يكتب ملخصا باللغة العربية وآخر باللغة الفرنسية بما لا يزيد عن 100 كلمة لكل منهما، على أن يكونا في ورقتين منفصلتين.

12- مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية محكمة، وهي ترحب بجميع المقالات المستوفية للشروط السالفة الذكر، ولا ترد المقالات لأصحابها في حال عدم نشرها.

وعليه نرجو من كل الراغبين في نشر أعمالهم بالمجلة أن يبعثوا بها على البريد الإلكتروني التالي: mohamed_lemin@yahoo.fr

محتويات العدد:

– دور القدس في الصراع السياسي منذ هدنة الرملة حتى سقوط الدولة الأيوبية 588 – 648 هـ / 1192 – 1250م، د. شوكت رمضان حجة،	ص 4
– التواجد الأوربي والبعثات الكشفية في موريتانيا، د. آدب ولد سيدا محمد،	ص 27
– تحولات المدينة المغربية خلال القرن التاسع عشر، المدن المراسي، د. امبارك بوعصب،	ص 40
– النّوازل الفقهية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، (فتوى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حول التّجنس "1937" أنموذجا)، د. قاصري محمد السعيد،	ص 53
– الشيخ الجنثوري ونوازله الفقهية، د. هرباش زاجية، جامعة معسكر، الجزائر،	ص 71
– الإمام الغزالي و فقهاء المغرب والأندلس بين الاختلاف والاتفاق المذهبي، د. خالد بوهند،	ص 86
– المرأة الموريتانية والتنمية، أة. لاله بنت سيد لمين،	ص 96
– التوسع الحضري والتنمية بمدينة كيفه، د. محمد محمود ولد المصطفى،	ص 106
– الأمن الإنساني و دور دولة الرعاية العربية في ظل العولمة، د.علاء زهير الرواشدة، و دة. أسماء ربحي العرب،	ص 127
– العوامل المرتبطة بالعنف لدى طلاب مدارس التعليم الثانوي الفني وطرق مواجهته (دراسة ميدانية)، د. محمد جبر السيد عبد الله جميل،	ص 138

دور القدس في الصراع السياسي منذ هدنة الرملة حتى سقوط الدولة الأيوبية 588 – 648 هـ / 1192 – 1250م

د. شوكت رمضان حجة، جامعة الخليل، فلسطين

المقدمة

مرت الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين الايوبي بمراحل حرجة من الانقسام، فقد احتفظ ابنه الملك الأفضل بدمشق، وابنه العزيز عثمان بمصر، وابنه الملك الظافر حلب، بينما كان أخيه الملك العادل في الكرك[1]، ودخل هؤلاء في مرحلة من الصراع المرير انتهى بوصول الملك العادل إلى السلطة، وإعادة توحيد الدولة من جديد[2].

وعادت الدولة الأيوبية لتعاني من الانقسام مجددا بعد وفاة الملك العادل، وفشل الحملة الصليبية الخامسة، إذ حل الملك الكامل مكان والده العادل في مصر، بينما أصبحت دمشق من نصيب الابن الثاني للعادل الملك المعظم عيسى، في حين كانت الجزيرة من نصيب الابن الثالث للعادل الأشرف موسى، وحلب لابن عمهما صلاح الدين قلج ارسلان[3].

وكما كانت القدس النقطة المركزية في مفاوضات هدنة الرملة[4] بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وريتشارد الأول "ملك انجلترا" أثناء الحملة الصليبية الثالثة (588–587هـ/ 1191– 1192م)، فقد ظلت كذلك تلعب دورا محوريا وهاما في الصراع الصليبي الإسلامي حتى تحريرها على يد الخوارزمية سنة (642 هـ / 1244م). وعدم عودة الفرنجة إليها مرة أخرى.

هذا وتناولت الدراسات الحديثة الحروب الصليبية بشكل موسع، وكتبت الكثير من الأبحاث حول الكثير من القضايا المتعلقة بهذه الفترة، ومع كل هذا، فإن هناك كثير من القضايا لا تزال بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث. لقد علق الدارسون المحدثون كثيرا على موقف الأمراء الأيوبيين من القدس، وانقسموا ما بين مؤيد أو معارض أو مبرر، لما أقدموا عليه من تصرفات وبخاصة فيما يتعلق بما أقدم عليه الملك الكامل، ولا تهدف هذه الدراسة إلى تناول هذه الجوانب وإنما سوف تتناول الدور السياسي للقدس في الصراع الإسلامي الصليبي بعد هدنة الرملة، إذ أن هذه القضية المواضيع الهامة التي لم تحظ بعناية واهتمام الدارسين، حيث لم يتم تناولها إلا بشكل عابر من خلال الحديث عن الحروب الصليبية بشكل عام، وعن الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة بشكل خاص، دون التركيز على دور القدس السياسي في الأحداث الهامة التي تلت وفاة صلاح الدين الأيوبي، سواء في تحديد العلاقة بين الايوبيين والصليبين، أو حتى في تحديد العلاقة الامراء الايوبيين أنفسهم إبان مراحل الانقسام والصراع على السلطة، الذي كانت تشهده الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين الايوبي.

وتأتي أهمية هذه الدراسة في كونها تسلط الضوء، وتعطي رؤية تاريخية على الدور السياسي للقدس في مراحل الصراع الصليبي الاسلامي والاسلامي الاسلامي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي وحتى سقوط الدولة الأيوبية، من خلال نقد وتحليل النصوص التاريخية اعتمادا على المصادر التاريخية بالمقام

الاول، دون اغفال لبعض الدراسات الحديثة التي تطرقت إلى جوانب على علاقة بالدراسة، إظهار الدور الذي لعبته المدينة في تحديد مواقف الاطراف المختلفة في الصراع.

القدس في ظل الحملة الصليبية الخامسة:

جاءت الحملة الصليبية الخامسة بتشجيع من المبشرين في فرنسا ومن البابا أنوسنت الثالث الذي أعلن أن المسلمين يستعدون للقضاء على ما تبقى من مملكة بيت المقدس اللاتينية، وأنه لا بد من دعمها بالمال والرجال والعمل على إعادتها إلى ما كانت عليه، وكتب إلى الملك العادل بأن يسلمه بيت المقدس[5]. وحاول البابا الاستفادة من الحماس وجهود بعض المبشرين وبخاصة في فرنسا، فبدأ بالتمهيد للدعوة للقيام بحملة صليبية جديدة[6]، فعمل على عقد مؤتمر عرف باسم مجلس لاتيران الكنسي في 20 رجب/ 11 نوفمبر(612 هـ 1215م)، شارك فيه كبار رجال الدين في الغرب والشرق، وجمع كبير من الأمراء الغير مهتمين بالشؤون الدينية، حيث بلغ عدد المشاركين فيه بالآلاف، ألقى فيهم البابا خطبة بليغة تحدث فيها عما تعانيه القدس تحت حكم المسلمين الذين ينتهكون حرمة كنيسة القيامة ويتهكمون على صليب السيد المسيح، مطالبا الحاضرين بمساعدته في تحريرها، وهو ما قابله المجتمعون بحماس شديد متفقين على توجه حملة صليبية إلى مصر بعد أن وضعوا خطط ذلك[7].

من الواضح أن هدف الحملة الصليبية الخامسة هو رغبة الأوروبيين في محو أثار الهزائم التي لحقت بهم على يد صلاح الدين الأيوبي، وفشل الحملتين الصليبيتين الثالثة والرابعة في استرداد القدس من أيدي المسلمين، وإعادة السيطرة الصليبية عليها مرة أخرى[8]، أي أن القدس كان لها الدور المركزي والمحوري الأول الذي استندت إليه هذه الحملة كما كان الحال في الحملات السابقة.

وفي هذه الحملة التي حشدت فيها البابوية إمكانيات ضخمة، كان التخطيط مشابهاً للحملة الرابعة في أن تتوجه إلى مصر أولا، وذلك لإدراك الصليبيين مدى أهمية مصر في الصراع مع المسلمين في بلاد الشام، وقناعتهم بأنه سوف يكون من الصعب عليهم استرداد القدس دون أن يتمكنوا من السيطرة على مصر التي كانوا يعتبرونها مفتاحا لبلاد الشام، وعن هذا يقول ابن واصل : ولما طالت مدة اجتماع الفرج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة في ماذا يبدءون بقصده، فأشار عقلائهم بقصد الديار المصرية أولا، وقالوا : "إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها، وحينئذ لا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد" [9].

وقد مرت مصر في الحملة الصليبية الخامسة بظروف صعبة بسبب شراسة الحملة[10]، إذ توفي الملك العادل أثنائها[11] وحل مكانه ابنه الكامل، فكان عليه أن يواصل القتال ضد للصليبيين الذين بدئوا في اقتحام دمياط قبل وفاة العادل[12]، وكذلك مواجهة الاضطرابات الداخلية التي أثارها الأعراب القادمين من سيناء والشرقية بدرجة خطيرة[13]. وأخيرا التصدي للمؤامرة التي دبرها الأمير عماد أحمد بن علي المعروف

بابن المشطوب لعزله عن الحكم واستبداله بأخيه الأصغر الفائز[14]، وهي الأوضاع التي دفعته إلى الهرب من معسكره وطلب النجدة من أخويه المعظم والأشرف في الشام[15].

أظهر أبناء العادل قدرا كبيرا من التضامن والتعاون أثناء الحملة الصليبية الخامسة، لإدراكهم بأن سقوط مصر بيد الصليبيين، سوف يتبعها سيطرتهم على بلاد الشام، إذ أن اهتمام الصليبيين بالسيطرة على مصر لترسيخ سيطرتهم على بلاد الشام قد ظهرت في مرحلة مبكرة من الحروب الصليبية[16]. وعلى هذا الأساس اجتمع الأخوة الثلاثة : الكامل والمعظم والأشرف لمواصلة القتال، فنجح المعظم في التخلص من ابن المشطوب، وإعادة تنظيم الجيش الإسلامي[17] قبل أن يعود إلى بلاد الشام ليهدم أسوار القدس، لخوفه من استيلاء الصليبيين عليها[18].

إن عودة المعظم من مصر إلى بلاد الشام لهدم أسوار القدس، يلقي الضوء على مدى إدراك الأيوبيين لمركزية دور القدس وأهميته في الصراع، وأنها قد تكون ورقة هامة للمساومة سوف يحاولون من خلالها إغراء الصليبيين بها في أية مفاوضات قد تحدث بين الطرفين، إذ أنه لم يكن بعيدا عنهم أن القدس هي الهدف الأول للصليبيين، ولعل هذا ما يفسر إصرار المعظم على هدم الأسوار رغم تلكؤ البعض وضجر السكان والناس، وما أصابهم من جراء ذلك، وقد وصف أبو شامة هذا الوضع وصفا دقيقا فقال : " ففي أول المحرم وقيل في سابع المحرم أخرب المعظم أبراج القدس وسوره خوفا من استيلاء الفرنج عليه، فاضرب الناس وخرجوا متفرقين في البلاد، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم، وقد كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة، وكثرة السكان. قال أبو المظفر : كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل في دمياط وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم بيت القدس فاتفق الأمراء على خرابه وقالوا قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام. وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان، وعز الدين أيبك أستاذ الدار فكتب إليهما المعظم بخرابه : فتوقفا وقالا : نحن نحفظه. فكتب إليهما المعظم لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الشام، فألجأت الضرورة إلى إخرابه فشرعوا في السور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات، والبنات، والشيوخ، والعجائز، والشبان، والصبيان إلى الصخرة والأقصى فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت ومحراب الأقصى من الشعور، وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم وما شكوا أن الفرنج تصحبهم وامتلأت بهم الطرقات. فعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات تمزقن ثيابهن وتربطها على أرجلهن من الحفا. ومات خلق كثير من الجوع والعطش. وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها. ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس. وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم. ورطل النحاس نصف درهم. وأكثر الشعراء في ذمها ودعوا عليها فقال بعضهم :

في رجب حلل الحميا	وأخرب القدس في المحرم

قال : وأنشدني قاضي الطور مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي لنفسه :

مررت على القدس الشريف مسلما	على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة	على ما مضى من عصرنا المتقدم
رام علج أن يعفى رسومه	وقد وشمر عن كفي لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها	لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدي بالنفوس فديته	بنفسي وهذا الظن في كل مسلم[19].

ويذهب رينسمان إلى القول أن المعظم بادر إلى تدمير استحكامات القدس، لأن الأيوبيين كانوا مدركين بأنهم قد يضطرون للتنازل عنها، وأنه في هذه الحالة لا بد من تسليمها غير محصنة فقال : " وإذ كان لا بد من بذل بيت المقدس للمسيحيين لإنهاء الحرب، فينبغي أن لا يتم تسليمها لهم إلا في حالة خراب، وعجز عن الدفاع" [20].

إن شراسة الحملة الصليبية الخامسة، وإدراك الأيوبيين لأهمية القدس في الصراع، جعلتهم يفاوضون الصليبيين، ويقدمون لهم تنازلات سخية في بلاد الشام، فقد عرضوا عليهم تسليمهم القدس، أو بكلمات أخرى إعادة إحياء مملكة بيت المقدس الصليبية مقابل الجلاء عن مصر، قال ابن الأثير : "هذا يجري والرسل مترددة بينهم في تقرير قاعدة الصلح، وبذل المسلمين لهم تسليم البيت المقدس، وعسقلان، وطبرية،وصيدا، وجبلة، واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل وما تقدم ذكره ما عدا الكرك، ليسلموا دمياط، فلم يرضوا، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها، فلم يتم بينهم أمر وقالوا : لا بد من الكرك، فبينما الأمر هذا وهم يمنعون، فاضطر المسلمون إلى قتالهم، وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظنا منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم..." [21]. أما ابن الوردي فيذكر أن عرض الكامل هذا قد استثنى الكرك والشوبك من المناطق سوف تسلم للصليبيين، ولكنهم اشترطوا الحصول عليهما إضافة إلى ثلاثمائة ألف دينار كتعويض عن قيام المعظم عيسى بهدم أسوار القدس[22]. ويورد المقريزي تفصيلات أكثر حول هذه المفاوضات فيقول : "هذا والرسل تتردد من عند الفرنج في طلب الصلح بشروط : منها أخذ القدس وعسقلان وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر مافتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل، فاجابهم الملوك إلى ذلك، ما خلا الكرك والشوبك، فأبى الفرنج وقالوا : (لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله) فرضي الكامل، فامتنع الفرنج، وقالوا : لا بد أن تعطونا خمسمائة ألف دينا؛ لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس، مع أخذ ما ذكر من البلاد، وأخذ الكرك والشوبك أيضا، فاضطر المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم" [23].

ويوضح رينسمان أكثر بشأن عرض الكامل فيقول : "وفي نهاية أكتوبر 1291 أرسل الكامل فارسين أسيرين، ليعرضا على الفرنج شروطا محددة للصلح، تقضي بأنه إذا جلا الفرنج عن مصر،

فسوف يعيد إليهم صليب الصلبوت، وسوف يحصلون على بيت المقدس، وقلب فلسطين والجليل. وسوف لا يحتفظ المسلمون إلا بالقلاع الواقعة وراء نهر الأردن، غير أنهم سوف يؤدون عنها إتاوة" [24].

يبدو من النصوص السابقة أن المفاوضات كانت شاقة وعسيرة، وأن الصليبيين قد أظهروا فيها قدرا كبيرا من التشدد كان يقابله تراجع في الموقف الأيوبي والاستعداد لتقديم مزيدا من التنازلات[25] أملا في الوصول إلى اتفاق ينقذ مصر وبالتالي ينقذ الدولة برمتها. كما يبدوا واضحا أنه كلما أظهر الأيوبيين استعدادا للتنازل كلما تشدد الصليبيون أكثر بحيث يضعون شروطا جديدة، إذ عرض الأيوبيين بداية التنازل عن القدس وعسقلان وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر مافتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل باستثناء الكرك والشوبك لأهميتهما[26] ، مقابل تسليم دمياط والإنسحاب من مصر، ولكن الصليبيين أصروا عليهما فاضطر الأيوبيين إلى الموافقة، ولكن الصليبيين أضافوا شرطا جديدا يتضمن الحصول على ثلاثمائة ألف دينار؛ ليعمروا بها أسوار القدس، التي كان المعظم قد هدمها.

ويبدوا أن الأيوبيين قد اعتقدوا بداية أن التنازل للصليبيين عن القدس و سائر فتوح صلاح الدين باستثناء الكرك والشوبك قد يكون كافيا للوصول إلى اتفاق وذلك نظرا لأهمية القدس للصليبيين، وهو ما دفع رينسمان إلى اعتبار هذا العرض مثيرا للدهشة، ولكن الخلافات في وجهات النظر بين الصليبيين من هذا العرض أدت في النهاية إلى رفضه فيقول: "كان ذلك عرضا مثيرا للدهشة والقلق، إذ سوف يعود للعالم المسيحي دون قتال، المدينة المقدسة، وبيت لحم والناصرة، وصليب الصلبوت. نصح يوحنا بريين بقبول هذا العرض، وسانده في ذلك باروناته والبارونات القادمين من إنجلترا وفرنسا، وألمانيا، ولكن لم يرض بهذا العرض، بيلاجيوس وبطريرك بيت المقدس. إذ اعتقد أنه من الخطأ التوصل إلى اتفاق مع الكفار. ووافقتهما الطوائف الدينية العسكرية لأسباب إستراتيجية، إذ جرى تدمير استحكامات بيت المقدس والقلاع الواقعة بالجليل، وكيفما كان الأمر، فمن المستحيل المحافظة على بيت المقدس ما لم تتم السيطرة على إقليم ما وراء الأردن. وعارض الايطاليون أيضا شروط الكامل للصلح، فعلى الرغم من حرص المدن الايطالية البحرية على ألا تقطع علاقاتها مع مصر، فانه قد حدث وقتئذ، أنهم يودون اتخاذ دمياط مركزا لتجارتهم. ولم يهتموا بإضافة الإقليم الداخلي إلى أملاك الفرنج. وبلغ النزاع بين الفريقين المرارة، أن اعتقد جيمس أسقف عكا، أن السلطان لم يبذل عرضه إلا كيما يثير المنازعات بين المسيحيين. فتقرر رفض عرض السلطان تحت إلحاح وإصرار بيلاجيوس" [27].

يظهر أن القدس قد لعبت مرة أخرى الدور المركزي والمحوري في الحملة الصليبية الثانية، وسواء أكان ذلك مقصودا وهو الأمر المستبعد، أو غير مقصود وهو الأرجح، فإن هذا العرض السخي قد سبب انقساما بين الصليبيين ما بين رافض أو موافق[28]، وذلك لتضارب المصالح بين المشاركين في الحملة ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تغليب وجهة نظر الرافضين لهذا العرض[29]. وهنا يمكن القول أن الصليبيين ربما قد اعتقدوا بأنه وبعد حصولهم على القدس يمكن لهم ابتزاز الأيوبيين بأكبر قدر ممكن من المناطق الأخرى في بلاد الشام مقابل الانسحاب عن مصر، كما أن الأيوبيين قد اعتقدوا أيضا أن

عروضهم السخية وبخاصة فيما يتعلق بالقدس سوف تلقى قبولا لدى الجانب الصليبي وأنها سوف تكون كافية للوصول إلى اتفاق، ونظرا لأن طلبات الصليبيين المتتابعة قد فاقت قدرتهم على تنفيذها، لم يكن أمامهم إلا الاستمرار في القتال الذي أدى في النهاية إلى حدوث انقلاب في نتج عنه فشل الحملة، وانسحاب الصليبيين عن مصر [30].

القدس في ظل الحملة الصليبية السادسة :

بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، توجه ملك حنا دي برين ملك مملكة بيت المقدس لمقابلة البابا، كما زار كل من فرنسا واسبانيا للدعوة لحملة صليبية جديدة تنقذ القدس من أيدي المسلمين، كما زار بالترتيب مع البابا الإمبراطور فردريك وزوجه من ابنته بولاند [31]، لربط الإمبراطور بالأراضي المقدسة وجعله يشارك في حملة صليبية جديدة، وهو ما وعد به الإمبراطور مندوبي البابا وأقسم عليه قبل إتمام الزواج[32]، أما بعد الزواج فقد اعتبر الإمبراطور أن عرش مملكة بيت المقدس قد أصبح من حقوق زوجته، وأن حنا دي برين لم يعد وصيا على العرش، وهو ما أدى إلى تفاقم الخلاف الموجود أصلا بين الإمبراطور والبابا[33].

وهكذا فقد جاءت الحملة الصليبية السادسة إلى المنطقة في ظل متغيرات متسارعة في المنطقتين الإسلامية والأوروبية على السواء، فعلى الرغم من إجماع المصادر على أن الإمبراطور كان مثقفا، وعالما بالفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب والتاريخ، وأنه بحكم نشأته في جزيرة صقلية لم يكن يحمل كرها كبيرا للمسلمين[34]، ولعل هذا هو السبب الذي دفع البعض إلى الذهاب إلى أنه كان مسلما في الباطن[35]، هذا في حين أشارت بعض المصادر إلى أنه كان دهريا لا يؤمن بالمسيحية[36]. وقد كان الإمبراطور ولأسباب كثيرة على خلاف كبير مع البابا بسبب الصراع الكبير بين البابوية والإمبراطورية المقدسة في تلك الفترة[37]، حيث كانت البابوية تضغط عليه ضغطاً شديداً للقيام بحملة صليبية جديدة بعد فشل الحملة الخامسة[38]، ولكن الإمبراطور كان متخوفاً من القيام بذلك لئلا يمكن البابا من العدوان على الإمبراطورية المقدسة أثناء غيابه، فأخذ يماطل البابوية، وبوصوول دعوة الكامل إليه لمحالفته ضد المعظم تهيأت الظروف له للقيام بهذه الحملة[39] ، فوصل من جنوب إلى صقلية، ومنها إلى عكا بعد رحلة، تخللها خلاف كبير مع البابا[40].

أما في الجانب الإسلامي، فبعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، فرض الملك الكامل سلطانه على الأمراء الأيوبيين، ولكن الدولة لم تلبث أن مرت مرة أخرى بمراحل حرجة من الانقسام، إذ دب الخلاف بين الملك المعظم وأخويه الكامل والأشرف. يقول المقريزي عن حوادث سنة 624 هـ : "وفيها (سنة 626 هـ/ 1229م) تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف"[41]. وتختلف المصادر حول سبب هذا الخلاف حيث أرجعه البعض إلى طمع المعظم[42]، الذي حاول الخروج على طاعته، وتطلع لتوسيع أملاكه، فهاجم حماة واستولى على بعض أعمالها، مثل المعرة وسلمية، التابعتان لابن عمه الناصر

صلاح الدين قلج أرسلان، ولم ينسحب منهما إلا بأمر الملك الكامل، فترك المنطقة حانقا على أخويه[43]، وهو ما أدى إلى زيادة حدة الخلاف بينهما.

أما الملك الكامل فقد عمل على كسب الأمراء الأيوبيين إلى جانبه، وإبعادهم عن أخيه المعظم، فقام المعظم بدعم الثورة التي قام به شهاب الدين على أخيه الملك الأشرف في خلاط[44] ، كما قام بإلقاء القبض على أخيه الأشرف، وإجباره على التعهد بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماه ومهاجمة الملك الكامل في مصر، وقد تعهد الأشرف بذلك[45]، وذلك عندما توجه الأشرف إليه طالباً منه المساعدة أمام الخطر الخوارزمي، عندما شرع الخوارزميين في مهاجمة جورجيا قرب من ممتلكاته في خلاط[46]، ولكنه ما كاد يفلت من يد أخيه المعظم حتى وأكد تحالفه مع الكامل وأخبره بكل ما حدث وتأول في إيمانه التي حلفها أنه كان مكرها عليها[47]. كذلك أقام المعظم حلفاً مع السلطان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه ومظفر الدين بن زين الدين صاحب مع صاحب إربل[48]، حيث وعد خوارزم شاه بأن تكون له الخطبة والسكة في دمشق[49]، فرد جلال الدين بأن أرسل للمعظم "خلعة لبسها وشق بها دمشق، وقطع الخطبة للكامل"[50].

بهذا، بدا واضحا أن الأمور بين الأخوين الكامل والمعظم قد سارت في طريق مسدود، وأن كل منها، بدأ يبحث عن حلفاء خارجيين ضد أخيه، ويظهر أنه باستعانة المعظم بالخوارزميين ومحالفته لهم، جعل الملك الكامل يسارع إلى طلب المساعدة والتحالف مع الإمبراطور فردريك الثاني ملك جزيرة صقلية وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في غرب أوروبا، وكان رسوله إليه الأمير فخر الدين يوسف يستدعيه إلى القدوم إلى الشام، ليشغل سر أخيه المعظم[51] ، إذ انه تخوف من أن يؤدي تحالف المعظم مع الخوارزميين ليس فقط إلى ضياع مصر، بل إلى زوال الدولة الأيوبية ككل[52]، إذ تؤكد الكثير من الروايات أن الكامل كان يخشى المعظم أصلا وهو ما يعني أن هذا التحالف قد زاد من هذا الخوف ، قال ابن واصل : "وكان الملك الكامل– مع أن عسكره يناهز اثني عشر ألفا وسعة ملكه – لا يجسر على الخروج إلى الشام، ويظن أنه إن خرج (إلى الشام) انحاز أكثر عسكره إلى الملك المعظم، وحيل بينه وبين الديار المصرية (وكان والله الأمر كذلك)؛ فكان لذلك يداريه ويهادنه في الظاهر، وكان الملك المعظم مع ذلك يداري أخاه الملك الكامل ويخطب له على منابر بلاده، ولا يذكر اسمه معه (في غالب أوقاته)، ويضرب السكة باسمه وكذلك يداري أخاه الملك الأشرف" [53].

كما يفهم من رواية أوردها الداودري في كنز الدرر أن خشية الكامل من المعظم، إضافة إلى تحالف المعظم مع الخوارزميين لم يكونا الأسباب الوحيدة التي دفعت الكامل إلى التحالف مع الإمبراطور فردريك، فيضيف إلى ذلك سببا قويا أخر مفاده أن المعظم نفسه كان قد حاول التحالف مع الإمبراطور، فقد جاء على لسان الكامل انه قال لأخيه الأشرف : " ما أحوجني إلى ذلك إلا المعظم، فإنه أعطى الأنبرور من الأردن إلى البحر، والضياع التي من باب القدس إلى يافا، فأحتجت أنا أن أعطيه القدس أيضا"[54]. ولعل ما يجعلنا لا نستبعد مثل هذه الرواية هو توجه مندوب الإمبراطور بعد اجتماعه مع الكامل

وإتمام الاتفاق لمقابلة المعظم لكي يطلب منه تسليم البلاد التي فتحها صلاح الدين [55]. يضاف إلى هذا، أن الكامل ربما اعتقد أن الصليبيين سوف لا يمكنهم المحافظ على القدس بعد تخريب أسوارها، وأنه من الممكن له أن يخرجهم منه عندما تستب له الأمور[56].

وفي مقابل مساعدة الإمبراطور للكامل، تعهد الأخير له بأن يعطيه البيت المقدس، وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل[57]، فرد الإمبراطور بسفارة تحمل هدية سنية وتحف غريبة، فاستقبل الكامل البعثة استقبالا حسنا بنفسه وأكرمه إكراماً زائداً وأعد له هدية فاخرة[58] ، ومر مبعوث الإمبراطور على دمشق على المعظم بعد اجتماعه بالكامل، وطلب من المعظم البلاد التي فتحها عمه صلاح الدين، فأغلظ له وقال : " قل لصاحبك ما عندي إلا السيف"[59]، ولكن المعظم سرعان ما توفي وخلفه ابنه الملك الناصر داود[60]، وهو ما يعني انهيار التحالف الذي بينه وبين كل من صاحب إربل وخوارزم شاه، فبدأ الكامل يتطلع إلى أخذ ممتلكاته في بلاد الشام[61].

قام الكامل بعد وفاة المعظم بالتوجه إلى بلاد الشام[62]، فلم يكن من الملك الناصر بن المعظم الذي خاف أن يستولي عمه الكامل على دمشق إلا الاستنجاد بعمه الأشرف، فأرسل الأشرف إلى الكامل يستعطفه، ويؤكد له أنه على تحالفه السابق معه، وأن عليهما العمل معا على منع الفرنج من أخذ بلاد الشام، فكان رد الكامل : "إني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنه لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية، ولم يمنعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين قد فتح البيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الأعصار، وممر الأيام، فان أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر، وقبح الأحدوثة، ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس، وعند الله – تعالى – ثم أنهم لا يقنعون حينئذ بما أخذوه، ويتعدون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر، وأحفظ أنت البلاد ولست بالذي يقال عني : أني قاتلت أخي أو حصرته – حاشا لله تعالى –"[63].

يبدو أن الكامل كان متظاهرا في الرغبة في العودة إلى مصر وترك أمر حماية القدس للأشرف، لعلمه بأن الأشرف وأهل الشام لا قدرة لهم على مواجهة حملات صليبية جديدة بدونه، وأنه إذا عاد إلى مصر فان الصليبيين سوف يستولون على القدس وربما على أغلب بلاد الشام، وهو ما دفع الأشرف للحاق به لإقناعه بالبقاء في الشام، ومن ثم قام بالتحالف معه لأخذ دمشق من صاحبها الناصر داود[64]، وهو ما كان الكامل يهدف إلى تحقيقه بعد وفاة المعظم.

وصول الإمبراطور فردريك والمفاوضات مع الكامل :

تزامن وصول الإمبراطور إلى عكا مع وفاة المعظم وانهيار التحالف الذي كان قد عقده مع كل من صاحب إربل و خوارزم شاه، وهو ما يعني بطبيعة الحال زوال الخطر الذي شكله هذا الحلف على الكامل، والذي بسببه قام باستدعاء الإمبراطور لمساعدته ضد أخيه[65].

بعد وصوله إلى عكا، بعث فردريك برسالة إلى الكامل يطالبه فيها تنفيذ ما تم الاتفاق عليه جاء فيها : "الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ولا أجيء إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي – في زمن حصار دمياط – الساحل كله ، وإطلاق الحقوق بالسكندرية، وما فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم. وما نائبي إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له"[66].

وتصف المصادر موقف الكامل من هذه الرسالة، فتشير إلا انه أصيب بالحيرة، فهو من ناحية لا يمكنه رفض هذا الطلب المتفق عليه مسبقا، ولم يكن بإمكانه محاربة الإمبراطور في هذا التوقيت من ناحية أخرى، ولذا فإنه أرسل إليه الأمير فخر الدين بن الشيخ ملاطفا ومسايرا[67]، ليكسب بعض الوقت يقرر بعدها ماذا سوف يفعل. ويذهب البعض إلى القول أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته أن يصطدم بالصليبيين بالشام في هذه المرحلة التي تتعرض فيها لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول، فأراد أن يكسب بعض الوقت بأن يطيل أمد المفاوضات[68]، لا سيما وأن الهدنة التي تمت عقب جلاء الصليبيين عن مصر لا ينتهي أجلها إلا في نهاية 626هـ/1229م.

إن موقف الكامل المتردد، زاد من حراجة موقف فردريك في بلاد الشام، لا سيما أنه كان مترددا أصلا في الخروج على رأس حملة صليبية مما جعل البابا يغضب ويفرض عليه حرمانا من الكنيسة[69]، وربما أن عرض الكامل بتسليمه القدس مقابل مساعدته ضد أخيه المعظم، كان بمثابة طوقا للنجاة بالنسبة له للتخلص من الضغوط الشديدة التي مورست عليه للقيام بهذه الحملة، إذ وصله رسول الكامل وهو يستعد للقيام بالحملة[70]. لذا يبدو من الواضح انه قد عول كثيرا على هذا الوعد ليعيد له هيبته في الغرب[71] رغم انه لم يكتفي به وحده[72] ، ولعل ما يدلل على هذا أنه لم يستقدم معه جيشا كبيرا قادرا الدخول في صراع مع المسلمين[73]، هذا بالإضافة إلى انه لا يمكن له أن يعول كثيرا على صليبي الشام نظرا لما كانوا يعانونه من ضعف وتفكك، والإمبراطور بالنسبة لهم أمير مغضوب عليه من البابا، ومحروم ومطرود من رحمة الكنيسة، وهو ما يفسره رفضهم للتعاون معه بعد وصوله[74].

ولعل ما ضاعف من صعوبة وضع الإمبراطور بعد وصوله إلى الشام، أن البابا كان قد راسل بعض الأمراء الأيوبيين ومنهم الكامل يطلب منهم عدم تسليم القدس للإمبراطور[75] ، كما وصلت أخبارا للإمبراطور تشير إلى اعتداء البابا على ممتلكاته في الغرب[76].

كل هذا جعل فردريك في موقف لا يحسد عليه، ومع ذلك نلاحظ أنه ظل متماسكا، ولم يفقد الأمل في تحقيق الغرض الذي جاء من أجله، ولجأ إلى إتباع سياسة ذات خطين متوازيين تمثل الخط الأول في الطريقة الدبلوماسية القائمة على مفاوضة الكامل وحثه على تنفيذ وعده له بتسليمه القدس، إذ بعث رسول إلى الملك الكامل يطالبه فيه بتنفيذ اتفاقه معه كما ذكرنا[77]. كما قام الإمبراطور باستخدام أسلوب الاستعطاف حيث أنه تظاهر بأنه ليس له غرض في القدس ولا غيرها من المناطق، وأن غرضه الوحيد ينحصر في حفظ مركزه ووجاهته في الغرب[78]، فكتب إليه قائلا : "إني عتيقك، وتعلم أني أكبر ملوك

الفرنج، وأنت كاتبتني بالمجيء، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فان رجعت خائبا انكسرت حرمتي، وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية. وأنتم قد خربتموها، وليس لها طائل، فإن رأيت أن تنعم علي بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك، وأنا ألتزم بحمل دخلها إليك. فلان له الكامل وجاوبه أجوبة غليظة، وباطنها نعم" [79]، وهو في هذا إنما يهون من هذه المسألة ويصورها على أنها مجرد إجراء شكلي لا أكثر.

ويلاحظ أنه في هذا الخصوص أن أسلوب الاستعطاف هذا يحمل في ثناياه تهديا مبطنا باستخدام القوة فقد جاء في إحدى رسائله للكامل : " أنا أخوك واحترام دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وأنا وريث مملكة القدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا أروم أن أنازعك ملكك، فلنتجنب إراقة الدماء" .

على رغم مما يظهر من أن هذه الرسالة هي رسالة استعطاف للكامل، إلا أنها تحمل في ثناياها نبرة التهديد المبطن، إذ يوضح الإمبراطور فيها، أن تسليمه القدس فقط هو الكفيل بتجنيب الطرفين الحرب وإراقة الدماء. كما يلاحظ أيضا أن الإمبراطور استمر في استخدام دبلوماسية الاستعطاف في هذه المرحلة، فقد جاء في رسالة أخرى له : " أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي بينهم، وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخرجوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد الزيارة، فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر". وذكر ابن واصل أن الإمبراطور قال للأمير فخر الدين : " لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئا من ذلك، وما لي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم" [80].

أما الخط الثاني الذي سار عليه الإمبراطور في مفاوضته للكامل، فيتمثل في محاولة الضغط على الكامل وتخويفه من خلال محاولة الظهور بمظهر القوة المتزامنة مع الاستعداد العسكري، إذ تشير المصادر إلى قيامه خلال المفاوضات بشروعه في عمارة مدينة صيدا بعد أن استولى عليها على الرغم من أنها كانت مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وأن سورها يجب أن يبقى خرابا لا يجوز لأي من الطرفين القيام بتعميره بموجب هدنة سابقة[81].

ويلاحظ هنا أن الإمبراطور قد ظل مصرا خلال هذه المفاوضات على موقفه القاضي بأن ينفذ الكامل له الشروط التي تم الاتفاق عليه. ويوضح ابن واصل هذا الموقف بالقول : " وأبى أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس إليه، وبعض الفتوح الصلاحي"[82] ، وهو ما كان الكامل قد امتنع عن تنفيذه[83].

أما الكامل فبالرغم من ترحيبه بالإمبراطور، ورده الرقيق على رسالته، إلا أنه أخبره صراحة بأنه لم يعد في حاجة إلى هذه مناصرته ضد أخيه المعظم، وأنه كان سوف يعطيه القدس ثمناً لهذه المناصرة لو أنها قد تمت، أما وأن الظروف قد تبدلت بموت المعظم، فإنه لا يستطيع التفريط في بيت القدس[84].

وبالإضافة إلى ذلك، فعلى الرغم من أن الكامل قد أعلن للإمبراطور بأنه سوف لا ينفذ ما كان قد وعد به، وأنه لن يسلم القدس، فإنه على ما يظهر قد بدأ يخشى قيام الصليبيين بعمل عسكري ضده، ولا

سيما بعد قيام الإمبراطور بتحصين صيدا، وقد عبر المقريزي عن خوف الكامل هذا بقوله : " وخاف من غائلته، عجزا عن مقاومته، فأرضاه بذلك" [85]، ولعل خوف الكامل هذا ناجم أيضا عن استمرار النزاع بينه وبين ابن أخيه الناصر داود بن المعظم في دمشق، حيث استمر الناصر في مناصبة الكامل العداء، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى زيادة متاعب الكامل ومخاوفه من الدخول في صراع جديد غير مضمون النتائج.

وأخيرا، لا بد من الإشارة إلى تأثير الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، الذي سبق وأن حمل عرض الكامل إلى الإمبراطور بمساعدته ضد أخيه المعظم، وكان يحمل رسائله إلى الإمبراطور خلال المفاوضات، إذ كان رأي الأمير يتمثل في دعوة الكامل إلى الالتزام بما وعد، وأن عليه تسليم القدس إلى الإمبراطور[86] ، وهو ما قام به الكامل في نهاية الأمر.

اتفاقية تسليم القدس (صلح يافا) ربيع الأول 627 هـ / 1229 م :

عرفت اتفاقية تسليم القدس من قبل الكامل للإمبراطور فردريك باسم صلح يافا، وقد تم كتابة بنود هذا الصلح باللغتين العربية والفرنسية، وحلف الحضور على الالتزام بما ورد فيه من بنود، حيث حلف على ذلك كل من الكامل والإمبراطور والكامل[87] ، وقد نص الصلح على البنود التالية :

1- مدة الاتفاق عشرة سنوات ميلادية.

2- تبقى المناطق التي أخذها الصليبيون قبل الصلح بأيديهم وتشمل قلاع الشقيف، وتبنين وجبلة وكوكب وبيروت، وصيدا، ويافا، والمجدل، واللد، والرملة وعسقلان، وبيت جبريل.

3- تبقى بيت المقدس خربة، ولا يجدد سورها، وتكون قراها للمسلمين، وتكون تابعة للوالي بالبيرة الواقعة شمال القدس.

4- يبقى المسجد الأقصى والصخرة بيد المسلمين ويمارسون فيها الشعائر الدينية من أذان وصلاة، ويتولاها قوام مسلم، ولا يدخلها الصليبيون إلا للزيارة .

5- يأخذ الصليبيون بيت المقدس، والناصرة، وبيت لحم.

6- يعطي للصليبيين بعض القرى الواقعة على الطريق من عكا إلى القدس، حتى لا يتعرض الصليبيون القادمون من عكا لزيارة القدس للعدوان، وتبقى سائر المدن والقرى بين المسلمين.

7- إطلاق سراح الصليبيين ومن ضمنهم الأطفال الذين أسروا في حملة الأطفال السابقة.

8- تعهد الإمبراطور المشاركة في الدفاع عن الملك الكامل ضد أي عدو حتى ولو كان من الإفرنج، كذلك تعهد أيضاً عدم تقديم أية مساعدة لحكام انطاكيا وطرابلس، وحكام المناطق الإفرنجية الأخرى في بلاد الشام.

القدس بعد صلح يافا :

بعد توقيع الطرفين مباشرة، تم تسليم القدس للصليبيين في ربيع الأول سنة 627 هـ / 1229م، فاستأذن الإمبراطور من الكامل زيارة القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلب، وتسهب المصادر التاريخية في الحديث عن تفاصيل الزيارة[88].

هذا وقد كانت ردة الفعل على ما قام به الكامل عنيفا في مختلف مناطق العالم الإسلامي، ففي مدينة القدس عم الحزن والبكاء وأنكر الناس هذا العمل[89]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الأئمة والمؤذنون العاملون في القدس، توجهوا إلى مكان إقامة الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان كتعبير عن هذا السخط، وهو ما دفع الكامل إلى أن يأمر بأن : " يؤخذ ما معهم من الستور والقناديل الفضة وجميع الآلات، ويتوجهوا إلى حال سبيلهم"[90].

أما في المناطق الأخرى، فقد أسهب المصادر في الحديث عن السخط العام على ما قام به الكامل، فيصف المقريزي مدى الأسى الذي حل بالمسلمين لضياع بيت المقدس فيقول " فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل.....وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء. واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار....."[91]. أما ابن الأثير فيقول : " فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لم يمكن وصفه"[92]. ويضيف ابن واصل بالقول : " وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه"[93]. وقال الذهبي : "فيها (سنة 126 هـ) أخلى الكامل البيت المقدس وسلمه إلى الأنبرور ملك الفرنج. فإنا لله وإنا إليه راجعون. فكم بين من طهره من الشرك ومن أظهر الشرك عليه. ثم اتبع فعله بحصار دمشق وأذية الرعية"[94].

ويبدو أن الناصر داود قد استغل ذلك فشجع حملة التشهير الكبيرة التي تعرض لها الكامل في دمشق، فقد ذكر سبط بن الجوزي أنه : "لما وصلت الأخبار بتسليم القدس للفرنج قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظائم بحيث أنه أقيمت المآتم"[95]، فيذكر سبط بن الجوزي أن الناصر قد طلب منه أن يجلس للوعظ في جامع دمشق، وأن يتحدث عما جرى في بيت المقدس، وأنه لم يكن بإمكانه مخلفته من ناحية، وكذلك فان الحمية للدين الإسلامي تتطلب الموافقة من ناحية أخرى، فألقى خطبة مطولة في حضور الناصر وجمع غفير من أهل دمشق جاء فيها : "انقطع عن بيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين! كم كانت لهم في تلك الأماكن من ركعة؟! كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة؟! تالله لو صارت عيونهم عونا لما وفت، ولو تقطعت قلوبهم أسفا لما اشتفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات لمثلها، تتقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات..." [96].

كما تظهر ردة العنيفة على ما قام به الكامل من خلال الشعر الذي قيل في رثاء القدس، ومما جاء في ذلك :

عزيز علينا أن نرى القدس يخرب	وشمس مبانيه تزول وتغرب
وقلت له : منا الدموع لأنه	على مثله تجرى الدموع وتسكب[97].

وأورد سبط بن الجوزي، أبياتا من قصيدة في حديثه في جامع دمشق فقال :

على قبة المعراج والصخرة التي	تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحي مقفر العرصات[98].

وروى البعض أن فقيرا بات في القدس، فسمع قائلا يقول في الليل هذه الأبيات :

إن يكن بالشام قل نصيري	وتهدمت ثم دام هلوكي
فلقد أصبح الغداة خراب	سمة العار في حياة الملوك[99].

هذا ويظهر أن الكامل قد أدرك قوة حملة التشنيع التي مورست ضده، فعمل على تعليل الظروف التي دفعته إلى القيام بما أقدم عليه، إذ أنه برر ذلك بالقول : "إن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له. كان متمكنا من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه"[100]. كما بعث برسل إلى الأقطار الإسلامية، وإلى الخليفة العباسي يبرر ما أقدم عليه، فكان تبريره لذلك بالقول : " إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالى المسلمين متحكم في الأعمال والضياع " [101].

يلاحظ أن ردة الفعل على ما قام به الكامل من تنازل كانت عنيفة، ولم تقتصر على الحكام فقط، بل اتسعت لتشمل كذلك الفقهاء والشعراء وعامة الناس، الذين اعتبروا أن ما قام به الكامل بمثابة الكارثة والمصيبة الكبرى التي تقام لأجلها المآتم، وهو ما يوضح مدى أهمية القدس والدور والتأثير الذي مثلته القدس في الصراع الإسلامي الصليبي وما كان لها من تأثير على مجرى الأحداث السياسية الجارية. كما يلاحظ أن الكامل قد حاول جهده لتبرير ما أقدم عليه من تنازل قد لا يبدو مبررا من خلال العمل على التهوين من هذه المسألة وتصويرها على أنها مجرد إجراء شكلي لا أكثر، وهو ذات الأسلوب الذي استخدمه معه الإمبراطور خلال المفاوضات التي توقيع صلح يافا، علما بأن هذا التبرير الذي يلقى قبولا بين المسلمين كما ذكرنا.

القدس حتى سقوط الدولة الأيوبية :

عادت الخلافات الأيوبية بعد وفاة الكامل لتظهر من جديد، فتحالف الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور صاحب حمص ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب في مصر [102]، كما أنهما ضما الصليبيين إلى هذا الحلف وشرعوا جميعا في مهاجمة مصر ولكن هذه الحملة انتهت إلى الفشل بسب انضمام جيوش الصالح إسماعيل والمنصور إلى الصالح أيوب عند غزة، وهو ما أدى إلى هزيمتهما ومن معهما من الصليبيين هزيمة كبيرة[103].

أما فيما يتعلق بالقدس في هذه الفترة فمن المعروف أنها قبل وفاة الكامل كانت تخضع للصليبيين بموجب صلح يافا، ولكن الناصر داود سارع إلى السيطرة عليها بعد وفاة الكامل عندما علم بقدوم حملة صليبية جديدة نزلت عكا، وهو ما اعتبره نقضا لشروط صلح يافا[104]. أما بعد هزيمة غزة، فقد جاءت حملة فرنسية صغيرة إلى عكا لم تستطع عمل شيء سوى مطالبة الصالح إسماعيل باحترام اتفاقه مع الصليبيين قبل هزيمة غزة، وذلك بالاعتراف بملكية الصليبيين لبعض الحصون في فلسطين وكذلك القدس، وهو ما تم الاتفاق عليه[105].

عاد النزاع مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبي بعد فشل محاولات الصلح بينهم[106]، فتحالف الصلح إسماعيل والناصر داود ضد الصالح أيوب، ولخوفهم من عدم قدرتهم على مواجهته، تحالفوا مع الصليبيين على أن يسلموا لهم القدس وأن يعملوا على إعادة مملكة بيت المقدس اللاتينية الصليبيين على ما كانت عليه قبل صلاح الدين، كذلك وعدوهم بأنهم بأن يعطوهم جزءا من مصر في حال نجحوا في أخذها، يقول ابن واصل عن ذلك : "ولما اجتمعت كلمة هؤلاء على حرب الملك الصالح نجم الدين أيوب ومباينته، وعلموا مكاتبته إلى الخوارزمية، وأنهم لا بد وأن يطرقوا البلاد ويجتمعوا مع عساكر الديار المصرية على حربهم، وعلوا أنهم لا طاقة لهم به، صالحوا الفرنج واتفقوا معهم على تسليم البيت المقدس إليهم، على أن يكون الحرم بما فيه من المزارات لهم وعلى تسليم طبرية وعسقلان وكوكب إليهم، وأن يأذنوا لهم في عمارتها. فتسلم الفرنج ذلك كله وعمروا قلعتي طبرية وعسقلان وحصنوهما. وأخذ بيت الأسبتار كوكب وعزموا على عمارتها، ودخل الفرنج القدس، وتسلموا الصخرة المقدسة والأقصى وما في الحرم الشريف من المزارات. وضمنوا للفرنج – على ما اشتهر – أنهم إذا ملكوا الديار المصرية أن يكون لهم فيها نصيب. وجمع الفرنج الفارس والراجل وحشدوا" [107].

أما الصالح أيوب، فيبدو انه قد حاول هو الأخر التحالف مع الصليبيين، وعرض عليهم مقابل التحالف معه نفس العرض الذي عرضه الصالح إسماعيل والناصر داود، أي بمعنى أن تكون سيطرتهم على القدس كاملة[108]، ولكن الصليبيين بعد تردد اختاروا الانضمام إلى الأيوبيين في الشام [109]، واتفقوا معهم على مهاجمة مصر[110]. يقول ابن واصل عن ذلك : "وسافرت في أواخر هذه السنة إلى الديار المصرية. ودخلت البيت المقدس، ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة. وعليها قناني الخمر برسم القربان. ودخلت الجامع الأقصى، وفيه جرس معلق. وأبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة، وأعلن فيه باالكفر، وقدم الملك الناصر داود القدس في ذلك اليوم الذي زرت فيه القدس، ونزل غربي القدس، فلم أجتمع به خيفة أن يصدني عن الوصول إلى الديار المصرية. ووصلت إلى غزة فوجدت بها بعض عسكر الملك الصالح إسماعيل نازلين بها"[111].

بعد هذا الاتفاق، قرر الطرفان مهاجمة مصر بعد أن تسلم الصليبيين بعض القلاع في بلاد الشام، يقول أبن واصل : "وبعث الملك الصالح (إسماعيل) عسكرا إلى غزة، وعزموا على قصد الديار المصرية.

ومضى الملك المنصور بنفسه إلى عكا، واجتمع بالفرنج وقرر معهم أن يمضوا معه لحرب الملك الصالح فأجابوه إلى ذلك"[112].

يبدو هذا الاتفاق كان يعني أن تكون سيطرة الصليبيين على القدس سيطرة تامة بما فيها الأماكن المقدسة وهي المناطق التي تم استثنائها من هذه السيطرة في صلح يافا كم ذكرنا، بدليل رؤية قول ابن واصل أنه رأى الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة وعليها قناني الخمر، والجرس معلق في المسجد الأقصى وقد منع فيه الأذان والصلاة.

أمام هذا الوضع، لم يكن أمام الصالح أيوب إلا الاستنجاد بالخوارزمية الفارين من وجه المغول، فراسلهم بهذا الخصوص، فما كان منهم إلا الترحيب بذلك فاندفعوا اتجاه بلاد الشام واحتلوا طبرية ونابلس والقدس سنة 642 هـ / 1244م[113]، وهزموا قوى الأيوبيين والصليبيين قرب غزة[114]، ولم يعد الصليبيون للسيطرة على القدس مرة أخرى.

يلاحظ أن القدس قد لعبت مرة أخرى نقطة مركزية في الصراع الإسلامي الصليبي، وكانت كذلك نقطة ورقة هامة في الصراعات الأيوبية الداخلية، يحاول من خلالها كل طرف دفع الصليبيين للتحالف معه من خلال ما يقدمه لهم من تنازلات بخصوصها، وعن هذا الصراع الأخير بين أمراء البيت الأيوبي يقول سعيد عاشور بأنه في سنة 641 هـ / 1234 – 1244م أن الأمراء الأيوبيين (الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر داود) قد أقروا : " مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف ووضع أيديهم على المقدسات الإسلامية في بيت المقدس"[115].

الخاتمة

أظهرت الدراسة أن القدس كانت دائما كما كانت من قبل النقطة المركزية في الإسلامي الصليبي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي حتى بعد أخر تحرير لها على يد الخوارزميين سنة 642 هـ / 1244م، إذ اتخذ الجميع منها ورقة هامة سواء لتحقيق السلم أو الحرب على السواء، وكان الموقف منها له أثره الكبير في المفاوضات وكذلك في تشكيل التحالفات الكثيرة التي شهدتها تلك الفترة. ففي الحملة الصليبية الخامسة شكلت القدس نقطة هامة في الصراع الإسلامي الصليبي عندما عرض الأيوبيين على الصليبيين التنازل لهم عنها وعن جميع فتوح صلاح الدين مقابل انسحابهم عن مصر.

كما كانت نقطة مركزية في الصراع بين الأمراء الأيوبيين أنفسهم وبخاصة بين الكامل والمعظم، حيث عمل كلاهما على استخدامها كورقة هامة في تحالفاته ضد الآخر، وأن الملك الكامل قد تنازل فعلا للصليبيين عنها. كما كانت نقطة هامة ومركزية في الصراع بين الصلح أيوب من جهة و الصالح إسماعيل والناصر داود من جهة أخرى، بحيث تنازل الأخيران عنها وسلماها للصليبيين وهو الأمر الذي كان الصالح أيوب على استعداد لعمله في سبيل التحالف مع الصليبيين.

كما يتضح أن كل الأطراف كانت دائما تحاول التخفيف من حدة ردة الفعل إزاء ما تقوم به تجاه المدينة كما فعل كل من الإمبراطور فردريك والكامل حيث صور الأول للكامل أن تسلميه للقدس ليس

أكثر من إجراء شكلي، وهو الأمر ذاته الذي ينطبق على الكامل الذي صور تنازله عنها للإمبراطور بأنه إجراء شكلي ليس أكثر.

واتضح كذلك أن القدس لم تكن نقطة مركزية عند الحكام والملوك فقط، بل كانت عند عامة الناس الذين كان دائما ما ينتابهم السخط مما يحل بها حتى عندما يكون الغرض حمايتها كما حدث مع المعظم عيسى، ومع الكامل الذي كان السخط عليه كبيرا وعاما لم يقبل فيه كل التبريرات التي حاول تقديمها. وكذلك حدث الأمر ذاته عندما تنازل عنها كل من الصالح إسماعيل والناصر داود.

الهوامش:

[1]- عن ذلك أنظر : عاشور، سعيد عبد الفتاح. الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996، ص 73 – 75.

[2]- عن ذلك أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 75 – 81.

[3]- أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 91 – 100.

[4]- عن قضية القدس في مفاوضات صلح الرملة أنظر : الطل، عثمان. رؤية تاريخية لقضية القدس في المفاوضات بين صلاح الدين الأيوبي والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد : 583 – 588 هـ / 1187 – 1191م، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، العدد 126، السنة 32، ربيع 2014، ص 39 – 76.

وعن صلح الرملة أنظر : ابن شداد، القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع : سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، تحقيق أحمد أبيش، دمشق : الأوائل للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2000م، ص399–240 ؛ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 2، القاهرة : مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، وزارة التربية والتعليم، إدارة الثقافة العامة، المطبعة الأميرية، ص 402–406؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج 7، بيروت : دار الثقافة، 1989، ص 199–200؛ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزرى الشيباني، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2022م/1424هـ، ص 218– 219؛ شاهين، رياض مصطفى : هدنة الرملة والظروف المحيطة بها، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد التاسع، العدد الأول، 2001، ص 365–416.

Ambroise, The crusade of Richard Heart Lion, Translated by Hubert, New York, 1943, p429 – 430, Lane pool, Stanley, A History of Egypt in the middle Ages, London, 1963, p 279.

[5]- أنظر : عمران، محمد سعيد. تاريخ الحروب الصليبية 1095 – 1291، دار المعرفة الجامعية، القاهرة (ب،ت)، ص 227.

[6]- أنظر : عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص 226 – 227.

[7]- أنظر : عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص 227 – 232.

[8]- عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص 225.

[9]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 3، ص 258. عن الاهتمام المبكر للصليبيين بمصر أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 9 – 14.

[10]- أنظر : المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ، 1987م، الجزء الأول، ص 317 – 322، 324– 325، 327؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413 هـ، 1992م، الجزء السادس، ص 210 – 216؛ أبي شامة، الروضتين، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هـ، 2002م الجزء الخامس، 176 – 177؛ ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، هجر للطباعة، 1419 هـ، 1998م، الجزء السابع عشر، ص 70 – 76؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 85 – 97؛ عمران، الحروب الصليبية، ص 252 –265؛ رينسمان، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الثالث، القسم الأول، مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة، نقله إلى العربية الباز العريني، بيروت : دار الثقافة، 1997م/ 1417هـ، ص 269 – 283.

[11]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 3، ص 270؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 310، 312؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 17، 71.

[12]- ابن واصل، مفرج الكروب، 257 – 260، 270، المقريزي، السلوك، ج 1، 310، 313؛ ج 17، ص 73 – 74.

[13]- المقريزي، السلوك، ج 1، 314، 320.

[14]- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 202؛ المقريزي، السلوك، ج 1، 314؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 91 – 92.

[15]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، 23؛ المقريزي، السلوك، ج 1، 314 – 315؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، 196؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 17، ص 73 – 74؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 206؛عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 91 – 92.

[16]- عن ذلك أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 9 – 14.

[17]- أنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، 18 – 19؛ ابن تغري بريدي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 202؛ المقريزي، السلوك، ج 1، 314 – 315؛ أبي شامة، الروضتين، ج 5، ص 176؛ أبي الفدا، عماد الدين إسماعيل،المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية (ب،ت)، الجزء الثالث، ص 129؛ عاشور، الحروب الصليبية، ص 92.

[18]- ابن الأثير، الكامل، ج 10 ، ص 377 – 378 (حوادث سنة 614 هـ)؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 19، 32؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 321؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 17، ص 70، 80 – 81؛ أبي الفدا، المختصر، ج 3، ص 122.

[19]- أبي شامة، الروضتين، ج 5، ص 174 – 175(حوادث سنة 616 هـ). أنظر أيضا : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 321؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 202.

[20]- رينسمان، الحروب الصليبية، ص 280.

[21]- ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 379 (حوادث سنة 614 هـ)؛ أنظر : ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 95.

[22]- ابن الوردي، زين الدين عمر. تاريخ ابن الوردي (ب،ن)، (ب،ت)، الجزء الثاني، ص 142 (حوادث سنة 618 هـ).

[23]- المقريزي، السلوك، ج 1، ص 327؛ أبي الفدا، المختصر، ج 3، ص 129؛ ابن الوردي، ج 2، ص 142 – 143.

[24]– رينسمان، الحروب الصليبية، ج3، ص 286.

[25]– الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 209 – 210. يقول : " فينما الرسل تترد في ذلك كله، والملك الكامل يحث في طلب الصلح، ويذعن بالإجابة لكل ما طلبوه". أنظر : عاشور، فايد حماد محمد. الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام، القاهرة (ب،ت)، ص 318.

[26]– عن أهمية الكرك والشوبك أنظر :

[27]– رينسمان، الحروب الصليبية، ج3، ص 386 – 387.

[28]– انقسمت مواقف قادة الحملة الصليبية حول عرض الكامل، فقد اعتبر المندوب البابوي بلاجيوس أن المسلمين لا يجب أن تتم مفاوضهم قبل هزيمتهم لإملاء شروط الهدنة التي يجب أن تتضمن دفع مبلغ مالي كبير. أما تجار المدن الايطالية فقد مالوا هم أيضا إلى الرفض لأن القبول يعني الجلاء عن دمياط وضياع هذا الميناء التجاري الهام من أيديهم. أما ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية حنا برين فقد مال إلى القبول لإدراكه أن هذه فرصة لإعادة إحياء المملكة التي لم يكن قد تبقى منها سوى عكا مرة أخرى، وهو نفس موقف الأسقف فرنسيس مؤسس جماعة الرهبان الفرنسسكان. عن ذلك أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 257؛ عاشور، فايد حماد محمد، الجهاد الإسلامي، ص 312.

[29]– أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 257 – 258.

[30]– أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 96 – 97.

[31]– أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 277 – 282.

[32]– أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 281؛ رينسمان، الحروب الصليبية، ج 3، 315.

[33]– أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 280.

[34]– أنظر : ابن الوردي، ج 2، ص 150. قال عنه : " وكان فرنجيا فاضلا محبا للحكمة والمنطق مائلا إلى المسلمين لان منشأه بجزيرة صقلية وغالبها مسلمون...". وقال عنه العيني : " "وكان الأمبرور ملكا متميزا عالما، يحب الحكمة والمنطق والطب، ولما وصل نسب الكامل به ولم يمكنه دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق، ولأنه كان يؤدي ذلك إلى فوات أغراضه التي كان في ذلك الوقت بصددها فراسله ولاطفه". العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي)، الجزء الرابع، تحقيق ودراسة محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، 1431 هـ – 2010م، الجزء الرابع، ص 196.

[35]– الدوادارى الدرر، ج 7، ص 293 – 294، يقول في هذا الخصوص : "وقالوا عنه أيضا: ولما آتى وقت الظهر، أذن المؤذنون، فقام هو ومن كان معه من جماعته فصلوا. وكان معلمه الذي آتى معه من صقلية، يقرأ عليه المنطق، وقيل أنه كان مسلما في الباطن".

[36]– العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 208.

[37]– أنظر : عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوروبا العصور الوسطى : التاريخ السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، 1985، ص 384.

[38]– أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 102.

[39]– أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك؛ عاشور، أوروبا، ص 383 – 386.

[40]– أنظر : عاشور، أوروبا، ص 384 – 386؛ عمران، الحروب الصليبية، ص 288.

[41]– المقريزي، السلوك، ج 1، ص 343.

[42]– عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 99.

[43]– المقريزي، السلوك، ج 1، ص 335؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 99.

[44]– أبي شامة، الروضتين، ج 5، ص 138 – 143.

[45]– ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 205؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 101.

[46]– ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 179 – 180؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 100 – 101.

[47]– ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 206.

[48]– ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 175.

[49]– أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 345 (حوادث سنة 624 هـ).

[50]– أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 345؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 101– 102.

[51]– ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 206.

[52]– ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 206.

[53]– ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 209. أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 339، 333 – 334، 345، 346.

[54]– الدوادارى، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك. كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391 هـ، 1972م، ص 292 – 293.

[55]– العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 153؛ الدوادارى، كنز الدرر، ج 7، ص 284.

[56]– ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 243 – 244.

[57]– العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 152.

[58]– عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 102.

[59]– العيني ، عقد الجمان، ج 4، 153 ؛ وأنظر : الداودي، أبو بكر عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391 هـ، 1972م، ج 7، ص 209؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 102.

[60]– أنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 224.

[61]– أنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 224 – 227، أبي شامة، الروضتين، ج 5، ص 225 – 227، المقريزي، السلوك، ج 1، ص 346، 349.

[62]– ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 479 (حوادث سنة 625 هـ)، المقريزي، السلوك، ج 1، 349 – 350.

[63]– ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 479 (حوادث سنة 625 هـ)؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 197' وأنظر : ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 228.

[64]– ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 479 (حوادث سنة 625 هـ)؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 197' وأنظر : ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 228.

[65]– العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 197؛ ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 234.

[66]– المقريزي، السلوك، ج 1، ص 351.

[67]– أنظر : العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 196؛ المقريزي، السلوك، ص 351؛ وأنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 242.

[68]– أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 106.

[69]– رينسمان، الحروب الصليبية، ج 3، 317 – 318؛ عمران، الحروب الصليبية، ص 288 – 299.

[70]– رينسمان، الحروب الصليبية، ج 3، 326 – 327.

[71]– أنظر : المعاضيدي، خاشع. عبد محمد، سوادي. نوري، عبد القادر. تاريخ الوطن العربي والحروب الصليبية (ب،ن)، (ب،ت)، الطبعة الثانية، 1986، ص 207.

[72]– عمل الإمبراطور قبل إلى بلاد الشام على مراسلة عدد من أمراء البيت الأيوبي لضمان موافقتهم على اتفاقه مع الكامل. عن ذلك أنظر : الأيوبيين والمماليك، ص 104 – 105.

[73]– أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 103، 107.

[74]– أنظر : رينسمان، الحروب الصليبية، ج 3، 324 – 326؛ عمران، الحروب الصليبية، ص 291.

[75]– أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 105.

[76]– أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 291 – 292؛ عاشور، أوروبا، ص386.

[77]– المقريزي، السلوك، ج 1، ص 351.

[78]– أنظر : العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 205.

[79]– الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت (ب،ت)، الجزء الثالث، ص، 195.

[80]– ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 243؛ المقريزي، السلوك، ج 4، ص 354.

[81]– العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 196؛ ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 478 (حوادث سنة 625 هـ)؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 235.

[82]– ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 241.

[83]– ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 241.

[84]– أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 107.

[85]– المقريزي، السلوك، ج 1، ص 354، وأنظر ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 234.

[86]– أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 353.

[87]– المقريزي، السلوك، ج 1، ص 354؛ العيني ، عقد الجمان، ج 4، ص 205.

[88]– وصف المقريزي الزيارة بالقول "....وبعث الإمبراطور بعد ذلك يطلب تبنين وأعمالها، فسلمها الكامل له، فبعث يستأذن في دخول القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلبه، وسير القاضي شمس الدين قاضي نابلس في خدمته، فسار معه إلى المسجد بالقدس، وطاف معه ما فيه من المزارات، وأعجب الإمبراطور بالمسجد الأقصى وبقبة الصخرة، وصعد درج المنبر، فرأى قسيسا بيده الإنجيل، وقد قصد دخول المسجد الأقصى، فزجره وأنكر مجيئه، وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ليأخذن ما في عيناه، "فإنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس، على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره، فانصرف القس وهو يرتعد خوفا منه". ثم نزل الملك في دار، وأمر شمس الدين قاضي نابلس المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة، فلم يؤذنوا ألبتة، لما أصبح قال الملك للقاضي : " لم لم يؤذن المؤذنون على المنابر؟" فقال له القاضي : " منعهم الملوك إعظاما للملك واحتراما له". فقال له الإمبراطور : أخطأت فيما فعلت، والله إنه كان أكبر غرضى في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل". المقريزي، السلوك، ج 1، ص 353 – 354؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، 244 – 255؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 293 – 294.

[89]– العيني ، عقد الجمان، ج 4، ص 205.

[90]– العيني ، عقد الجمان، ج 4، ص 207؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 353.

[91]– المقريزي، السلوك، ج 1، ص354.

[92]- ابن الأثير، الكامل، ص 1940 (حوادث سنة 626هـ). (طبعة دار الأفكار الدولية، الأردن، السعودية، عناية أبو صهيب الكرمي (ب،ت).

[93]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 243.

[94]- الذهبي، العبر، ج 3، 197.

[95]- العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 206.

[96]- العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 206؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 295.

[97]- العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 205.

[98]- العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 206؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 355 – 356؛ الدواداری، كنز الدرر، ج 7، ص 295؛ وأنظر : ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج 2، ص 150 – 151 (حوادث سنة 625، 626 هـ)؛ وأنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 245 – 246.

[99]- العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 207.

[100]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 243 – 244.

[101]- المقريزي، السلوك، ج 1، ص 354.

[102]- أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص ؛ كان الناصر داود بداية متحالف مع الصالح أيوب الذي وعده إعطائه دمشق، ولكنه تحول عنه إلى محالفة الصالح إسماعيل والملك المنصور بعد ذلك. أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 403 – 406؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 118 – 119.

[103]- أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 407؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 354؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 120 – 121.

[104]- أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، 399 – 400؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 118 – 119؛ عاشور، فايد حماد محمد، الجهاد الإسلامي عاشور، ص 346.

[105]- أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 120 – 121.

[106]- أنظر المقريزي، السلوك، ج 1، ص 419.

[107]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 332؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 344 – 345؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 417 – 418.

[108]- أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 123.

[109]- أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 122.

[110]- أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 122 – 123.

[111]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 333؛ بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 285.

[112]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 333؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 374.

[113]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 363 –337؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 353؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 419.

[114]- المقريزي، السلوك، ج 1، ص 419 – 420.

[115]- أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 122.

المصادر والمراجع :

أولا المصادر :

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزرى الشيباني، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2022م/1424هـ..
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413 هـ، 1992م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج 7، بيروت : دار الثقافة، 1989.
- الدوادارى، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك. كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391 هـ، 1972م.
- أبي شامة، الروضتين، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هـ، 2002م.
- ابن شداد، القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع : سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، تحقيق أحمد أبيش، دمشق : الأوائل للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2000م.
- الداودي، أبو بكر عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391 هـ، 1972م. الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت (ب،ت).
- العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي)، الجزء الرابع، تحقيق ودراسة محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، 1431 هـ – 2010م.
- أبي الفدا، عماد الدين إسماعيل،المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية (ب،ت).
- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، هجر للطباعة، 1419 هـ، 1998م.
- المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ، 1987م.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 2، القاهرة : مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، وزارة التربية والتعليم، إدارة الثقافة العامة، المطبعة الأميرية.
- ابن الوردي، زين الدين عمر. تاريخ ابن الوردي (ب،ن)، (ب،ت).

ثانيا المراجع :

- رينسمان، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الثالث، القسم الأول، مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة، نقله إلى العربية الباز العريني، بيروت : دار الثقافة، 1997م/ 1417هـ.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح. الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوروبا العصور الوسطى : التاريخ السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، 1985.

- عاشور، فايد حماد محمد. الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام، القاهرة (ب،ت).
- عمران، محمد سعيد. تاريخ الحروب الصليبية 1095 – 1291، دار المعرفة الجامعية، القاهرة (ب،ت).
- المعاضيدي، خاشع. عبد محمد، سوادي. نوري، عبد القادر. تاريخ الوطن العربي والحروب الصليبية (ب،ن)، (ب،ت)، الطبعة الثانية، 1986.

مقالات علمية :

- شاهين، رياض مصطفى : هدنة الرملة والظروف المحيطة بها، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد التاسع، العدد الأول، 2001.
- الطل، عثمان. رؤية تاريخية لقضية القدس في المفاوضات بين صلاح الدين الأيوبي والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد : 583 – 588 هـ / 1187 – 1191م، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، العدد 126، السنة 32، ربيع2014.

مراجع أجنبية :

Ambroise, **The crusade of Richard Heart Lion**, Translated by Hubert, New York, 1943, p429 – 430, Lane pool, Stanley, **A History of Egypt in the middle Ages**, London, 1963.

التواجد الأوربي والبعثات الكشفية في موريتانيا

د. آدب ولد سيدا محمد، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة نواكشوط، موريتانيا

أ – التواجد الأوربي:

كان البرتغاليون أول من استولى على بعض الجهات من موريتانيا خلال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي)، و قد أغرتهم تجارة الصمغ و الذهب و الرقيق، و ليس الذهب من دراسة الوجود الأجنبي (الأوروبي) على السواحل الموريتانية و تتبع ديناميكية مختلف مراحله، الخوض في طبيعة المسار الذي اتخذته عملية التواجد هذه و لا الخصوصيات التي ميّزتها و لا العراقيل التي واجهت رواد المستكشفين بقدر ما نسعى خلالها إلى الاطلاع على أهم مختلف مراحل هذا التواجد، و بالتالي نتبع مختلف مراحل احتكاك سكان هذه البلاد بمختلف القوى الأوروبية و ما نتج عن هذه البعثات الكشفية من توفير المعلومات الكافية عن البلاد و العباد و بالتالي تهيئة الأرضية الملائمة لتنفيذ المشروع الاستعماري الهادف إلى فرض السيطرة الاستعمارية على الأراضي الموريتانية و ربط المستعمرات الشمالية (تونس و المغرب و الجزائر) والمستعمرات السودانية الجنوبية (أي مستعمرات غرب إفريقيا الفرنسية A.O.F) و هو المشروع المعروف بمشروع كبولاني.

إنّ المتبّع لديناميكية التواجد الأوروبي يرى أن البرتغاليون كانوا هم السبّاقون في التمركز على السواحل الموريتانية و ذلك يعود في نهاية النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث استطاعوا سنة 1434م تجاوز الرأس الأبيض واكتشاف حوض آركين[1] و قد شهد خلال اكتشافه من طرف البرتغاليين ازدهار كبيرا حيث كانت الحركة التجارية به نشطة طيلة السنة[2].

و قد بسط البرتغاليون كذلك نفوذهم على مصب نهر السنغال و الرأس الأخضر محاولين استدراج تجارة الذهب و العبيد إلى التوجه إلى مراكز التبادل الشيء أقامها التجار البرتغاليون بالسواحل الأطلسية و في

منطقة حوض النهر و قد فوجئ البرتغاليون بإقبال السكان الزنوج على البضائع التجارية المستوردة من المغرب و تفضيلهم لها على البضائع البرتغالية فلجأوا إلى شراء البضائع المغربية تلك، و نقلها إلى مراكزهم الساحلية لكي يبيعوها للسودانيين في محاولة لتعويد هؤلاء السكان على التبادل بالمحطات البرتغالية ، و بانحسار الدور البرتغالي والتي ضمتها اسبانيا سنة 1580م،[3] سعت دول أوروبية أخرى إلى احتلال مكانة البرتغاليين بسواحل إفريقيا الغربية و الاستئثار بممتلكاتها هنالك، حيث انتزع الاسبانيين جزيرة آركين 1587م من البرتغاليين. وابتداء من العقد الأخير من القرن الأخير من القرن السادس عشر أخذ الوجود الفرنسي يحس في المنطقة إذا هاجم الفرنسيون هذه الجزيرة للمرة الأولى سنة 1595م، و خلال النصف الأول من القرن السابع عشر خاض الفرنسيون و الهولنديون صراعا مريرا من أجل السيطرة على تلك الجزيرة التي احتلها الهولنديون بين سنتي 1933م و 1678م.

هذا بالإضافة إلى الآثار التي تشير كذلك إلى وصول الهولنديون إلى منطقة آزوكي[4] التي تبعد عشر كيلومترات شمال مدينة أطار و كذلك في منطقة تيرس حيث تشير المصادر المحلية إلى أن بئر أرسل الموجودة في منطقة تيرس يعود في تأسيسه إلى الهولنديين، و في سنة 1665م استطاع الانجليز أن ينتزعوا مركز آركين من الهولنديين الذي سبق لهم أن قاموا به نشاطا تجاريا واسعا مع بيضان المنطقة و ذلك قبل أن يسترجعه الهولنديون من جديد و يعملوا جاهدين على احتكار تجارة العلك عن طريق شرائه بأسعار مرتفعة ليستجلبوا بذلك بائعي هذه المادة من الأهالي و ليقضوا على المراكز الجنوبية الفرنسية المنافسة، و هو ما دفع بالسلطات الفرنسية في السنغال إلى مهاجمة آركين و طرد الهولنديون منه.

و على الرغم من نجاح الحملة الفرنسية التي قادها ديكاس (Ducasse) و تمكنه بقيادة 540 ملاح سنة 1678م من الاستيلاء على مركز آركين إلا أنه ارتكب خطأ جسيما باكتفائه بطر الهولنديين من المركز ونزع السلاح الموجود به و مغادرته دون ترك حامية لحراسته، و هو ما دفع بالهولنديين سنة 1685م إلى إعادة السيطرة عليه و عودة النشاط التجاري مع سكان المنطقة و لتعيد القوات الفرنسية الكرة ثانية

وتسيطر من جديد على مركز آركين و ذلك سنة 1721م، لكن هذه الفترة عرفت تطوّرا ملحوظا فيما يخص علاقة الهولنديين بأمراء إمارة الترارزة[5] حيث قام الأمير إعلي الشنظورة بالسماح للهولنديين بمزاولة نشاطهم التجاري في ميناء هدي الذي يعرف ببورتانديك (Portendik) و ذلك قبل أن يتمكن الفرنسيون سنة 1723م من توقيع اتفاقية مع هذا الأمير تخولهم احتكار المبادلات التجارية في مختلف المراكز التجارية التابعة لمنطقة الترارزة و ذلك مقابل بعض الأتاوات التي تدفع للأمير.

و قد نصت هذه الاتفاقية على تحديد نوعية المقايضة و كذلك نظام المراسي و الوكالات التجارية حيث تم تحديد مراكز التبادل التجاري بثلاث:

- مركز دوناي (Donaye) الصحراوي.
- مركز الديك (Coq) بالقرب من مدينة ريشاتول (Richotolle) السنغالية.
- مركز الحجر الأحمر القريب من دكانة.

و يتعهد الأمير بحماية هذه المراكز و القوافل التجارية المتجهة إليها مقابل حصوله على ثمن المواد التي تباع فيها. إلاّ أنّ حرب السنوات السبع (1772-1779م) والتي قد كانت مسارحها في أوربا والهند كانت حربا عامة[6]، قد دفعت بالانجليز إلى السيطرة على مستعمرة السنغال وانتزاعها من الفرنسيين و بالتالي الاستيلاء على المراكز التجارية الفرنسية في المنطقة هذه السيطرة التي ستكون لها انعكاساتها لا محالة، حيث عمل الانجليز خلال فترة تواجدهم في المنطقة (1763-1783م) وإن كانت الحرب قد انتهت سنة 1779م على القضاء على جل المراكز التجارية و خاصة مركزي آركين وبورتانديك الأساسيين و ذلك من خلال إرغامهم البيضان على التوجه إلى المركز الصحراوي (دوناي) الذي أصبح المرسى الوحيد المبادلات التجارية مع سكان المنطقة، كما عمل هؤلاء الانجليز على احتكار التبادل مع هؤلاء السكان و ذلك من خلال طردهم لأي سفينة تحاول الاقتراب من المراكز التجارية التي اعتاد البيضان مبادلة

منتوجاتهم بها و بعد توقيع معاهدة فرساي في 3 سبتمبر 1783م، و التي نصت على سيادة فرنسا على الشواطئ الأطلسية الممتدة من الرأس الأبيض إلى غاية مصب سالوم.

لكن الأوضاع العامة في المستعمرة الأم و المتمثلة أساسا في الحروب البحرية و المنافسة الخارجية سيكون لها تأثيرها على التجارة بشكل عام في فرنسا و خاصة في مستعمرتها السنغال، و هو ما سيدفع بالانجليز من السيطرة خلال الحروب النابولونية وذلك سنة 1808م[7]. هذه السيطرة التي ستستمر إلى غاية 1817م، و ذلك بعد توقيع اتفاقية باريس في 30 مايو 1814م و التي نصت[8] على إعادة الممتلكات الفرنسية إليها.

و قد كان هذا الصراع بين مختلف القوى الأوروبية يهدف إلى التحكم واحتكار تجارة العلك التي أصبحت بداية من القرن 18م، المادة الأولى و الأساسية في التجارة التي تربط سكان المنطقة بمختلف هذه القوى الأوروبية، حيث وصلت كمية المبادلات في المراكز التجارية النهرية حسب ما أورده جيليه ما بين 3 آلاف و 4 آلاف طن سنويا من العلك.

ب – البعثات الكشفية لموريتانيا :

يعتبر القرن الخامس عشر ميلادي بداية لوصول أولى البعثات الاستكشافية و قد مرّ بنا أن البرتغاليون هم أول من وصل إلى السواحل الموريتانية و ذلك حين اكتشفوا حوض أركين 1434م و أقاموا به مركز تجاريا كما كانوا أول الأوروبيين الذين توغلوا داخل الأراضي الموريتانية حيث استطاعوا الوصول إلى منطقة وادان[9] (بآدرار) سنة 1445م.

و طيلة هذه الفترة وابتداء من 1445م لم تعرف المنطقة أي رحلات أخرى إلاّ إبتداءا من 1630م حينما وصل الملاح الفرنسي (بول إمبيير) إلى الشواطئ الموريتانية نتيجة لغرق سفينته على هذه الشواطئ و قد وقع هذا الملاّح في قبضة السكان بمجرد أن وطأت قدماه الأرض، حيث قادوه إلى مدينة تيمبكتو و فيها

بيع كعبد تم استجلابه إلى المغرب حيث لقي حتفه هناك، و بذلك يكون أول أوربي يصل إلى حدود النيجر.

و مع نهاية القرن 18م بدأ الاهتمام الأوروبي يتزايد بالقارة الإفريقية، حيث تم تأسيس مؤسسات خاصة بها كما هو الحال في لندن، حيث تم تأسيس "الجمعية الإفريقية" التي تهدف إلى دراسة القارة الإفريقية و جمع المعلومات العلمية و الاقتصادية عنها.

و كان من أوائل الذين كلفوه من طرف هذه الجمعية بالقيام برحلة داخل القارة هو النقيب هونكتون (Houghton) الذي سبق له أن شغل منصب القنصل الانكليزي في المغرب، و قد قام هذا النقيب بوضع خطة تهدف إلى الانطلاق من غامبيا متجها إلى مدينة تيمبكتوا مرورا ببلاد البيضان (موريتانيا) و من ثم التوجه إلى أوربا عن طريق الصحراء و ذلك بمرافقة إحدى القوافل التجارية الصحراوية التي تنطلق من هذه المدينة متجهة شمالا، و قد بدأ هونكتون رحلته هذه سنة 1790م، حيث تمكن رفقة حاشية من السود عبور السنغال لكن بعد وصوله بلاد البيضان قام هؤلاء السود بالتخلي عنه ربما هجروه خوفا من البيضان، مما اضطر هونكتون إلى الالتحاق بقافلة من البيضان متجهة إلى مدينة تيشيت[10]. لكنه تخلف عن هذه القافلة بعد يومين من السير ليلقي حتفه عند بئر جاره، و بعده بخمس سنوات و بالتحديد في 22 مايو 1795م قام مينكو بارك (Munga park) و لحساب نفس الجمعية بالتوجه من جديد من منطقة غامبيا عابرا السنغال ليصل إلى المناطق الموريتانية متوجها إلى مدينة تيمبكتوا، لكنه وقع في الأسر مدة ثلاثة أشهر قبل أن يتمكن من الفرار و من مصادفات الأقدار أنه تمكن من الفرار عند نفس البئر التي لقي عندها النقيب هونكتون حتفه، و قد استطاع مينكو بعد أن التحق بقافلة محملة بالملح أن يصل منطقة النيجر سنة 1796م و ليكون بذلك ثاني أوروبي يصل هذه المنطقة.

و في سنة 1817م استطاع المدعو ريمر (Rymmer) أن يتوغل داخل الصحراء الموريتانية لإجراء بعض الدراسات المتعلقة بحشرات المنطقة لكنه وقع بدوره في الأسر و قضى فترة زمنية مع البيضان

الذين انتهى بهم الأمر أن أوصلوه إلى مدينة سين لوي السنغالية، و قد كتب ريمر عن عادات و تقاليد هؤلاء البيضان.

و بعد ذلك بسنوات و بالتحديد سنة 1825م قام البحار والمعروف عند العامة بولد كيجه (René Caille) وكان قد استطاع أن يصل إلى تيمبكتو في زي تاجر مسلم ما بين 1824–1826م[11] الذي كان يسعى إلى عبور القارة الإفريقية من خلال تقمصه لشخصية مسلم، و بعد حصوله على موافقة والي السنغال بالتوجه إلى موريتانيا، قام هذا الملاّح بالتوجه إلى منطقة لبراكنة حيث قضى هناك زهاء السنة حاول خلالها جمع ما أمكنه من معلومات عن عادات و تقاليد البيضان و دراسة اللغة العربية و الشعائر الدينية، و في سنة 1830م و في محاولة من الانجليز لدراسة الإمكانيات الاقتصادية التي توفرها هذه المنطقة قام الرائد دافيد سون (Davidson) بزيارة منطقة وادنون و توجه إلى أكليمين و قام بالاتصال بأحد رؤساء أفخاذ قبيلة تكنه يدعى بيروك ولد محمد، و حاول معه دراسة إمكانية إنشاء ميناء تجاري من أجل تسهيل العلاقات الجارية بين هذه القبيلة و الانجليز، و بالفعل تم تحديد مكان هذا الميناء بالقرب من مصب وادنون، لكن مقتل دافيد سون و هو في طريقه إلى مدينة تمبكتوا حال دون تنفيذ هذا المشروع[12].

و في سنة 1850م تم توكيل ليوبولد بانيه (Leopold Panet) من طرف والي السنغال بالقيام برحلة تنطلق من

السنغال و بالتحديد من مدينة سينلوي إلى الجزائر مرورا بالصحراء، و قد انطلق بانيه في رحلته هذه حيث استطاع أن يلتحق بقافلة من البيضان متوجهة إلى منطقة آدرار عن طريق الساحل و واصل رحلته مع هذه القافلة حتى وصلت إلى بئر مرمارسه لتتصرف بعد ذلك باتجاه الشمال الشرقي و ليصل بانيه بعد مسيرة 22 يوم من انطلاقه من سينلوي إلى مدينة شنقيط. و بعد قضاء شهر في هذه المدينة، توجه بانيه رفقة مجموعة من قبيلة أولاد بسبع باتجاه الشمال الشرقي في حين مرت القافلة شرق سبخة الجل لتعبر بعد ذلك مناطق الزمور التي تشتهر بمراعيها الخصبة و الوافرة ، ثم عبرت هذه القافلة مناطق اركيبات في

الشمال حيث وصل بانيه إلى الساقية الحمراء و منها إلى وادي درعه ليصل أخيرا إلى ماكادور (اصويره) التي أبحر منها إلى فرنسا بعد قضاء أربعة أشهر و نصف قطع فيها المسافة ما بين سين لوي و ماكادور.

و بداية من سنة 1859م و نتيجة للاستقرار الذي بدأت تشهده المناطق المجاورة للسنغال قام فيدرب (Faidherbe) والي مستعمرة السنغال سعيا منه لاستكمال المعلومات الناقصة عن موريتانيا خصوصا فيما يتعلق بالمعلومات الجغرافية والعرقية و المصادر التجارية و تنفيذ الطموحات السياسية اتجاه الزعامات السياسية البيضانية قام بتنظيم أكبر عملية استكشافية تنطلق من مستعمرة السنغال متوجهة إلى مناطق آدرار و المغرب، فقام ببعث النقيب فنسان (Vincent) التي انطلقت من سان لويس 15 مارس 1860م وقد وصل إلى آدرار، وعاد إلى سان لويس[13]، ويسترشد غورو في دخوله آدرار بمذكرات فنسان[14] واستطاع هذا النقيب بعد إقامة

في مخيم أمير الترارزة محمد الحبيب دامت 10 أيام الحصول على أدلاء أمده بهم الأمير ليوصلوه إلى قبيلة العلب التي تعتبر أبعد قبيلة من قبائل منطقة من قبائل منطقة الترارزة في الجهة الشمالية و قد أمدته القبيلة بدورها بأدلاء لمتابعة رحلته التي قادته على طول الساحل حيث مرّ بكل من: تيوروت وبورتانديك وآركين ليلتقي بقبيلة أولاد ادليم الذين أبدوا له اهتمامهم بإقامة السلطات الفرنسية لمركز تجاري في حوض، ثم توجه من أركين إلى الشمال الشرقي مرورا بتازيازت.

و تيرس ليصل إلى زوق الذي يعتبر أبعد نقطة وصلها باتجاه الشمال.

من زوق توجه فنسان شرقا ليدخل منطقة آدرار حيث اتصل بمخيم الأمير ولد عيدة، و قام بمرافقة هذا الأمير لمدة في ترحاله حيث مر رفقة حامية شمال مدينة شنقيط، و قد استطاع فنسان خلال إقامته في مخيم الأمير إقناع ولد عيدة بضرورة إقامة علاقات تجارية مع الفرنسيين في السنغال و السماح لهم بإعمار مركز أركين.

و بعد رحلة فنسان تم تكليف أبو ولد المقداد المدعو عليون صال (Alioune Salle) الذي سبق له أن رافق النقيب فنسان في رحلته كمترجم بالقيام مع نهاية 1860م برحلة ينطلق فيها من الجنوب الموريتاني ليصل إلى المغرب، و بالفعل غادر ولد المقداد مدينة سين–لوي السنغالية في 10 ديسمبر 1860م ملتحقا بقافلة من قبيلة إديقب متجهة إلى منطقة آدرار و أثناء مسيرتها الساحلية و عند وصول القافلة إلى بورتانديك علم ولد المقداد باغتيال أمير الترارزة محمد لحبيب و أن ابنه سيد قد استطاع خلال يوم واحد إعدام كل المشاركين في عملية اغتيال والده، و قد استطاع ولد المقداد أن يحصل من هذا الأمير الجديد على رسائل يطلب فيها من أمير آدرار تأمين عملية رحلة ولد المقداد التي استطاع أن يعطيها طابعا دينيا حيث أنّ هذا الأخير أعلن منذ انطلاقه من السنغال توجهه إلى البلاد المقدسة قصد الحج.

لكن سنة 1860م كانت سنة شؤم على أمراء البيضان على حد تعبير جيليه[15] حيث شهدت كذلك إلى جانب اغتيال محمد لحبيب أمير الترارزة، موت ولد عيدة أمير آدرار و كذلك اغتيال ابنه محمد، على يد إخوته، سعيا منهم إلى التفرد بالسلطة و هو ما أدى إلى انقسام القبائل المحاربة في المنطقة و دخولها في صراعات داخلية، و قد أحالت هذه الأوضاع الأمنية دون دخول ولد المقداد منطقة آدرار، لكنه استطاع الوصول إلى زوق في 09 يناير 1861م ليصل بعد ذلك إلى أكليمين عاصمة وادنون، ليتوجه منها إلى تيزينيت ثم أكاد ير و أخيرا ماكادور (اصويرة) بعد ثلاثة أشهر من مغادرته مدينة سان لوي.

و تجب الإشارة إلى أن سنة 1860م قد شهدت كذلك ثلاث رحلات أخرى ركزت كل منها على منطقة أو جزء من هذه البلاد:

- رحلة بورل (Bourrel) إلى منطقة لبراكنة.
- رحلة عليون صال إلى منطقة لبراكنة و تكانت.
- رحلة ماج[16] (Moge) إلى تكانت.

فعلى الرغم من قضاء رينيه كاييه سنة كاملة في منطقة لبراكنة، إلا أنّ المعلومات التي أمد بها الإدارة الفرنسية لم تكن دقيقة في بعض الحالات و ناقصة في حالات أخرى و لعل مرجعية ذلك تعود إلى أن هذا النقيب لم يكن متكونا دراسيا في مجال العلوم و الجغرافيا، هذا بالإضافة إلى جهله للحسانية[17]، اللهجة المحلية و هذه كلها عوامل جعلت من المعلومات التي قدمها معلومات ناقصة و هو ما دفع بفيدرب إلى إيفاد بورل إلى المنطقة بعد مضي 36 سنة على رحلة (كاييه) لاستكمال المعلومات الناقصة، حيث حاول فيدرب الاستفادة من الوضع السياسي للمنطقة، ذلك أن الإدارة الفرنسية قد أمدت الأمير سيد أعلي بالمساعدة في القضاء على خصمه و منافسه في الحكم، و هو ما دفع بهذا الأمير إلى استقبال بورل استقبالا حارا و مكنته الظروف و التسهيلات التي وفرها له الأمير من القيام بمهمته على أفضل ما يرام، فقام بدراسة بحيرة ألاك وكذلك المناطق الشمالية و تعرف على مختلف الوديان الموجودة في المنطقة، و ليعود بعد ذلك إلى نقطة انطلاقه (بودور) في 13 أكتوبر 1860م.

و بعد مغادرة بورل منطقة لبراكنة ترك وراءه (عليون صال) الذي رافقه طيلة رحلته حيث كلف صال بتعميق الدراسة عن كل ما يتعلق بالخلافات و الصراعات الداخلية في إمارة لبراكنة و ذلك قبل التوجه إلى مدينة تمبكتوا و منها إلى الجزائر.

كما شهدت هذه السنة رحلة الملازم البحري ماج و هي الرحلة التي لا يمكن اعتبارها أقل أهمية من غيرها، حيث استهدفت دراسة منطقة تكانت التي لم تحظ برحلات كشفية متميزة[18] قبل هذا التاريخ، و قد انطلق ماج في 09 ديسمبر 1860م من مدينة باكل السنغالية ليصل إلى مخيم بكار ولد أسويد أحمد في تكانت يوم 23 ديسمبر من نفس السنة بعد أن تعرض في طريقة إلى نهب قافلته و كل ما حوت من هدايا كان ينوي منحها للأمير.

و بعد قضاء 44 يوما من مغادرته لباكل عاد ماج إلى ماتام بالسنغال بعد أن استطاع أن يجمع الكثير من المعلومات عن طريق المناطق التي عبرها، و تجب الإشارة قبل الانتهاء من فترة فيدرب إلى أن هذا

الوالي رغم اهتمامه الكبير بدراسة الوضع و الظروف الداخلية للبلاد الموريتانية و تكليفه لخمس مستكشفين (فينسان وولد المقداد و بورول و عليون صال و ماج) بدراسة المناطق الداخلية الموريتانية، لم يمهل دراسة الشواطئ الموريتانية حيث كلف كل من النقيب فيلكرا (Fulcrana) و الملازم البحري أوب (Aube) بدراسة إمكانية إعادة استغلال جزيرة آركين و خليج ليفر بيه.

و ستعرف هذه الرحلات الكشفية الركود لمدة عشرين سنة و ذلك قبل أن يستأنفها بول صولي (Paul Soleillet) سنة 1889م حيث كلفته وزارة الأشغال العمومية الفرنسية بمهمة كشفية تقوده من السنغال إلى الجزائر و ذلك من أجل دراسة إمكانية إقامة سكة حديدية تربط هاتين المستعمرتين مرورا بالصحراء، لكن هذه الرحلة لم يكتب لها النجاح على الرغم من إصرار بول صولي بإنجازها، فقد وقع في البداية في الأسر و لم يفرج عنه إلاّ بعد تدخل الشيخ سعد بوه رغم جمعه لبعض المعلومات الهامة عن المناطق التي مرّ بها و عن سكانها.

و بعد ثمان سنوات من رحلة دول صولي و بالتحديد سنة 1887م قام كاميل دول (Camille Doules) بزيارته الأولى للبلاد الموريتانية[19]، و قد بدأ رحلته من شواطئ وادي الذهب حيث أقام فترة زمنية عند قبيلة أولاد ادليم مكنته من التعرف على مناطق عديدة من الصحراء مثل الساقية الحمراء ووادنون و كذلك تمكن من جمع بعض الملاحظات حول عادات و طباع سكان هذه المناطق و بعد ثلاث سنوات من الرحلة تم تكليف الفرنسي فابير (Faber) صحبة ابن المقداد السنغالي بعرض اتفاقية على أمير آدرار سيد أحمد ولد أحمد ولد عيدة (1891م 1899م)[20]، إلا أنّ الظروف السياسية التي كانت تمر بها منطقة آدرار لم تسمح بتوقيع هذه الاتفاقية على الرغم من اقتناع الأمير بالمقترحات الفرنسية و قبوله التعامل معهم إلاّ أنّه لم يوقع على هذه الاتفاقية إلاّ في السنة الموالية أي سنة 1892م و التي تعهد بمقتضاها بعدم تعاطي التبادل التجاري مع أي قوى غربية أخرى و حماية القوافل القادمة من السنغال مقابل تعهد

فرنسا بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لآدرار و دفع أتاوات سنوية تقدر بـ: 500 بيصة من النيلة (القماش الأزرق)[21].

و أخيرا هناك البعثة العلمية التي قادها بول إبلا نشيه (Paul Blanchet) و التي كانت تهدف إلى دراسة سبخة الجل و الأماكن المجاورة لها حيث أفادت البقايا الأثرية بها إلى وجود مادة النترات، و قد انطلقت بالفعل هذه البعثة من مدينة سين لوي في شهر مارس 1900م، لكن الاضطرابات التي شهدتها البلاد خلال هذه الفترة و ما نتج عنها من انتشار لعمليات النهب و السلب حالت دون نجاحها[22].

و على الرغم من الأخطاء الكثيرة التي تضمنتها تقارير هؤلاء الرحالة سواء كانت عمدا أو نتيجة حتمية لجهل معظمهم للهجة المحلية و ما يترتب على تفسيراتهم الخاطئة لبعض العادات و التقاليد، فإن هؤلاء الرحالة قد أمدوا السلطات الفرنسية بحصيلة مهمة ليس فقط على مستوى مظاهر حياة البلاد و إنما كذلك أوضاعها السياسية و المناخية و الطبيعية و كذلك الاقتصادية.

الخاتمة: لقد نجم عن الوجود الأجنبي استعمار الأراضي الموريتانية، والسيطرة على مقدرات وخيرات البلاد والعباد، وكان ذلك من أسباب البعثات الكشفية التي مكنتهم من الحصول على معلومات مهمة عن حياة السكان الاقتصادية والاجتماعية، هذا بالإضافة على اطلاعهم على العادات والتقاليد المعيشية للسكان فضلا عن المعلومات الاستيراتيجية المتعلقة بالقدرات القتالية ونفسية هؤلاء السكان وأماكن تواجدهم وطرق عيشهم، وهي معلومات لا محالة كان لها تأثيرها في رسم وتحديد السياسة التي ينبغي للسلطات الفرنسية انتهاجها من أجل بسط سيطرتها على هذه البلاد و بالتالي ربط مستعمراتها الشمالية (تونس و الجزائر و المغرب) بمستعمراتها الجنوبية.

الهوامش:

[1] – جزيرة تقع بالساحل الأطلسي الموريتاني على بعد حوالي مائة و ثلاثين كيلومترا إلى الجنوب من انواذيبو، و يبلغ طول هذه الجزيرة حوالي 07 كلم و عرضها حوالي 04 كلم، و تسمى آركين كذلك أكادير و أكادير دومه، و قد تنافست أمم أوروبية عديدة خلال القرون الماضية للسيطرة على هذه الجزيرة التي تعتبر مركز للتبادل التجاري مع البيضان، للمزيد من

المعلومات عن جزيرة أركين يمكن مراجعة: محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر, منشورات معهد الدراسات الإفريقية ,الرباط .2001، ، ص58.

[2]- Gillier (C) : la pénétration en Mauritanie, librairie orientaliste, paul guéther, Paris, 1926, P17.

[3] – الجمل (شوقي...): تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مكتبة الآنجلو المصرية، 1971م، ص 185

[4] – آزوكي: مدينة تقع في موريتانيا حاليا و هي في الأصل عاصمة الجزء الجنوبي لدولة المرابطية أيام أمير المرابطين أبو بكر بن عمر.

[5] – الترارزة: تطلق تسمية الترارزة على فضاء جغرافي و بشري بسطت عليه ذرية تروز بن هداج، سلطتها الأميرية منذ القرن السابع عشر، و يمتد هذا الحيّز الجغرافي الذي يعرف بمنطقة الترارزة بالجنوب الغربي من بلاد موريتانيا، و يضم المجال العديد من المجموعات السكانية البيضانية و السودانية التي تخضع لنفوذ المجموعة التروزية المتكونة من الناحية الجينيالوجية على العموم من عدة قبائل هي: أولاد أحمد بن دامان، و أولاد دامان و أولاد البوعلية ولعلب و عزونه و الترارزة الآن ولاية موريتانية و عاصمتها روصو، راجع:

ولد السعد (محمد المختار...): موريتانيا في العهد الحساني، ضمن كتاب "تاريخ موريتانيا" (فصول و معالجات)، نواكشوط ، 1999م، ص115.

[6]– الصباغ (ليلى...)، تاريخ أوربا الحديث ،مطبعة خالد بن الوليد ، 1980. ص 351 وما بعدها.

[7] – قاسمية (خيرية...): تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، مطبعة خالد بن الوليد، 1982م .

[8] – ولد أشريف احمد(محمد...): الإدارة الاستعمارية في موريتانيا(1960–1902).أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه.جامعة تونس الأولى.كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.مرقون.2001 م، ص50.

[9] – وادان: إحدى المدن التاريخية الموريتانية تقع في منطقة آدرار و بالشمال الموريتاني، ترجع الروايات التاريخية التي تبناها معظم الباحثين، تأسيسها إلى القرن السادس الهجري/الثالث عشر ميلادي، نعم أنّ من بين الباحثين من يفترض أنها تأسست سنة 1141. و قد اضطلعت هذه المدينة بدور نشط في التجارة عبر الصحراء، و هي الآن عاصمة مقاطعة من مقاطعات ولاية آدرار.

راجع:(المصطفى ابن أحمدان...): مساهمة في كتابة تاريخ وادان منذ تأسيسها 1141م حتى نهاية القرن الثامن عشر ميلادي، مذكرة تخرج من المدرسة العليا للأساتذة و المفتشين، نواكشوط، 1985م، ص120.

[10] – تيشيت: مدينة تاريخية موريتانية، اضطلعت بدور هام في التجارة عبر الصحراء بصفتها نقطة ربط في الطريق الواصل بين منطقتي السودان الغربي و شمال إفريقيا في فترة القرون الوسطى، و هذه المدينة الآن مقاطعة إدارية تابعة لولاية تكانت الواقعة بوسط البلاد الموريتانية.

[11] – خليل (سعد...): تكوين موريتانيا الحديثة، جزءان، أطروحة لنيل درجة الماجستير، القاهرة 1977، ص 211

[12] - Gillier (c) : pénétration en Mauritanie, op.cit.P.34.

[13] – سينلوي: أول مركز أسسه الفرنسيون في السنغال في حدود 1638م، و هو يقع في شبه جزيرة بمصب نهر السنغال، و في نطاق الصراع الفرنسي البريطاني بالمنطقة تمكن الانجليز من انتزاع هذا المركز مرتين في منتصف القرن الثامن عشر و في نهايته قبل أن يستعيده الفرنسيون منهم آخر مرة في يناير سنة 1817م، و أثناء ولاية الجنرال فيدرب جعل مركز سينلوي عاصمة لمستعمرة السنغال قبل أن يتم تحويلها إلى داكار سنة 1903م، و قد بقي الفرنسيون يديرون الشؤون الموريتانية من سينلوي حتى استقلال موريتانيا سنة 1960م،

[14] – خليل (سعد...)، مرجع سابق ، ص 212

[15] - Gillier (C) : Pénétration en Mauritanie, op.cit.

[16]– ماج: (1869–1837)، ضابط بحرية فرنسي قضى عدة سنوات في الغرب الإفريقي متجولا في منطقة السنينغامبيا و زار البلاد الموريتانية في القرن 19م.

[17] – محمد الراظي (ولد صدفن...) : السياسة الاستعمارية في موريتانيا وأثرها على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية، نواكشوط.1995م، ص44.

[18] – ولد صدفن، مرجع سابق ، ص47.

[19] - Gillier (C) : Pénétration en Mauritanie, op.cit.P 26.

[20]– سيد أحمد ولد أحمد ولد عيدة (1898–1891م): أو أحمد بن سيدي أحمد بن أحمد بن سيدي أحمد بن عيدة الذي شغل منصب أمير آدرار سنة 1891م حتى وفاته 1898م عندما سقطت عليه داره حيث كان خصومه من أولاد غيلان يحاصرونه، و قد امتازت مدة حكمه بالكثير من الاضطرابات الداخلية.

[21] - Gillier (C) : Pénétration en Mauritanie, op.cit.P 97.

[22] – ولد صدفن ، مرجع سابق، ص49.

قائمة المصادر والمراجع

- شوقي الجمل ، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها ، مكتبة الآنجلو المصرية ، 1971م .
- ليلى الصباغ ، تاريخ أوربا الحديث، مطبعة خالد بن الوليد، 1980م.
- خيرية قاسمية ، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، مطبعة خالد بن الوليد، 1982م .
- محمدو بن محمذن ، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ,الرباط . 2001م .
- محمد المختار ولد السعد ، موريتانيا في العهد الحساني، ضمن كتاب "تاريخ موريتانيا" (فصول و معالجات)، نواكشوط ، 1999م .
- خليل سعد ، تكوين موريتانيا الحديثة ، جزءان، القاهرة 1977 م .
- محمد الراظي ولد صدفن، السياسة الاستعمارية في موريتانيا وأثرها على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، نواكشوط.1995م .
- محمد ولد أشريف احمد، الإدارة الاستعمارية في موريتانيا(1902– 1960) ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه. ، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مرقون، 2001م.
- المصطفى ابن أحمدان ، مساهمة في كتابة تاريخ وادان منذ تأسيسها 1141م حتى نهاية القرن الثامن عشر ميلادي، مذكرة تخرج من المدرسة العليا للأساتذة و المفتشين، نواكشوط، 1985م.

la pénétration en Mauritanie, librairie orientaliste, paul guéther, Paris, 1926.

تحولات المدينة المغربية خلال القرن التاسع عشر

المدن المراسي نموذجا

د. امبارك بوعصب، أستاذ التعليم العالي المساعد

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، القنيطرة، المغرب

المقدمـة:

مما لاشك فيه أن هناك حقبا من تاريخ بلاد المغرب كانت ولازالت في حاجة ماسة إلى عناية المؤرخين، وهذا ينطبق على مرحلة القرن التاسع عشر الميلادي، كما أن بعض الأحداث لا يزال يكتنفها الغموض وتحيط بها تصورات لا توافق الحقيقة التاريخية دائما. ولعل أكثر هذه التصورات هو فساد الأحوال وتفشي الاضطرابات وخراب المدن وغيرها، وكان للمدينة المغربية نصيبها من هذه المفاهيم والمعطيات الخاطئة.

وبغض النظر لما روجت له الدراسات الفرنسية حول فكرة الانغلاق والعزلة خصوصا في العقدين الأولين من القرن 19م، فإنه لا يمكن أن ننكر أن المدينة المغربية عرفت تحولات متسارعة خلال هذه المرحلة، نظرا لتزايد اعتماد المغرب على أوربا، وكانت المدن المراسي، بصفة خاصة، أكثر قابلية لهذا التحول، لأنها شكلت نقطة الاتصال الأولى بين الأوربيين والسكان المحليين، فقد كان لفئة التجار أهمية كبيرة في نسج علاقات اقتصادية ومالية مع معظم تجار أوربا واحتكوا بهم وصاروا على بينة، ولو نسبيا، بأمور المعاملات معهم.

فصيرورة التحضر والتحولات التي شهدتها بعض المدن المغربية خلال القرن التاسع عشر لم تكن نتاجا لتطور طبيعي لتلك المجتمعات، ولم تكن مرتبطة هيكليا بمسار تنمية متوازنة نابعة من صلب تلك المجتمعات، بالقدر الذي كانت فيه أشكال التحضر انعكاسا مباشرا لعنف التدخل الاستعماري في حياة الأرياف والمدن على حدّ سواء، فكان من النتائج الطبيعية لذلك تفكيك البنى السيوسيو- اقتصاديّة بالأرياف المغربية، وضرب اقتصاديات المدن بتهميش الصناعات التقليدية وتفتيت أنويتها، وتركيز الصناعات الحديثة والمُمكننة وحدة منافستها للصناعات المحلية، كما كان من نتائج كلّ ذلك إفقار الأرياف وبروز حركة نزوح عارمة نحو المدن، انطلقت معها مسيرة تحوّل الأرياف بالمغرب لأوساط طاردة لسكّانها، وسوف تساهم هذه الحركة إلى حدّ كبير في نسج ملامح المدن المغربية، خصوصا المدن المراسي بمختلف تناقضاتها واختلالاتها وأزماتها.

وإذا كانت تلك الحركة تنصهر بقوّة ضمن سياق التحولات الجذريّة والعميقة التي أحدثها التدخّل الاستعماري في النسيجين الاقتصادي والاجتماعي في المغرب، حيث تجزّأت المدن بحكم السياسة الاستعماريّة إلى مناطق محظوظة؛ تحولت إلى مراكز حضريّة هامة شكّلت مناطق جذب لسكّان المناطق الداخلية، ومناطق أخرى ظلّت أقلّ حظّا واعتبرت عديمة الجدوى، فمثّلت بالتالي مناطق دفع لأعداد كبيرة

من السكان باتجاه هذه المدن. بالمقابل، لا يجب أن نغفل، انه بالقدر الذي تشير المصادر التاريخية إلى ما عرفه المغرب خلال هذا القرن من مجاعات وأوبئة وكوارث وما كان لها من آثار على الواقع الديموغرافي والاجتماعي والاقتصادي والعمراني للمدن المغربية، بقدر ما تشير أيضا لفترات الرخاء وتطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المغربي في القرن 19م، فالأحوال المناخية في بعض فترات هذا القرن لم تشهد أزمات حادة، مما سمح بوفرة المواد الغذائية وهبوط حاد في أسعار هذه المواد. وقد استفاد المخزن من انتعاش الاقتصاد بطبيعة الحال؛ لأن الجباية تعتمد على القطاع الزراعي. واستفادت الحرف والتجارة من إعفاء المكوس وهو أمر كان في صالح المدن والاقتصاد الحضري، فنتج عن ذلك تضخم حجم المدن وانتشار مزيد من مجالات التعمير الحضرية.

ومن هذا المنطلق تهدف هذه المساهمة إلى فهم أفضل لتحولات المدينة المغربية خلال القرن التاسع عشر، وتبديد عدد من المفاهيم والمعطيات الخاطئة التي روجت لها الأسطوغرافية الأوربية لمدة طويلة، وهي المفاهيم التي وجدت طريقها، مع الأسف، إلى كتابات المغاربة، والوقوف عن ما طرأ على تلك المدن من تحولات في بنيتها الداخلية عبر رصد أهم المعالم الدالة على غناها بالمرافق الأساسية سواء منها الاقتصادية أو الدينية أو الاجتماعية، والعوامل الفاعلة في تحولات الظاهرة الحضرية في مغرب القرن 19م، من خلال استنباط العوامل الايجابية التي أثرت فيها بالتركيز على متغيرات القرن 19م؛ فترات الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي، وبالمقابل أيضا التركيز على العوامل السلبية التي عرقلت نمو بعض هذه المراكز وساهمت في تعطيل مسيرتها، وأهمها: انعدام الاستقرار السياسي وتعاقب الثورات والحملات المخزنية، إضافة إلى التوتر الاجتماعي والكوارث الطبيعية.

1. المدينة المغربية في الكتابة التاريخية المغربية والأجنبية.

شهدت العقود الأربعة الماضية تطورا كميا وكيفيا في الدراسات والأبحاث الموجهة لمقاربة المدينة المغربية عبر تاريخ المغرب، وقد أسهمت هذه الأعمال، رغم اختلاف وتفاوت مستوياتها، في إحداث نقلة نوعية في عملية البحث في تاريخ الحواضر المغربية. وذلك باعتماد مقاربات واليات منهجية مختلفة، وعبر استثمار ما خلفه المؤلفون المغاربة القدامى عن بعض المدن[1]؛ وهو ما سمح بالكشف عن كثير من المعطيات التاريخية التي لايمكن الاستغناء عنها في دراسة الظاهرة الحضرية.

كما استفاد الباحثون المغاربة المعاصرون أيضا من الإرث الذي خلفته الحقبة الاستعمارية بالمغرب، حيث برزت أسماء كثير من المؤرخين الذين أنجزوا دراسات حول بعض المدن المغربية، شكلت إضافة نوعية[2].

وقد تزايدت دراسات الباحثين المغاربة حول المدينة المغربية منذ الثمانينات من القرن الماضي إلى يومنا هذا بشكل مضطرد، سواء في شكل أعمال أكاديمية[3]، أو مختبرات ووحدات بحث[4]. ونستطيع اعتمادا على مجموعة من المعطيات الإحصائية المتوفرة عما أنتجه الباحثون المغاربة عن المدينة، تسجيل جملة من الملاحظات، منها؛ التركيز على المدن الكبيرة وخاصة المدن العواصم، ثم على مدن

الشمال مقارنة بمدن الجنوب، وكثرة الدراسات التي اهتمت بالفترة المعاصرة مقارنة مع غيرها من الحقب، واعتماد مقاربات سوسيولوجية وأنتروبولوجية واقتصادية ولسانية في الكتابة عن المدينة بشكل أكبر في حقبة الراهن خاصة. كما توزعت مواضيع البحث عن المدينة المغربية بين السياسي، والاجتماعي، وتاريخ العمارة والآثار... ، فضلا عن علاقة المدينة بالبادية...

2. لمحة تاريخية عن تحولات المدينة المغربية.

حظيت المدن المراسي المغربية – سواء المتوسطية أو الأطلسية – باهتمام كبير منذ القدم حيث شكلت قنوات اتصال بين المغرب ومختلف الحضارات، بحمولاتها السياسية والثقافية والتقنية وبأنماط تعاملها الاقتصادي كما أن موقعها على البحر جعلها تعرف تحولات في هيئتها وأدوارها التاريخية.

ومع مطلع العصر الحديث، كان للكشوفات الجغرافية وما أفضت إليه من مستجدات، وقع كبير على تطور المدن المراسي المغربية، وقد نتج عن ذلك تحول للمحاور التجارية من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلنتي؛ مما انعكس على بعض المواقع الساحلية المغربية التي خضع جلها لفترات متفاوتة من الاحتلال، أعقبها ركود وانطواء بسبب ما عرفه المغرب من ضعف في نهاية العصر السعدي وبداية العصر العلوي. ولم تعرف المدن المراسي المغربية الانتعاش إلا بعد الإصلاحات التي قام بها بعض السلاطين العلويين، خصوصا أن التدخل الرأسمالي الأوربي خلال القرن التاسع عشر اتخذ من المراسي قنوات لتصريف مخططاته، مما انعكس على تمدينها وديمغرافيتها في النصف الثاني من نفس القرن.

ويمكن اعتبار هذه المرحلة بمثابة محطة انتقالية، ذلك أنها تؤرخ لبداية مسلسل تاريخي سيؤدي بالبلاد إلى تحولات عميقة في بنيتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمجالية، بسبب تغلغل الرأسمال التجاري الأجنبي، واستقرار التجار الأوربيين في المدن المراسي المغربية. وسوف يتصاعد هذا التغلغل التجاري الأوربي على خلفية المناخ السياسي السائد آنذاك ين المغرب وأوربا وبالخصوص بعد الانتكاسات العسكرية ضد فرنسا سنة 1844م واسبانيا سنة 1860م، ونتيجة لذلك استطاعت القوى الأوربية انتزاع تنازلات عديدة في إطار مجموعة من الاتفاقيات المفروضة، كانت لها نتائج كارثية على الاقتصاد المغربي، إذ رهنت مستقبل البلاد بشكل نهائي، وغيرت بشكل عميق بنياته الاقتصادية والاجتماعية والمجالية، خصوصا أن ذلك تزامن مع استفحال وقع المجاعات والأوبئة.

وهو ما ساعد على الامتيازات التي حصلت عليها الدول الأوربية بموجب هذه الاتفاقيات الباب لاستقرار مجموعات هامة ومؤثرة من التجار الأجانب في المدن المراسي وبالخصوص طنجة والدار البيضاء والجديدة (مازكان) والصويرة (موكادور). كما يؤرخ اندماج المغرب في التقسيم الدولي للعمل السائد في تلك الفترة لبداية التحولات العميقة التي ستسجلها لاحقا الهياكل الإنتاجية في كل الميادين وسيعرفها تنظيم المجال الذي ظل إلى ذلك الحين مستقطبا من طرف مدينتين رئيسيتين: فاس ومراكش[5].

3.تحولات المدن/المراسي بالساحل الأطلسي خلال القرن التاسع عشر.

3- 1 مدينة أكادير :إغلاق الميناء وتراجع مكانة المدينة.

كان لميناء أكادير منذ القدم جاذبية خاصة، وكان التجار الأوربيون يولون أهمية كبيرة لهذا الميناء، وذلك لموقعه الاستراتيجي؛ فهو محطة قريبة من إفريقيا الغربية مصدر الذهب والعبيد ومنفذ لإقليم سوس الغني بالمنتوجات الزراعية والرعوية والمعدنية، لذلك اشتد التنافس بين كثير من الدول الأوربية بغية احتكار تجارة هذا الميناء والاستيلاء عليه، وقد بلغ هذا التنافس أشده في النصف الأول من القرن الثامن عشر[6]. لكن قرار إغلاق الميناء – دون إعلان رسمي – ستكون له انعكاسات سيئة على المدينة تمثلت في توقف عمرانها وتدهور الحياة الاقتصادية بها. وقد ذهب اغلب المؤرخين إلى أن السبب في ذلك يعود للتمرد الذي قام به جملة من الثائرين المستبدين بميناء أكادير أمثال عبد الله أو محمد الكرسيفي[7]، والطالب صالح وغيرهم، ودليل هؤلاء المؤرخين في ذلك يتمثل في كون السلطان يرى أن حسم تلك المادة لا يتأتى إلا بإحداث مرسى آخر اقرب إلى تلك الناحية، وادخل في وسط المملكة من أكادير حتى تتعطل على أولئك الثوار منفعته فلا يتشوف أحد إليه، فاختط مدينة الصويرة[8] ويبين هذا التعليل أمرين: رغبة السلطان في وضع حد لقيام الثوار بقطع منفعة المرسى عنهم، ورغبته في إيجاد مرسى يكون بديلا عن أكادير ومراقبا له[9]. ويرى أحد الباحثين أن هذا التعليل يمكن اعتباره جزئيا، لأن الإطار الحقيقي لتفسير بواعث إغلاق ميناء أكادير يعود حسب تقديره إلى السياسة الاقتصادية الجديدة التي انتهجها السلطان محمد بن عبد الله، وهي سياسة تعتمد على الرغبة في تنمية مداخيل التجارة مع الأوربيين لاغتناء بيت المال[10].

✓ **توقف عمران المدينة وتدهور بيئة سكانها.**

قدم الرحالة الذين زاروا أكادير أوصافا سيئة عن الوضعية العمرانية للمدينة؛ ففي أكتوبر من سنة 1789م وصف احد الأطباء الانجليز المدينة عند المرور بها قائلا: إن أكادير" أصبحت ميتة مهجورة، ولا يوجد بها إلا عدد ضئيل من المنازل التي هي على وشك الخراب"[11]، وحينما مر شارل دوفوكو بفوني متجها إلى الصويرة سنة 1883م وصف عمران أكادير بأنه قديم النشأة، ويبدو بئيسا، ولا توجد في المدينة سوى بعض مأوي الصيادين، ولا وجود فيها لأي تجارة[12]. وفي نهاية القرن التاسع عشر قال دوسيكونزاك عندما زار المدينة سنة 1899م، بأن أكادير" بعد أن كانت أحسن المراسي المغربية على الساحل الأطلنتيكي...أصبحت اليوم مجهولة...ولا تضم غير منازل بئيسة يسكنها الصيادون"[13].

هذه وجهة نظر الرحالة الأجانب؛ لكن الواقع يوافق الوضع الاقتصادي للمدينة، فتوقف التجارة البحرية لا يمكن أن ينعكس إلا سلبا على تعمير المدينة ونموها، وسببا في هجرة سكانها.

✓ **التراجع الاقتصادي والديمغرافي للمدينة.**

كان لإغلاق ميناء أكادير انعكاس مباشر على اقتصاد المدينة خاصة، ومنطقة سوس بصفة عامة، لأن الميناء كان منفذا للمنتجات المحلية ومصدرا للتزود بالمواد الأوربية، ولم يعد لسوس سوى معبر للمواد

الإفريقية، ونتيجة لذلك؛ أصبحت الزعامات المحلية اقل شأنا باستثناء الزعامات التي كانت تحتكر التبادل التجاري بين السودان والصويرة، خاصة آل بيروك بكلميم وآل ابن هاشم بتازروالت[14].

ونتيجة لذلك تفرق أغلب تجار سوس بمختلف المدن المغربية؛ فكانت أول دفعة من هؤلاء قصدت مدينة الصويرة بعد بنائها لمزاولة أعمال التجارة بها، كما اصدر السلطان أمره بنقل سكان أكادير وأحوازها إليها، فنقل أهل أكادير وأهل مسكينة، وأهل تاماعيت، وبني عنترة، والمنبهة وغيرهم[15]، وجعل لكل فرقة عملا مخزنيا تؤديه، فعين لأهل أكادير رئاسة المرسى لكونهم مرنوا على البحر مع اشتغالهم بالتجارة، وعين من بني عنترة الطبجية[16].

2-3 مدينة الصويرة بين الازدهار وتردي الأحوال.

✓ **مرحلة الازدهار:**

تأسست مدينة الصويرة سنة 1744م على يد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1756م- 1780م) غرب مدينة مراكش على الساحل الأطلنتي، وكان الهدف من ذلك اتخاذها مرسى بحريا ومركزا تجاريا رئيسيا تقع فيه كل المبادلات التجارية مع أوربا، وكان يرمي من ذلك أيضا حصر مجال النفوذ الأجنبي وتحديد حجم المبادلات التجارية في الوقت نفسه، فكانت المدينة تقع في مكان منعزل نسبيا، كما لم يكن يسمح للأجانب بالتنقل في اتجاه الأسواق الداخلية[17].

وبالفعل، فقد أصبحت الصويرة المرسى البحري الرئيسي في المغرب بعد إنشائها بعقد من الزمن، وظلت محتفظة بتلك المكانة أكثر من قرن[18]، وبالرغم مما شهدته باقي المراسي المغربية من أزمات عند بداية الستينات، فقد ظلت الصويرة بعيدة عنها نسبيا[19]، كما ساهم إبرام المعاهدة المغربية البريطانية سنة 1856م إلى تزايد تدفق الأوربيين على المغرب بشكل واضح، خاصة البريطانيين الذين احتلوا صدارة الوافدين، ومعهم رساميلهم لاستثمارها والعمل على إنمائها؛ خاصة وأن بنود المعاهدة هيأت لهم ولغيرهم من الدول الأوربية الشروط الكفيلة بتحقيق ذلك[20].

وقد أسهبت الدراسات الأجنبية في الحديث عن تفتح المغرب لكنها غضت الطرف عن سلبيات ذلك التفتح؛ فلا شك أن نهج مزيد من الحرية التجارية على مستوى التصدير والاستيراد قد ساهم في الرفع من قيمة المبادلات وحجمها مما انعكس بشكل ايجابي على الساكنة.

وقد اعتبر أحد المؤرخين التطور الذي شهدته الصويرة ذا دلالة بالغة في تاريخ المغرب الحديث؛ فقد ذهب عبد الله العروي إلى اعتبار سيدي محمد بن عبد الله الذي أسس الصويرة "صانعا حقيقيا للمغرب الحديث الذي طالما تحدثت عنه كتابات عديدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" كما يرى أن إنشاء الصويرة جعل الرسوم الجمركية المفروضة على التجارة الخارجية مصدرا لمداخيل الدولة، ومن ثم أصبح ازدهار الدولة المغربية ووجودها مرتبطين بنشاط يهيمن عليه الأجانب[21].

كما أصبح بعض تجار السلطان على مستوى مرتفع من الثراء بعدما تحولوا إلى وسطاء تجاريين، إلا أن ذلك الثراء ظل متوقفا على أوربا، لأن إمكانيات الاستثمار المحلية ظلت محدودة جدا، ولذلك كان أكثر التجار المغاربة نجاحا يستثمرون في الأبناك والشركات الأجنبية[22].

✓ **مرحلة تردي الأحوال:**

سرعان ما ستعرف مدينة الصويرة تحولات كبيرة وستتردى أحوالها، مما جعل النائب القنصلي كريس " Grace " يصفها بالقول: إن وضعية الصويرة أكثر سوء مما يمكن أن يتصور الإنسان. إذ ليس هناك ما يمكن أن يشجع التجار على الاستقرار فيها، باستثناء الامتيازات التي توفرها للنشاط التجاري، وكون مرساها من أجود المراسي في الإمبراطورية[23].

وإذا كانت المدينة في مقدمة المدن التجارية المغربية، فإن حالة النظافة بها كانت على نحو يوصف عموما بالإهمال؛ إذ عانت من سوء تصريف المياه الحارة ومساوئ بيوت الخلاء، وانتشار القاذورات بجوار الدور المزدحمة والمفتقرة إلى وسائل التهوية الكافية، بشكل كان يهدد الصحة العمومية[24].

✓ **التحولات الاجتماعية بمدينة الصويرة:**

تكونت التشكيلة الاجتماعية للمدينة من أبناء الجنود الذين استقروا بها منذ تأسيسها أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقدر الناصري عددهم بحوالي 2500 رجل من كل أنواع الجندية[25]، معظمهم من العساكر المعروفين ب"عبيد البخاري"، فالناصري يذكر، أن عبيدا من حاحة والشبانات قد أرسلوا إلى الصويرة[26]. وبعد بناء الصويرة، اصدر السلطان أمره بنقل سكان أكادير وأحوازها إلى الصويرة[27]، فنقل أهل أكادير وأهل مسكينة، وأهل تاماعيت، وبني عنترة، والمنبهة وغيرهم[28]، وجعل لكل فرقة عملا مخزنيا تؤديه، فعين لأهل أكادير رئاسة المرسى لكونهم مرنوا على البحر مع اشتغالهم بالتجارة، وعين من بني عنترة الطبجية[29].

كما أرسلت من فاس مجموعة من نخبة الجند للمساهمة في تعمير مدينة الصويرة، فالسلطان سيدي محمد وضع جميع الترتيبات لإرسال 300 رجل من فاس سنويا لبناء المدينة، لكنه عدل عن ذلك أمام الإيقاع السريع لأعمال البناء، فاكتفى بتوجيه 50 من الرماة فقط للمدينة[30].

وفي العقود الأولى من القرن التاسع عشر، كان عدد التجار في مدينة الصويرة محدودا إذ لم يبقى فيها إلا عددا قليل من التجار الأجانب الذين حلوا بها منذ مرحلة تأسيسها، وكانت وراء ذلك أسباب عديدة؛ منها انتشار وباء الطاعون بين سنتي 1799م و1800م، والحروب النابوليونية، ثم التغير الذي حصل في سياسة المغرب الخارجية، فقد تضافرت هذه العوامل لتقليص أعدد هذه الفئة الاجتماعية التي كانت تتوقف عليها المبادلات بين المغرب وأوربا، واكتفى السلطان مولاي سليمان بعدد ضئيل من التجار الذي يراقب نشاطهم عن كثب[31]. وقد انحصر عدد الدور التجارية الأوربية سنة 1805م في دارين فقط ليتراجع هذا العدد سنة 1828م إلى دار واحدة، وبعد عقد من الزمن انتقل إلى ست عشرة دار، ليرتفع مرة أخرى هذا العدد بحلول سنة 1841م إلى تسع عشرة دارا[32].

كما استقبلت المدينة أعدادا كبيرة من الجائعين والموبوئين[33] نتيجة قسوة الظروف الطبيعية وانتشار الأوبئة، وكانت الأصول الجغرافية لهؤلاء النازحين جد متنوعة؛ فبالإضافة إلى محيط المدينة المباشر، توافد عدد كبير من حاحة ودكالة وسوس والحوز وكانوا يتكونون في معظمهم من فلاحين منكوبين ورعاة، وقد جاء الكثيرون منهم مع عائلاتهم، وإذا استنطقنا الأرقام – التقريبية – نجد أن عدد سكان المدينة الأصليين كان يصل إلى حوالي 17.000 ألف نسمة أما عدد الوافدين فقد ارتفع في غشت من عام 1878م إلى 9.000 آلاف نسمة أي بنسبة 54 في المائة من هذا العدد هناك 3.000 يهودي انحازوا إلى الملاح أما الباقون من المسلمين فقد تكدسوا في الحي الإسلامي[34].

3-3 مدينة الرباط بين الهيمنة والتبعية للدار البيضاء.

تقع مدينة الرباط على الضفة اليسرى من مصب أبي رقراق، وتتجلى أهمية موقع المدينة في انتباه الأوساط الاستعمارية الأوربية إلى كون موضعها يشكل حلقة وصل بين الجزء الشمالي والجزء الجنوبي من المغرب، وتكفي السيطرة عليه للتحكم في البلاد وسد الطريق بين المغرب الشمالي والمغرب الجنوبي، لذلك اعتبروها مفتاح المغرب[35].

كانت الرباط خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر تعوض الدار البيضاء في عمليات التصدير، وكانت حقوق الخروج الخاصة بالدار البيضاء تؤدى في ديوانة الرباط، فإسم الدار البيضاء كان غائبا في كل الإحصائيات القنصلية بين سنتي 1830م و1835م. وأشار "ميج" إلى إن الرباط في النصف الأول من القرن التاسع كانت أكثر مراكز البلاد ازدهارا في ميدان الحرف والصناعة[36]، كما يرى أن المدينة ظلت سنة 1850م من أنشط موانئ المغرب مستفيدة من التشريع الجمركي ومن "بورجوازيتها" الغنية من التجار، ومن تنظيمها القنصلي، لكن حصلت فيها تغيرات حاسمة منذ معاهدة 1856م التجارية التي عقدت بين المغرب وبريطانيا[37]، والتي ألغيت بموجبها الامتيازات الجمركية، فأخذت تجارة الرباط تنخفض لتصل ما بين سنتي 1862م و1866م إلى الخمسين[38]. وهذا ما جعل مدينة الرباط تتخلى بعد سنة 1857م عن مكانتها لصالح مدينة الدار البيضاء التي أخذت الصدارة؛ ذلك أن الامتيازات الجمركية التي كانت تتمتع بها بعض المراسي ومنها الرباط من جهة، وإقرار الخدمات ذات النقل بالبخار من جهة ثانية وفق بنود معاهدة التجارة لسنة 1856م؛ وضع كل ذلك حدا لصدارة مرسى أبي رقراق وأصبحت الرباط مجرد ملحقة اقتصادية للدار البيضاء ولم تفتأ تجارتها تضعف، فانخفضت بنسبة الخمسين سنة 1862م وسنة 1866م[39]. وهكذا أصبحت الدار البيضاء تتلقى جزءا كبيرا من البضائع الموجهة إلى الرباط بينما تتكفل القوافل بإيصالها إلى الرباط، ومع ذلك ظل مرسى الرباط يستقبل السفن الشراعية وخصوصا الفرنسية التي كانت تأتي إليه لطلب الصوف وخصوصا في فصل الصيف[40].

كما عرفت المدينة بالمقابل في ظل حكم المولى سليمان حدثين كان لهما انعكاس سلبي على ساكنتها وعمرانها؛ أولهما ما وقع عام 1799م من وباء أحدث نزيفا ديموغرافيا قاسيا[41]، والأخر وقع في

العام 1818م وارتبط بإلغاء الجهاد البحري نتيجة الضغوط الأوربية التي مورست على المخزن ابتداء من مؤتمر فيينا[42].

4-3 الدار البيضاء ودور الميناء في تحولاتها.

يشكل القرن التاسع عشر وبالخصوص النصف الثاني منه، مرحلة انطلاق تطور الدار البيضاء الحديثة، ويؤرخ مييج لانطلاق هذه المرحلة منذ 1830م، تاريخ إعادة فتح المدينة للتجارة العالمية من لدن السلطان مولاي عبد الرحمان[43].

غير أن تأثير هذا الانفتاح سيظل محدودا على تطور المدينة، التي لم تكن ساكنتها تتعدى 600 نسمة، ولم يكن ميناؤها يتوفر على أبسط التجهيزات، كما أن مساهمتها في الرواج البحري لا تتجاوز 3 في المائة من مجموع نشاط الموانئ المغربية الموجهة أساسا للتصدير[44].

بينما سيكون لتظافر مجموعة من العوامل، انطلاقا من منتصف القرن التاسع عشر، دور حاسم في تغيير موقع الدار البيضاء ضمن خريطة الرواج المينائي وتفوقها بشكل تدريجي على باقي الموانئ[45]. إذ سيستفيد ميناء الدار البيضاء من هذه الظروف نظرا لموقعه المتميز، فتصدير الصوف عبر هذا الميناء سيتزايد، مما سمح بمضاعفة قيمة الرواج التجاري بالميناء الذي تجاوز مليوني فرنك سنويا انطلاقا من سنة 1850م. وقد انعكس هذا التوسع التجاري والمالي على البنية الديمغرافية والحضرية للدار البيضاء التي تحولت تدريجيا إلى مركز استقطاب لساكنة الجهات المجاورة وجلب جزء هام من تجار المدن الأخرى للاستقرار بها، وتمكننا الإحصائيات المتوفرة بالرغم من محدوديتها، من تتبع هذا التطور خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر[46]. فقد وصل عدد سكان المدينة ليصل لحوالي 1700 نسمة في سنة 1857[47].

4. تحولات المدن/المراسي الشمالية في المغرب خلال القرن التاسع عشر.

4-1 مدينة تطوان.

إن العلاقات التجارية البحرية التي ربطت تطوان بمختلف دول البحر الأبيض المتوسط، خلال المرحلة السابقة للقرن التاسع عشر، جعلت منها بوابة المغرب في وجه التجارة الخارجية. وبالرغم من هذا الازدهار الاقتصادي (تجاريا) الذي عاشته المدينة مستفيدة من موقعها الاستراتيجي، و الازدهار الاجتماعي بسبب توافد عدة عناصر عربية و أوروبية عليها بهدف التجارة أو الدراسة أو الاستقرار بها، ألا أنها عرفت تراجعا مفاجئا خلال بداية القرن 19 متأثرة بالوضعية السيئة التي يعرفها المغرب بسبب التدخل الاقتصادي المباشر. و قد شكل مرض الطاعون الذي عرفته تطوان سنة 1800م وسنة 1818، إضافة إلى حصار مولاي زايد سنة 1822م على تطوان والمجاعة خلال سنة 1825[48]، وغيرها نقطة سوداء في تاريخ تطوان. ونتيجة لهذه الأوضاع فقد تدفق على تطوان أعداد كبيرة من ساكنة الريف قدرت ب4000 مهاجر عنوا في هذه المدينة من قلة الطعام[49].

وفي سنة 1857م أغرق الإسبان عدة بواخر تطوانية عند مدخل ميناء المدينة، الأمر الذي شكل ضربة قاضية للتجارة في تطوان، و بالتالي شكل القرن التاسع عشر بداية انحطاط المدينة لأنها لم تتمكن بعدها من استرجاع مكانتها المهمة، لا على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي أو الفكري. هذا دون أن ننسى تأثير حرب تطوان سنة 1860م، التي كانت بين تطوان و الإسبان و التي انتهت بهزيمة أهالي تطوان و استعمارها من طرف الإسبان لمدة سنتين، و لم يخرجوا منها إلا بعد أداء غرامة مالية ضخمة تسببت في تراجع مكانة تطوان الاقتصادية. فالتجارة التطوانية تمر عبر مرسى مارتيل على ضفاف بوصفيحة، على بعد خمسة أميال من المدينة، ويمكن للمراكب التي كانت حمولتها لاتفوق ثلاثين طنا أن تتجاوز مصب الواد وترسو في مارتيل، أما خليج تطوان فإنه لم يكن يضمن ظروفا آمنة للإرساء لعدة أسباب[50]، وكانت تنقل السلع الموجهة من المدينة إلى المرسى أو العكس على متن الدواب، وقس على ذلك المنتجات التي كانت تجلب من المناطق الداخلية إلى تطوان، كالحبوب والصوف والزيت واللوز وشعر الماعز[51]، وبلغت قيمة البضائع البريطانية المستوردة إلى تطوان في السنوات الخمس التي تنتهي عام 1855، معدلا سنويا تراوح ما بين 18 ألف و20 ألف جنيه استرليني في حين بلغت الصادرات 9 آلاف جنيه، إلا أن السنوات التي تلت الحرب المغربية الاسبانية كانت كارثية على التجارة التطوانية؛ ويبدو ذلك واضحا من التراجع الذي سجلته أعداد المراكب المترددة على المرسى ومن أحجامها وقيمة حمولتها.

لقد اثر هذا الوضع الذي عرفته المدينة ونواحيها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية بالمدينة؛ فقد دفع الفقر والجوع سكان البوادي إلى حمل السلاح والسطو على المدن ونهب بساتينها وجناتها، فقد قامت قبيلة بني يدر بمحاصرة تطوان وتخريب بساتينها[52].

2-4 مدينة طنجة.

تقع مدينة طنجة عند المدخل الغربي للمضيق، شرق رأس سبارطيل، أقيمت المدينة على هضبة مرشان المحصنة طبيعيا، حيث يبلغ علوها حوالي 62م فوق سطح مرشان، ولاشك أن موقعها هذا هو الذي حدد تسميتها، لأنه إذا كانت المصادر القديمة قد اختلفت في كتابة اسم المدينة بين تينكى، وتنجي، وطنجي، وطنجيس، فان معظمها حافظت على الحروف الأصلية للكلمة، مما شجع بعض الباحثين المعاصرين على تأويله وربطه بالمكان العالي[53].

ولاشك أن موقع المدينة بين البحر المتوسط والأطلسي شمالا وغربا والجبل المطل على جبل زهيرو جنوبا وكتلة أنجرة شرقا ساهم في ازدهار المدينة اقتصاديا واجتماعيا منذ عصور ما قبل التاريخ[54].

كان يسكن المدينة في منتصف القرن التاسع عشر حوالي 8500 نسمة موزعين على 900 من الديار[55]، وأكد النائب القنصلي ريد" Reade " شدة التسامح والرقي الحضاري عند ساكنيها مقارنة مع باقي المدن المغربية[56]. أما اقتصاديا فقد كانت تعتمد أساسا على المبادلات التجارية مع جبل طارق

اعتمادا ثابتا مستمرا وتتكون صادراتها من المنتوجات الفلاحية من أصل نباتي أو حيواني، بينما كانت تستورد مصنوعات قطنية من مختلف الأصناف والحرير، علاوة على الشاي والبن ومواد أخرى.
وكان المرسى يتوفر على إمكانات وظروف إرساء جيدة، بالرغم من أنه لم يكن عند منتصف القرن التاسع عشر سوى موضعا على الشاطئ يمكن للسفن أن ترسو على مياهه في الجهة الغربية للخليج[57].

عانت المدينة خلال القرن التاسع عشر نزيفا ديموغرافيا نتيجة موجات الكوليرا والمساغب التي ضربت المنطقة؛ وبفضل الامتياز الذي كان لطنجة فقد قصدها الجائعون فاكتظت بالأفاقين والمتشردين الذين يجوبون الحقول المجاورة بحثا عن الجذور، بل اضطروا إلى آكل كل كلاب المدينة، وتهافتوا على جثث الخيول والحمير والبغال والأبقار الملقاة على قارعة الطريق، ومع ذلك كثر الموت في أوساطهم فكان يسقط منهم من 10 إلى 15 ضحية في كل يوم خلال أكتوبر من عام 1825 [58]. وفي سنة 1845 عادت الأزمة الغذائية لمدن الشمال، فقد قلت بها الأقوات ونذرت فأمر السلطان بجلب الحبوب إلى طنجة وتطوان والعرئش من مرسى الدار البيضاء والجديدة وأسفي[59].

وفي سنة 1868م فقدت طنجة لوحدها 441 ضحية بسبب الكوليرا، و700 أثناء كوليرا عام 1895 [60]، وبجانب الوباء كانت تتدخل المجاعات لحصد أرواح الكثيرين خاصة من أوساط الفقراء والأفاقين كاهل الريف الذين هاجروا بإعداد كبيرة إلى المدن الشمالية بعد مجاعة 1868، وقد تسبب الفقر وشظف العيش سكان البوادي إلى حمل السلاح والسطو على المدن ونهب بساتينها، كما انتشرت اللصوصية أيضا فعم الخوف السكان واضطر عدد كبير منهم للتشتت في الآفاق وكانت هذه الظاهرة حضرة بقوة في طنجة فاضطر المخزن لزيادة التعزيزات الأمنية بها لحماية الأوربيين[61].

الخاتمة:

لقد ظل المغرب لمدة طويلة منغلقا على نفسه، لكنه وجد نفسه مضطرا للانفتاح على عالم غربي أكثر تقدما بفعل التحولات العميقة التي عرفها، وهكذا سيشهد النصف الأول بداية التغلغل التجاري في المدن المراسي المغربية الأمر الذي ترتب عنه تحولات عميقة في بنيتها الاقتصادية والاجتماعية والمجالية. ومن خلال نماذج المدن المراسي التي عرضنا تحولاتها في هذا المقال، يتضح انه في الوقت الذي كانت فيه مدينة أكادير نشاطا اقتصاديا قويا انعكس إيجابا عليها وعلى نواحيها، فازدهرت عمارتها وتزايدت ساكنتها، وعرفت تحولات في بنياتها الاقتصادية. لكن سرعات ما سيؤدي إغلاق ميناؤها إلى تراجع في اقتصادها وتوقفا في عمرانها وهجرة لساكنتها. وعلى العكس من ذلك سيستفيد ميناء الصويرة من هذا الوضع الذي آلت إليه مدينه أكادير .

نفس الأمر، ينطبق على مدينتا الدار البيضاء والرباط ففي الوقت الذي كانت فيه الدار البيضاء تابعة للرباط ازدهرت هذه الأخيرة على جميع المستويات، لكن سرعان ستنعكس الآية لصالح مدينة الدار البيضاء.

وفيما يخص المدن المراسي المتوسطية فهي الأخرى عرفت تحولات واضحة، فينتعش اقتصادا بسبب الحركية التجارية لموانئها، وتتأثر سلبا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية جراء توالى الكوارث والمجاعات والأوبئة التي عرفتها المناطق الشمالية للمغرب.

الهوامش:

1 – من هذه الدراسات نذكر: ما كتبه ابن أبي زرع الجزنائي عن مدينة فاس، ومحمد داود عن تطوان، وابن زيدان عن مكناس.

2– Jacques Caillé, La ville de Rabat jusqu'au Protectorat Français, Histoire et archéologie,3 Vol,Volume I : Texte. Volume II : Plans et dessins. Volume III

– Gaston Deverdun, Marrakech, des origines à 1912, Éditions techniques Nord-Africaines, 1959

3– الخمليشي عبد العزيز ، مدينة الرباط في القرن التاسع عشر، 1818– 1912، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 66، الطبعة الأولى، 2012.

– الموادن نور الدين ، ملامح من الحياة اليومية بوجدة وبواديها خلال القرن التاسع عشر، منشورات جامعة محمد الأول ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، رقم 45، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، 2001.

4– من هذه الوحدات نذكر: وحدة التكوين والبحث، المدينة المغربية: التاريخ والإنقاذ.

5 – كعيوا عبد القادر، الدار البيضاء دور الميناء في بروز حاضرة وطنية وتطورها، ضمن المدن المراسي في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2013، ص: 12.

6 – أفا عمر، تاريخ المغرب المعاصر، دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 34، الطبعة الأولى، 2002، ص: 171.

7 – الضعيف محمد الرباطي ، تاريخ الضعيف، تحقيق احمد العماري، نشر دار التراث الرباط، 1986، ص:118.

8 – الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، الجزء 8، 1997، ص: 20.

9 – أفا، تاريخ المغرب المعاصر، دراسات في المصادر، م س، ص: 173.

10 – أفا، تاريخ المغرب المعاصر، دراسات في المصادر، م س، ص: 173.

11 – R..Antraygues "Le passé commercial d'Agadir". In Revue maritime . Juin 1930.p:760.

12 – Charles de Foucauld. Reconnaissance au Maroc. 1883-1884. Paris. Chllamel.1988. T. I. p:185.

13– أفا، التجارة المغربية في القرن التاسع عشر، م س، ص: 365.

14 – أفا، تاريخ المغرب المعاصر، دراسات في المصادر، م س، ص: 182.

15 – الصديقي محمد بن سعيد ، إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة، مطبعة دار الكتاب، ص: 65.

16 – الضعيف ، م س، ص:172.

17 – شروتر دانييل، تجار الصويرة المجتمع الحضري والامبريالية في جنوب غرب المغرب، 1844 – 1886، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم 6، ص: 20.

18 – شروتر، تجار الصويرة، م س، ص: 27.

[19]– بن الصغير خالد، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856– 1886)، منشورات جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 34، الطبعة الأولى، 1997، ص: 227.

[20] – بن الصغير خالد، المغرب وبريطانيا العظمى، م س، ص:228.

[21]– شروتر دانييل، تجار الصويرة، م س، ص: 17.

[22] – شروتر دانييل، تجار الصويرة، م س، ص: 20.

[23]– تقرير النائب القنصلي كريس عن الصويرة والمناطق المجاورة لها سنة 1856، انظر خالد بن الصغير، "الحركة التجارية في مرسى الصويرة خلال القرن التاسع عشر 1850– 1880"، ضمن الصويرة الذاكرة وبصمات الحاضر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، 1994، الدار البيضاء 151– 164.

[24] – البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم18، 1992، ص: 277.

[25]– الناصري، الاستقصا، ج8، ص: 49.

[26] – نفس المصدر والصفحة.

[27] – توحي إحدى الرويات أن سكان أكادير رفضوا في بداية الأمر أن يذهبوا إلى الصويرة، فتوجهت حركة مخزنية من مراكش لشن هجوم على المدينة، وقيل أن السلطان منح السكان مهلة قصيرة لحزم أمتعتهم والتوجه إلى الصويرة، راجع، دانييل شروتر، تجار الصويرة، م س، ص: 39.

[28] – الصديقي، م س، ص:65.

[29] – الضعيف، م س، ص:172.

[30] – أبو العباس احمد بن الحاج، الدر المنتخب في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، الخزانة الحسنية، مخطوط رقم 1920، ورقة 152.

[31] – شروتر، تجار الصويرة، م س، ص: 56.

[32] – المرجع نفسه، ص: 56.

[33]– البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، م س، ص: 278.

[34] – المرجع نفسه، ص: 278– 279.

[35] – الفاسي عبد الإله ، مدينة الرباط وأعيانها في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، 1830– 1912، منشورات جمعية رباط الفتح، 1996، ص: 36.

[36] – Mkiege. L.J . "document intédits sur l'artisanat de Rabat Salé au milieu du 19 éme" in B E M S.N 82.1959 Année . p: 173-183

[37] – تعد هذه المعاهدة من أخطر المعاهدات التي وقعها المغرب خلال القرن التاسع عشر، حيت تضمنت عدة بنود مجحفة حرمت المخزن من حقه في التشريع الجمركي واحتكاره للتجارة الخارجية.

[38] – الفاسي، مدينة الرباط وأعيانها، م س، ص:45.

[39] – الفاسي عبد الإله، "ميناء الرباط وسلا بين الريادة والأفول من الأصول إلى نهاية عهد الحماية"، ضمن المدن المراسي في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2013، ص: 384.

[40] – الفاسي، ميناء الرباط وسلا بين الريادة والأفول، م س، ص: 385.

[41] – البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، م س، ص: 95– 96.

[42] – الخمليشي عبد العزيز، مدينة الرباط في القرن التاسع عشر، 1818– 1912، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 66، الطبعة الأولى، 2012، ص: 63.

[43] MIEGE -J. L(", Les origins du développement de Casablanca au 19 éme siècle" T Hespéris , pp 2–XL 1 ,1953 ,trim:226- 199 .

[44] -كعيوا، الدار البيضاء دور الميناء في بروز حاضرة وطنية وتطورها، م س، ص: 12

[45] -المرجع نفسه، ص: 12.

[46] – op,cit MIEGE,

[47] – خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، م س، ص: 221.

[48] – البزاز، م س، ص: 120.

[49]– البزاز، م س، ص: 184.

[50] – خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، م س، ص:216.

[51] – خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، م س، ص:216.

[52] – البزاز محمد الأمين ، "المجلس الصحي والمخزن وكارثة 1878"، مجلة دار النيابة، السنة الأولى، المطابع الدولية المغربية، طنجة،، العدد4، 1984، ص:19.

[53] – بلكامل البيضاوية، "أصناف الموانئ وأدوارها بالمغرب القديم من خلال المصادر الأدبية والأثرية"، ضمن المدن المراسي في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2013، ص: 61.

[54] – المرجع نفسه، ص: 62.

[55] – خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، م س، ص:212.

[56] – المرجع نفسه، ص:212.

[57] – نفسه، ص:213.

[58]– البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، م س، ص: 122.

[59]– البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، م س، ص: 122.

[60] – داود محمد، تاريخ تطوان، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، المجلد السادس، ص:33.

[61] – التمسماني محمد خلوف، "موقف الرأي العام المغربي من خلال الفتاوي الشرعية في القرن التاسع عشر وبداية العشرين"، مجلة دار النيابة، السنة الخامسة، العددان 19و 20، 1988، ص: 54.

النّوازل الفقهية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي

(فتوى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حول التّجنس "1937" أنموذجا)

الدكتور قاصري محمد السعيد، أستاذ محاضر بقسم التاريخ

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، الجمهورية الجزائرية

مقدمة: دَأب العُلماء والفُقهاء في الجزائر على الاهتمام بالنوازل التي تعرّض لها الجزائريون خلال الحِقبة الاستعمارية، ومن بين النوازل التي أدْلوا فيها بِدلوهِم: الهِجرة من دار الحرب إلى دار السّلام[1]، إبطال فريضة الجهاد (فتوى "ليون روش")[2]، والتّجنُّس...الخ، وَنَظرا لأهمية هذهِ المسألة الأخيرة، وبِحكم انعكاساتها التيِ لا تزال قائمةً إلىَ اليوم، وأخطارها المُحدقة بنا، وتهديدها المُستمر للمُجتمع الجزائري خُصوصا والمُجتمع العربي عُموما، ونظرًا لِقلّة الدِّراسات التَّاريخية حولها، ارتأينا مُعالجتها ودراستها حسب ما يسمح به الحجم الورقي المشروط في هذه المجّلة.

أمّا الإشكال المَطرُوح في هذا المقال، فَهُو يكْمُن فيِ مُحاولة الإجابة عن جُملة من التّساؤلات العالقة: ما هي الجُذور التّاريخية للتّجنُّس فيِ الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي؟ إلىَ أَيّ مَدىَ نجحت عملية تجنيس الجزائريين؟ ما هو مَوقِفْ الجزائريين مِنها؟ ما هو موقف جمعية العُلماء المسلمين الجزائريين من التجنس؟ ما هُو مَضْمُون فَتوى الجَمعية حول التّجنس؟ ما هو مَوقف الإدارة الاستِعمارية مِنها؟ ما هيَ انعِكاسَاتهَا على المُتَجنِّسينَ في الجزائر؟ وهل كانت لها انعكاسات على المُتجَنِّسين خارج الجزائر؟ هذا ما سنُحاول الإجابة عنه ومعالجته في هذا المقال، وفق العناصر التالية:

1-الجُذُور التَّاريخية للتَّجنُّس فيِ الجزائر: إنَّ الجُذور التّاريخية للتَّجنُس"la naturalisation" في الجزائر تَعود إلىَ قانون السِّينَاتُوس كُونْسِيلت "sénatus-consulte" الصّادر في 14 جويلية 1865، الذي نصّت مادته الأولى على ما يلي: « يُمكن للمُسلم الجزائري أن يتمتع بحقوق المواطن الفرنسي»[3]، كما منح بدوره الجِنسية الفرنسية لليهود بصُورة شخصية[4]، ونظرا للمساعي الحثيثة التي قاموا بها للحُصول على الجنسية الجماعية، تكلّلت مساعيهم بصُدور قانون كريميو في 24 أكتوبر 1870 الذي مَنح الجنسية الفرنسية لليهود في الجزائر بِصُورة جماعية وإجبارية[5]، دون أيّ قيد أو شرط، ومُنذ هذا التاريخ أصبح يهود الجزائر مُواطنين فرنسيين، رغم مُعارضة الجزائريين للتّجنيس الجماعي لليهود[6].

أمّا بالنِّسبة لِتَجنيس الجزائريين الذي عارضه المُستوطنون الأوربيون باعتبارهم أقلية صغيرة تخشى من الذَّوبان في الجماهير المُسلمة ذات الأغلبية[7]، فالسُّلطات الفرنسية أصرَّت عليه واشترطت ضرورة التّخلي عن قانون الأحوال الشَّخصية، وحينها يُصبح المُتجِّنس مُواطنا فرنسيا له نفس الحُقوق والواجبات

كبقية المُواطنين الفرنسيين، وفي حالة تَمسُّكه بقانون الأحوال الشَّخصية فإنَّه سَيظَّلُ مُجرّد رعية فرنسية، أو أهلي مُسلم فرنسي، لكنّه يستمر مَحكُومًا بالقانون الإسلامي، وهذا لا يعني الاعتراف للجزائري بحق المُواطنة، وحق المُواطنة هذا لا يُمكن أن يكتسبه الجزائري إلاّ إذا تجنّس بالجِنسية الفرنسية، إلاَّ أن تَجَنُّسهُ حسبما قرّرتهُ القوانين الفرنسية يَسْتلْزِم تَخلّيه عن المُعاملات حسب الفِقه الإسلامي[8]. والسُّؤال المطروح هنا هو كيف كان مَوْقف الجزائريين مِن التَّجنُّس؟.

لقد رفض الجزائريون التَّجنس جُملة وتفصيلاً كما رفضُوا التَّنصير من قبله، واعتبروه مُروقًا عن الدِّين الإسلامي الحنيف[9]، لكنّهم لم يَنظرُواْ إليه كنازلة من النّوازل الفِقهية التي ينبغي مُعالجتها، نظرا لِخلُو السّاحة الجزائرية آنذاك من فُحُول العُلماء والفُقهاء بِسبب سياسة القتل والنّفي والتّهجير التي تَعرَّضُوا لها خِلال القرن 19، وفي ظِل رفضهم هذا قامت فرنسا بالتّحرك على أكثر من صعيد، فبدأت في مُمارسة التَّجنيس الانتقائي الذي استهدفت من خِلاله الفِئة المُثقّفة التي تلقّت تعليمها وتكوينها في المدارس الفرنسية، وهي الفِئة التي أطلقت علىَ نَفسهَا فِيما بعد اسم النُّخبة[10]، وعليه فنجاح عملية التَّجنيس مع هذه الفئة سَيُساهِم في نشره في أوساط المجتمع الجزائري، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، قامت فرنسا بالتّدخل لدى حُكومات بعض الدّول لِمُلاحقة المُهاجرين الجزائريين، ومَنعِهم من الحُصول على جنسية الدول التي هَاجرُوا إليها كتونس والمغرب مثلا، بِحُجة أنهُم رعايا فرنسيين، ففي تونس مثلا تَدخّل المُقيم العام لمنع هذا التَّجنُّس[11]، أما في المغرب فلقد قامت فرنسا في ظل التّنافس الأوربي على المغرب، بِعرض جنسيتها على الجزائريين والمغاربة، فاستجاب البعض لهذا العرض المُغري وسارعُوا إلى طلب الجنسية الفرنسية.

لكن العلماء والفقهاء في المغرب تدخّلُوا في الأمر واعتبروا هذه المسألة نازلة من النّوزال الفقهية، التي ينبغي معالجتها، ومن بين العُلماء الذيِن أَدلُواْ بِدلوهِم فيِ هذه المسألة العلامة الجزائري أبُو حامد العَربي المشرفي، الذي ألَّف حولها كِتابًا مُهمًا أَوْسَمَهُ بـ: الرّسَالةُ فيِ أَهلِ البَاصْبُور الحُتالة[12]، فسارع حوالي 546 مهاجرا جزائريا إلى استنكار هذا الأمر وأمْضوا على عريضة مُؤرّخة في 1312هـ/1894، ووجَّهُوهَا إلى السُّلطان عبد العزيز تُفيد بكونهم مُواطنين مغاربة[13]، وهذا يُعد ضربة قاضية لِتجنيس الجَزائريِين الجنسية الفرنسية بفيِ المغرب.

بعد استعراضنا لهذين الموقفين من التّجنُّس في تونس والمغرب، نعود إلى الحديث عن مسار التّجنُّس في الجزائر، فمع مرور الوقت بدأ التَّجنُّس يلقى مُعارضة قوية، طبعا خارج باب الفقه الإسلامي، ففي سنة 1887 تحدث مُمثلي سُكان قسنطينة كعبد القادر المَجَّاوي وحَمدان الونِيسي[14]، عن رَفضهم

لِمشرُوع قانون التَّجنيس الشَّامل، الذي عُرف بِمشرُوع قانون "مِيشلان وغُولي"، وممّا جاء في العَريضة التي وقّعها 1700 شخص: « إنَّ هذا المشروع (مشروع القانون) لا يُلائِمنا ولا يَستجيب لِمطَامِحِنَا»[15]، ومُبرِّرُهُم في ذلك هو: «إنَّ أَخْذ الجِنسية الفرنسية سوف يَكُون منْ نتائِجهِ بالنِّسبة إلينا، الإلغاء التَّام لقوانيننا ونظامنا من حيثُ الوسائل المادية (كالأموال والممتلكات)، ومن حيثُ قوانين الأحوال الخاصة» ثُمَّ أَضَافُوا: «إنَّ أَعزّ المُنىَ لدينا، وَأَشدّ ما نَحرِص عليهِ هُو الحِفاظ على قَوانِينِنَا...وفضْلاً عن هذا فإنَّ تجْنِيسنا الإجْبَارِي العام وبِدُون قيد ولا شرط، سَوف يفضي إلى التَّخلي عن عَوائِدِنا، وسوف يُفسد أَخْلاَقنا»[16].

ومع مطلع سنة 1900 واصل الجزائريون رَفضهُم للتّجنُّس، حتَى مِن طرف بعض عَناصر النُّخبة، والشَّاهد في ذلك الخِطاب الذي أَلْقاهُ بن شُعيب أبو بكر عبد السَّلام، أمام المُؤْتمر العالمي لِعلْم الاجتماع الاستِعماري المنعقد بباريس سنة 1900: «إنّ عامة الأهالي الجزائريين هيَ بعيدةً كل البُعد من أنْ تَستحِق شَرف الإدْماج، فهذا الإدْماج الذي يُضفي صِفة المُواطنة الفرنسية لعامة من النَّاس جَاهِلةً، هي ليست أَهلا لَهُ وإنَّ دُخُولها في الوطن الفرنسي لن يَكُون بالنسبة لنا بِدون خطر وحتَّى مثارا للسُخرِية»[17]، ثُمَّ سُرعان ما راح يَستعرض نتائج هذا التَّجنُس الوخيمة على المُجتمع الجزائري: «ونُريد هُنا أنْ نَستعرِض على الخُصُوص النَّتائج التي سَتُسفِر عن تَجَنُّس الأهَالي المُسلمِين الجزائريين بالجِنسية الفِرنسية من وُجهة النَّظر الإسْلامِية»[18]، لكِنَّهُ لم يحدّد مَوقف الفقه الإسلامي من التّجنُّس.

ثُمَّ ينتقل إلى شرح مفهُوم التجنس حسب وُجهة نَظرِه: « يُمكن تعريف التَّجنُس بِكونهِ تخلّي الفرد تَخلِيًا كاملاً عن قوانِينِه وعاداتِه التي تتعارض مع قوانين البلد الذي أصبحَ مُواطِنا فيهِ والوُقوع مُستقبلاً تحت طائلة القَوانين المَدنية والسّياسية لهذا البلد...إنَّ التَّخلي عن القواعد التي تتعلق بالمِيراث أو بِنظام الأُسرة أو بِالبَيّنات والأدلة الشَّرعية التي هيَ الأخرى أُصولاً اعتقاديه، ولن نَخشى القول وبِكُل صراحةٍ، بأنَّ التَّجنُس بهذاَ المفهُوم سَيُسيء إلى الأغلبية السّاحقة من سُكان الجزائر المُسلمين وسَيجعلهم يَستبدلُون الحُب العَميق الذي في قُلوبِهم لِفرنسا بِمشاعر أَقل انقيادا»[19].

وعندما بدأت بَوادر الحرب العالمية الأولى تَلُوح في الأُفق أصدرت فِرنسا قانون التَّجنيد الإجباري سنة 1912، الذي وجد تَجَاوُبًا من طرف حركة الشَّاب الجزائري، ورأت فيه فُرصة سانحة لِمُساومة فرنسا في الحصول على الجِنسية مُقابل التَّجنيد، ومِمَّا جاء على لِسان قَادتِها بِهذا الخُصُوص: « يَسرُنا أنْ نَمْتثِل لِضريبة الدَّم، ولكننا نُطالب فقط نظير ذلك الحقَّ في الجِنسيةِ الفِرنسية»[20]، غير أنَّ رئيس الحكومة الفرنسية قد خيّب أمل هذه النُّخبة عِندما استقبل مُمثّلِيها بباريس، وصرَّح أمامهم بالقَول: «

يُمكِنكُم أن تَعودُوا إلى بلدكم وكُونُوا على ثِقة من أنَّ فِرنسا تُرحِّب بما تَعْتبرُونه ترضيات مَشروعات، وما نَعْتبِرهُ تَعويضات عادلة عن الالتزامات الجديدة المَفرُوضة عليكُم»[21].

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى جاءت إصلاحات فيفري 1919 مُخيِّبة لآمالهم، ووصل الأمر بالحاكم العام "جان بابتيست آبل" إلى درجة مُعاتبة الشُّبان على إظهارِهم لِمثْل هذا النَّهم السِّياسي الذي لا يشبع[22]. وفي نفس الوقت طلب من مُمثِّلي العَرب فيِ المَندُوبيَات المالية التّصريح بما يلي: « نُريد أن يعلم النَّاس في فرنسا وفي البَرلمَان الفِرَنسي أنَّ الوقت لَمْ يَحِن لِكي يَطلُب إِخوانَنَا فيِ الدِّين أن يَكُونُوا مُواطِنين فِرنسيين، إنَّهُم ما زالوا، وسوف يَظلُّون رَعايا مُخلِصين لِوطَنِهم المُختار، وعلىَ اسْتِعداد لِبذل دِمائَهم في سَبيلِه والإسهَام في قُوتِه وعَظمَتِه»[23].

لقد ولّدت هذه التَّصريحات مُعارضة قوية في أوساط المُعمّرين الذين انقَسمُوا علىَ أَنْفُسهِم بين مُؤيِّد ومُعارض لتجْنيس الجزائريين، بحيث يرى البعض أن إدخال إصلاحات لِصالح الأهَالي مِن شَأنِه أنْ يُبقيِ على المشروع الفرنسي في الجزائر، ومن بين الذين انتصَرُوا لِهذهِ الفكرة "شارل جيد" رئيس الإتحاد الفرنسي الأهلي الذي اقترح: « خلق أُمة جزائرية مُكوَّنة من المَجموعتين: الجزائرية والفرنسية، كما اقترح تَوسيع القَاعدَة الانتخابية والتّجنيس بين الجزائريين، وأَنْذر مُواطنِيهِ بأَنَّهُم إذا لم يُدخِلُوا إصلاحات هامة، فقد يأتي يَوم تُصبح فيه السُّلالة المقْهُورة قادرة على استرجاع أرضها الوطنية وإعلان الحُكم الذَّاتي السِّياسيِ»[24].

وخلال عِشرينيات القرن المَاضيِ عرفت عملية التَّجنيس صَدى إعلامي كبير، عبر الصُّحف التابعة لفئة النُّخبة، التي انقسمت على نَفسها إلى قسمين: قِسم مُؤَيِّد للتَجنيس بنفس الشُّروط الفرنسية بزعامة كل من: الدكتور ابن التوهامي، فرحات عباس، والشّريف بن حبيلس..الخ، وقسم آخر يقبل بالتجنيس مع المُحافظة على الأحوال الشّخصية بزعامة الأمير خالد الذي راح يُندِّد بالتَّجنيس الكُلِّي في صحيفة الإقدام، وفي نفس الوقت نشطت جرائد وصُحف أُخرى خارج هذين التّيارين تَنْبُذ التَّجنِيس، مثل جريدة المُنتقد والشِّهاب بقلم الشّيخ عبد الحميد بن باديس[25]، ومن بين الشَّخصيات الإصلاحية التي ندَّدت بالتّجنيس وحذّرت منه الأستاذ أحمد توفيق المدني خلال وُجُودِه بتونس[26]. وقبل الانتقال إلى العُنصر المُوالي بِودِّنا طرح السُّؤال التَّالي: إلى أيِّ مدى نجحت سياسة التّجنيس في الجزائر خلال هذه المرحلة؟ يُمكننا الإجَابة عن هذا السُّؤال من خلال الإحصائيات التّالية:

الإحصائيات	السنوات	عدد المُتجنِّسين	فارق السنوات	المُتجنِّسين/ الشهر
إحصائية رقم 1[27].	1865-1875	371	10 سنوات	37

إحصائية رقم 2[28].	1919-1865	1725	51 سنة	33
إحصائية رقم 3[29].	1927-1865	2147	62 سنة	34

ما يُمكن مُلاحظته هو التّباين في الإحصائيات، لكنها تكاد تتفق على استقرار عدد المُتجنِّسين شهريا في حدود 35 شخص، ولا تتجاوز في مُجملها 2000 مُتجنِّسا، وعلى الرغم من ذلك فهذا العدد ضعيف جدا مقارنة بفارق السنوات وعدد السكان المقدر 4923.000 نسمة سنة1921[30]، وعلى الرّغم من ذلك لم يَفقِد المُتجنِّسون الأمل في نجاح مشروع التّجنُّس، حيث سجّلنا ارتفاعًا طفيفا في عددهم، وهذا ما يُبرِزه الجدول التالي[31].

السنة	عدد المتجنسين	السنة	عدد المتجنسين	السنة	عدد المتجنسين
1920	17	1924	29	1928	38
1922	56	1926	67	1930	152

2-السِّياق التَّاريخي لِفتوى جمعية العُلماء المُسلمين الجَزائِريين: شَهِد مطلع عام 1930 احْتفالات فِرنسا الصَّاخبة بمُناسبة مُرور مائة سنة على احتلال الجزائر، ولهذا بذلت قُصارىَ جُهدِها لتَجنيِس الجزائريين، كَما نشطت النُّخبة المُتطرفة بِدورِها في تحقيق هذا المشروع، ومُقابل ذلك تطوّرت رُدُود الفِعل المُناهضة للتجنيس والمُتجنِّسين، من طرف العُلماء، فهذا توفيق المدني نجده يكتب مقالا في جريدة الإصلاح يوم 27 فيفري 1930 تحت عنوان: "بين الموت والحياة". هاجم فيه المُتجنِّسين وحذِّر من خطر التَّجنُّس على المجتمع الجزائري، لكنّه لم يُعطِ للمسألة بُعدها الفِقهيِ.

وممَّا جاء في مقاله: «إننا الآن في مُنعطف صعب من تاريخ حياتنا القومية...طريقان قد فُتحا في وجه الجزائر الفتاة...أما الطريق الأول فهو طريق التّجنس...ودُعاة هذا الطريق يَبُثُّون دعوتهم بجد ونشاط، يكتُبون ويخطُبون وينشرون...وأمّا الطّريق الثاني فهو طريق المحافظة على الذاتية الجزائرية...فأي الطّريقين يجب أن تسلك الجزائر وهي في فجر نهضتها الحديثة؟ أقول بكل صراحة ولا أخشى أي اعتراض: إن الطريق الثاني طريق المحافظة المتينة على الذاتية الإسلامية العربية هو وحده الذي يمكن أن يوصل الجزائر إلى غاية محمودة وإلى مركز شريف»[32].

ويُساند المدني المُناضل المغربي أحمد بلافريج رئيس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، الذي طالب بالتّصويت ضد الطلبة الجزائريين المُتجنِّسين، في انتخابات 28 فيفري 1930، ومبررّه: «المُتجنس يتجرد من إسلاميته بحكم تنازله عن قوانيننا، إن ديننا ليس مجرد نطق بالشهادتين فحسب، بل هو أيضا إيديولوجية مجتمعية، فلا يكفي إذن أن يحتفظ المتجنس بعقيدته لكي يبقى مسلما كاملا إذا تخلى بمحض إرادته عن القوانين الخاصة بالإسلام»[33].

وبناءً عليه كثر الحديث عن التّجنس وشاع أمره في الثلاثينيات وارتقى الباعث عليه من مصلحة الشّخص إلى منفعة الجنس، واشتدت رغبة المُثقفين ثقافة فرنسية في مشاركة الفرنسيين في الحقوق وآيسوا من أيّ وسيلة لهم غير وسيلة التَّجنُّس[34]، رغم تصريح زعيمهم رابح زناتي يوم 04 /1930/09 الذي اعترف فيه بخيبة فكرة التَّجنُّس، وأكَّد رفض المجتمع الفرنسي لهم "بسبب التمييز العنصري"، ولَعنهم من طرف الجزائريين بِكونِهم طبقة خارج المُجتمع[35].

وعلى الرّغم من ذلك فإنّه لم ينقطع عن دعوته للتَّجنُّس، وهكذا دخلت صحيفة الإصلاح برئاسة الأستاذ الشّيخ الطّيب العُقبي ميدان هذه القضية: «وظّنّ الطُرقيون أنه يميل إلى التَّجنُّس، وأن بقية العُلماء على هذا الميل حتى أُشيع لمّا أُسِّست جمعية العلماء أنها إنما أُسِّست لفتح هذا الباب، وقوى ذلك الظّن السّيئ في نفوس طائفة أن العلماء يُفرّقون بين التَّجنُّس والمُتجنِّس، فتراهم يعاملون المُتجنِّس مُعاملة إنسانية ويُعاشرُونه مُعاشرة احسانية ولا يَستَنْكِفون من مجالسته ولا من مشاركته في عمل الصالح العام، فيظن البُسطاء ذلك ميلا من العلماء إلى التَّجنُّس، ونتج عن ذلك الظن أمران فاسدان أحدهما التساهل في التجنس والأخر القدح في العلماء»[36]، ومن هنا كانت الضرورة داعية إلى إبداء جمعية العلماء ما تعلمه من حكم الله في التَّجنُّس حتى لا يغتر بسكوتها الراغبون فيه ولا تبقى شبهة لمن يرميها بالرضى عنه، ولقد التمس العقبي في الأخير من العلماء: الإبراهيمي، ابن باديس، الميلي، القول الفصل في مسألة التَّجنُّس[37].

في ظل تنامي هذه الظاهرة والنّشاط المُستمر لدعاة الاندماج والتّجنّس التي غذّتها الاحتفالات المئوية، ونشاط الطُّرقيين والبِدْعيين الذي ينخر المجتمع الجزائري، لم يكن هُناك بُدا أمام العلماء في الجزائر سوى الدَّعوة إلى تأسيس جمعية خاصة بهم، وهذا ما تَجسَّد في الاجتماع الذي انعقد بنادي التَّرقي بالجزائر العاصمة يوم 05 ماي 1931، وضمَّ 72 عالما من عُلماء القطر الجزائري[38]، اجتماعا أثمر بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن بين أهدافها الرّئيسية المُسطَّرة مُحاربة سياسة التّجنيس والإدماج[39]، ومن مظاهر الصِّراع بين العُلماء والإدماجيين: ردّ الشّيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان فاصلاً وقاصمًا بقصيدته المُدوّية: شَعبُ الجزائر، والتي مطلعها:

شَعْبُ الجَزائِر مُسلِـم ۞ وإلـَى العُرُوبَـة يَنتـسِب

مَنْ قَال حادَ عنْ أَصْلهِ ۞ أَو قَـال مَات فَقد كَـذَب

أَو رَامَ اِدْمَـاجًا لَـهُ ۞ فَقَدْ رَامَ المُحالَ مِن الطَّلَب

لم يبق دُعاة التّجنُّس مكتُوفي الأيدِي أمام نشاط العُلماء، ومن بين المُتجنِّسين الذين استَفزُوا العُلماء بتصريحاتهم الشّريف بن حبيلس في تفسيره الدِّيني للتّجنُّس: «التّجنس فعل تقبله مبدئيا جميع النُّخب التي تعتقد أن الشعور الديني مجرد قناعة شخصية، فالتخلي عن الأحوال الشخصية في نظره لا يتناقض مع غايات الدين الإسلامي»[40]، ويُشاطره فرحات عباس من خلال ما جاء في كتابه الشّاب الجزائري –أصدره سنة1931–حول التّجنُّس: « لكن كيف هو هذا التَّجنيس؟ إنَّ الجزائر فرنسية، ونحن فرنسيون...فالتَّجنيس الفردي في هذه الحال لا يوجد له مبرر، إذ لماذا يتجنَّس الجزائري؟ لكي يكُون فرنسيًا، إنَّهُ فِرنسي، حيث أن بلده أرض فرنسية»[41]، ويقول في موضع آخر: « لا شيء في قرآننا يمنع جزائريا مُسلما أن يكون من حيثُ الجنسية فِرنسيًا، وإنما المانع هو الاستعمار»[42].

ولقد ذهب إلى حدّ التّطرف من خلال مقاله: "فرنسا هي أنا"، المنشور بجريدة التفاهم يوم 1936/02/24: «ولو كنت اكتشفت الأمّة الجزائرية لكنتُ وطنيا...فالرجال الذين ماتوا من أجل المثل الوطني، هم يوميا مكرمون ومبجلون ومحترمون، وليست حياتي أهم من حياتهم، ومع ذلك سوف لن أموت من أجل الوطن الجزائري، لأن هذا الوطن غير موجود...وقد سألت التاريخ، وسألت الأحياء والأموات، وزرت المقابر، ولم يكلمني أحد عنه»[43].

فردّ عليه ابن باديس في مقال مُطوّل عنوانه كلمة صريحة نقتطف منه: « إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي بعيدة كل البعد عن فرنسا، في لغتها وفي أخلاقها، وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين، هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة»[44]، وهكذا بدأ الصِّراع يتصاعد بين العُلماء والمُتجنِّسين، الذين عرفوا نوعا من التّزايد، عكس ما كانوا عليه خلال مرحلة العشرينات، والشّاهد في ذلك المُعطيات التّالية[45]، ولكن تبدو العملية ضعيفة جدا مقارنة مع عدد السكان الذي وصل حوالي ستة ملايين نسمة سنة 1936[46].

السنة	عدد المُتجنِّسين	السنة	عدد المُتجنِّسين	السنة	عدد المتجنسين
1932	127	1934	155	1936	142

وقبل ظُهور فتوى الجمعية في التّجنُّس، بدأت المسألة تأخذ بُعدها الفقهي كنازلة من النوازل الفقهية، وهذا من خلال مقال الشّيخ الطّيب العُقبي، الذي قال بِتحريم التّجنُّس ووجوب التّوبة مِنهُ: «التّجنس–بمعناه المعروف في شمال إفريقيا– حرام، والإقدام عليه غير جائز بوجه من الوجوه، ومن استحل استبدال حكم واحد من أوضاع البشر وقوانينهم بحكم من أحكام الشّرع الإسلامي فهو كافر مرتد

عن دينه بإجماع المُسلمين، لا يرجع إلى دائرة الإسلام وحضيرة الشّرع الشّريف حتى يرفض رفضا باتا كل حُكم وكل شريعة تُخالف حُكم الله وشرعه المُستبين، وفي حال رُجُوعِه وتَوبَتِه توبةً نَصوحًا صادقة من كل جوارحه وكُل قلبه يُقبل مِنهُ إسلامه كغيره من أهل الملل الأخرى إذا هُم أَسلمُوا وتَنفعه هذه التَّوبة عند اللهَ، لأن باب التَّوبة الذي أغلقته "فرانسا" بِقوانينها الوضعية في وُجوه المُتجنِّسين لم يَغلقه رَبّنا الرّحمان الرّحيم الرّؤوف الكريم في وُجُوههِم، وهو لا يزال مَفتُوحًا في وجه كل أحد حتّى تطلع الشَّمس من مَغرِبهَا"[47].

ثُم يُواصل مقاله إلى أن يَقُول: « هذا ما أعتقِدُه في جانب رحمة الله الواسعة وأفهمه من أحكام دينه التي لا اختلاف ولا تناقض فيها، ذلك الدّين السّمح لذي (كذا) أنا "مُبشر به" وداع إليه...وهو عين ما قُلتُه وصَرَّحتُ به في مناسبات كثيرة ولا أزال أَقُول به وأُخالِف كل من يَقُول بعدم قُبول توبة المُتجنِّسين حتىّ في حال نَدمِهم ورُجوُعهِم إلى دين الإسلام واعتقادهم أنَّ أحكامه هي الحَق الذي جاء من عند الله وأن كل حكم يُخالِفها فهو باطل»[48].

في ظل هذه الظُّروف اجتمع العُلماء للنَّظر في مُعالجة هذا الدّاء قبل أن يستفحل، في ظل الأسئلة الفِقهية التي باتت تَرِد على عُلماء الجمعية من داخل الجزائر ومن خارجها –تونس–حول التّجنس، فشمَّروا على سواعد الجد، وكثّفوا من نشاطاتهم ومشاوراتهم حول هذا الموضوع الذي اعتبروه نازلة من النوازل الفقهية التي لا ينبغي السُّكوت عليها، وعليه ففي خلال اجتماع المجلس العام للجمعية المنعقد في 06 شوال 1354هـ/ 01 جانفي 1936م، خرجوا بما يلي: « فإنّنا قد خَصَّصْنا له بعد اليوم [أي الإفتاء] قِسمًا في الجريدة وعَهدنا مُؤقتا إلى لَجنة نَأْتمِنُها على الفَتوى في دينِ الله بِرئاسة الأستاذ الشَّيخ "أبي يعلى الزواوي"...وسيكون الجواب عن كل استفتاء وكل سُؤال في الدِّين يَرِدُ على البصائر من قِبل هذه اللَّجنة إلى حِين تُعيِّن جمعية العُلماء من ناحيتها بصفة باتة (كذا) من يتولى ذلك»[49].

وفي اجتماعها السادس العام المُنعقد في 20 رجب 1356هـ/ 24 سبتمبر 1937، تمّ خلاله تقسيم المجلس الإداري للجمعية إلى أربعة لجان، منها لجنة الإفتاء، التي تشكّلت من: العربي التّبِسي رئيسًا، وبعضوية كل من: مبارك الميلي، والشّيخ البشير الإبراهيمي، وعلي الخيّار[50]، كما تمّ تحديد مهام لجنة الإفتاء في بيان حكم الله في المسائل التي تحتاج إلى الإفتاء، وتكون هذه اللجنة مُستندة في ذلك إلى أصول التّشريع الإسلامي[51].

وبالنّظر إلى تاريخ الفتوى المُؤرخة حسب جريدة البصائر يوم الأربعاء 10 جمادى الثانية 1356هـ/ الموافق لـ 18 أوت 1937م، ومُقارنة مع تاريخ تشكيل لجنة الإفتاء الذي جاء بعد هذا التاريخ بـ37 يوما، يُمكِننا القول وحسب ما ورد في نص سُؤال الفَتوى المُذيّل بتوقيع العربي التبسي: إنّ عُلماء

الجمعية قد كَلّفُوا الشّيخ عبد الحميد بن باديس بتحرير هذه الفتوى قبل تأسيس لجنة الإفتاء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فعندما نُقارن تاريخ تحرير الفتوى وتاريخ صُدورها في جريدة البصائر، نقف على فارق زمني قدره حوالي خمسة أشهر، وهذا ما يَجعلُنا نَطرح السُّؤال التَّالي: لماذا تأخَّرت جمعية العُلماء في الإعلان عن الفتوى بجريدة البصائر كُل هذه المُدّة؟.

لا شك أن هناك عوامل حالت دون نشر الفتوى في جريدة البصائر بعد الانتهاء منها مباشرة، فمنها ما يتعلق بوضعية الجمعية وبالأوضاع التي كانت تمر بها، في علاقاتها مع الإدارة الفرنسية، من جهة، وفي علاقاتها ببعض المُتجنسين من جهة أخرى، كفرحات عباس الذي قام بزيارة مقر جريدة البصائر والتقى بالشيخ عبد الحميد بن باديس، وأبدى له نوعا من الليونة والصِّراع النفسي الذي كان يعيشه بعد نشره لمقال إنكار الوطن الجزائري، فطَمْأنهُ ابن باديس ورأى فيه ملامح التّغير الفكري لصالح القضية الجزائرية، وكتب يُشيد بهذا التّقارب بين العلماء وفرحات عباس.

3-فتوىَ جمعية العُلماء في التّجنُّس: جاءت في جزئين: تضمّن الجزء الأول الأحكام الفقهية وعددها أربعة، بينما تضّمن الجزء الثاني الإجابة عن هذه الأحكام:

-**<u>الجزء الأول:</u>** جاء هذا الجزء تحت عنوان: فتوىَ جمعية العُلماء في التّجنُّس الكُلّي والجُزئِي[52]، وتضمّن ما يلي:

1-حُكم الله في التّجنُّس والتّوبة منه.

2-حُكم الله في الوصية للورثة على يد الموثق المدني والتوبة منها.

3-حُكم الله في التّزوج بغير المسلمات والتّوبه منه.

4-حُكم الله في استئناف الأحكام الشّرعية للمحاكم المدنية والتّوبة منه.

أربع مسائل حدثت بحدوث استعباد بعض الشُّعوب الإسلامية يوم أن تسلّط الغرب القوي على الشّرق الضّعيف، وهذه المسائل أحدثها مُبتدِعُوها لإخراج المُسلمين من أحكام دينهم وإدماجهم في تلك الأُمم حتى يَكثُر سواد المُغير ويقل عدد المسلمين، فهؤلاء المبتدعون للتجنيس على علم بتلك الحقيقة الاجتماعية الدينية، "من كثر سواد قوم فهو منهم" فيكون التّجنيس غزوا للعقائد الإسلامية ومُحاولة لتكفير المُتجنِّس بطريق يستهوي الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة. وأنا أتحقق كما يتحقق كل عاقل أن هذه المكفرات لا يفعلها من ربي في أحضان الإسلام وأشرب قلبه حب ما جاء في كتاب الله، وإنما يرتكبها من أنشئ نشأة بعيدة عن الإسلام وتعاليمه، كما أتحقق أن كل تساهل يتساهله بعض المفتين الذين يعممون الجواب الفاحص عن السائلين في هذه المسائل، إنما يفعلون ذلك صيدا للوظائف أو استرضاء للسّلط، واني

لأعجب من أولئك المفترين الذين يفترون كذبا وزورا على إمام المصلحين المرحوم الشيخ محمد عبده ساعة ينقلون عنه أنه أفتى بحلية التجنس أو تساهل في ذلك، وهذا كلامه الصريح القاضي بردة المتجنس، المذكور في تفسير "المنار" سورة "النساء"..ألا فليكف أولئك الخراصون عن أقاويلهم الكاذبة وترهاتهم الزائفة وليعلموا أن (محمد عبده) لا يبيح لنفسه ولو أباحت له الأديان أن يقول بجواز مسخ الإنسانية لأن من المُباحات ما يتنزه عنه أولو المروءات وما التجنيس إلا نوع شنيع من المسخ أو المحق المبيد الذي يلحق الأمم أيام هرمها، ولنعد إلى سرد هذه المسائل التي ترجمنا لها وهي أربع:

المسألة الأولى: التجنس أي صيرورة المسلم من جنس غير المسلمين برفضه لأحكام الإسلام الالهية وإيثاره لأحكام وضعية بشرية حتى أنه يصير من يوم إمضائه للعقد القاضي بارتحاله من أسرة الإسلام إلى أسرة غيره–لا حق له في الإسلام وتشريعه ولا في تحليله وتحريمه، ولا في آدابه وتاريخه، ولا في أحسابه وأنسابه، لأنه تركها مختارا راغبا في سواها كارها لها، وأين ذلك من قوله عز وجل في كتابه المحكم "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك[53]" فهل ينطبق هذا التحكيم على المتجنس؟ اللّهم لا.

المسألة الثانية: استئناف الأحكام الشرعية التي يصدرها القضاة المسلمون تنفيذا للشريعة الإسلامية وأحكامها يستأنفها بعض من لا دين لهم رغبة في الدنيا وتنصلا من الأحكام الشرعية وجريا وراء مصلحة النفس.

المسألة الثالثة: قسمة بعض الناس أموالهم بوصايا، يجعلونها تنفذ بعد مماتهم، يعطون فيها من يشاءون من ورثتهم ويمنعون من يشاءون بحكم الهوى واعتقاد أن ما يفعلونه من هذه القسمة الجائرة عدل، وأن قضاء الله في المواريث جور، وما درى هؤلاء الضالون أنهم بفعلتهم تلك قد فروا من حكم الله إلى هوى نفوسهم. ومعلوم بالضرورة أن الوصية في هذا الباب باطلة شرعا محرم تنفيذها وكل مال أخذ عملا بها فهو حرام، آثم أخذه إثما لا يقل عن إثم صاحب الوصية.

المسألة الرابعة: التزوج بالأجنبيات عن الإسلام اللائي يعتبرهن قانون دولهن سيدات لأزواجهن قوامات عليهم، واللائي يقضي قانون دولهن على أزواجهن اثر وجود عقد النكاح بينهن وبين أزواجهن باندماج الزوج في أمة تلك المرأة ومغادرته للشريعة الإسلامية في كل ما لديه صلة بذلك الزواج، وأشنع من ذلك أن ذريته من تلك المرأة يصيرون تبعا لأمهم متجنسين تجنسا يقطع الصلة بينهم وبين الشريعة الإسلامية، فأنظر رعاك الله كيف يجني هذا الزوج على نفسه وعلى ذريته من بعده وعلى أمته الإسلامية.

فأنت ترى أن هاته المسائل المذكورة لا يأتيها من يؤمن بأن ما جاء به محمد حق. وقد كثر السؤال عنها وعن التوبة منها لمن أراد أن يتوب منها، وتساقطت رسائل الاستفتاء على لجنة الفتوى لجمعية العلماء

فكلفت اللجنة رئيس الجمعية بكتابة فتوى في المسائل الأربع وفي وجه الخروج منها لمن أراد التوبة والرجوع إلى دين الإسلام، ورغبت منه أن يختصر الفتوى بقدر الإمكان ويسهل عباراتها إن أراد، وبذلك تكون لجنة الفتوى قد بينت حكم الله في هذه المشكلات وبلغت ما أمر الله أن تبلغه في هذه المسائل المعلومة- من الدين بالضرورة والتي لو عقل أن يدخلها الخلاف والتأويل لما جاز أن يبقى في الإسلام أصل أو فرع لا يدخله الخلاف، وقد عرضت فتوى الأستاذ الرئيس على لجنة الإفتاء فأقرّتها ووافقت على ما فيها معتقدة أنه حكم الله الذي لا يقبل الله من العبد سواه. **رئيس لجنة الفتوى: العربي التبسي.**

-**<u>الجزء الثاني:</u>** تضمن نص الفتوى[54]: بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على محمد وآله: التجنس والتوبة منه.

التجنيس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة، ومن رفض حكما واحدا من أحكام الإسلام عُد مرتدا عن الإسلام بالإجماع، فالمُتجنس مرتد بالإجماع. والمتجنس -بحكم القانون الفرنسي- يجري تجنسه على نسله، فيكون قد جنى عليهم بإخراجهم من حظيرة الإسلام، وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، وإثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجا عن شريعة الإسلام بسبب جنايته. فإذا أراد المتجنس أن يتوب فلابد لتوبته من إقلاع، كما هو الشرط اللازم بالإجماع، في كل توبة، وإقلاعه لا يكون إلاّ برجوعه للشريعة الإسلامية ورفضه لغيرها. ولما كان القانون الفرنسي يبقي جاريا عليه رغم ما يقول هو في رجوعه، فإقلاعه لا يتحقق عندنا في ظاهر حاله، وهو الذي تجري عليه الأحكام بحسبه، إلا إذا فارق البلاد التي يأخذه فيها ذلك القانون إلى بلاد تجري عليه فيها الشريعة الإسلامية. قد يكون صادقا في ندمه فيما بينه وبين الله، ولكننا نحن في الظاهر الذي أمرنا باعتباره في إجراء الأحكام، لا يمكننا أن نصدقه وهو ما يزال ملابسا لما ارتد من أجله من أحكام تلك الجنسية، ولهذا لا تقبل توبته ولا تجري عليه أحكام المسلمين. والذي يقع عليه القضاء بحكم يتحقق أنه هو حكم الشريعة الإسلامية فيسعى في نقضه بحكم من غيرها، هو برفضه لذلك الحكم وطلبه لغيره مرتد عن الإسلام. وتوبة هذا بإقلاعه عن طلب الحكم الآخر أو بتنفيذه لحكم الإسلام إن كان غيره قد وقع.

ومن جعل (التّيسطاما)[55]وهي قسمة ماله بين من يشاء بعد موته على غير القسم الإسلامي رافضا للحكم الإسلامي..فهو مرتد عن الإسلام وتوبته بإبطال تلك (التيسطاما) ورجوعه إلى حكم الإسلام. ومن تزوج بامرأة من جنسية غير إسلامية فقد ورط نسله في الخروج من حظيرة الشريعة الإسلامية، فإن كان راضيا لهم ذلك ومختارا له على بقائهم في حظيرة الشريعة الإسلامية فهو مرتد عن الإسلام، جان عليهم، ظالم لهم، وإن كان غير راض لهم بذلك ولا مختارا لهم ذلك على شريعة الإسلام، وإنما غلبته شهوته على ذلك

الزواج، فهو آثم بجنايته عليهم وظلمه لهم، لا يخلصه من إثمه العظيم إلا إنقاذهم مما أوقعهم فيه بهجرته بهم...قاله وكتبه خادم العلم وأهله. عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قسنطينة 10 جمادى الثانية 1356هـ.

4-موقف الإدارة الفرنسية من الجمعية عقب إصدارها للفتوى: لم يهدأ بال السلطات الاستعمارية عقب صدور فتوى العلماء القائلة بتحريم التّجنس، فوجدت نفسها في مأزق كبير جدا، وما خططت له منذ حوالي 80 سنة ها هو يضمحل ويتلاشى، ولذلك لم يكن هناك بُدا من الانتقام من جمعية العلماء، ومن بين الإجراءات التي قامت بها في هذا الشأن:

أ-قرار وزير الداخلية الفرنسي "شوطان Chaudain" الصادر في 1938 القاضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر لا يجوز تعليمها في معاهد التعليم سواء كانت حكومية فرنسية أو شعبية حرة كمعاهد التعليم العالي العربي ((الحر)) إلاّ على هذا الأساس وبترخيص خاص من إدارة الاحتلال[56].

ب-سن قانون 08 /1938/03 القاضي بمنع التعليم العربي الحر، إلا بترخيص من السلطات الفرنسية، إلى جانب ضرورة توفر شرطيين أساسيين في المُدرِّس: الكفاءة العلمية، واللياقة البدنية، ثم صلاحية محل التعليم وتوفر الشروط الصحية فيه، كما قامت باضطهاد المُعلمين وقد حُكم على البعض منهم بالتغريم والحبس[57].

ج-تعميق حدة الخلاف بين العلماء، والمتجنِّسين، كما حاولت استغلال حادثة مقتل المفتي كحول التي أتهم بها الطّيب العُقبي للنّيل منه ومن العلماء، كونه قال بتحريم التّجنس، لكنهم تجاوزوا هذه العقبات بحكمة كبيرة.

5-مواقف الجزائريين من فتوى جمعية العلماء: جاءت مواقفهم حسب مبارك الميلي، مُتباينة على النحو التالي[58]:

1-المُستحسنون لها المَسرُورُون بها المُعجبون بإخلاص مُفتيها للدين وبشجاعتهم في إقدامهم على ما قد يغضب بعض أحبائهم أو يقوي غضب خصومهم، وهؤلاء هم جمهور المسلمين من كل عالم لا يبالي بالظروف السياسية أمام الحقائق الدينية، وكل أمي نشأ في الإسلام، وكل مثقف يعمل لخير الإسلام والعروبة.

2-ومنهم من تلقاها بالحذر والارتياب، وهم بعض مُتجنسي الجزائر الذين كانوا موالين للجمعية، ويرونها تتحد معهم في إنكار الخرافات ومحاربة الجمود، وتمد يدها إليهم في خدمة القضية الجزائرية ولكن هذه الفتوى عندهم تصورهم بصورة الكافر وتوجب التبري منهم والابتعاد عنهم، ونحن نقول -الميلي-لهذا

الفريق إن الفتوى دينية معناها أن المُتجنِّس إذا لم يتب يكون يوم القيامة من أهل النار، فمن كان منكم يؤمن باليوم الأخر فليحمد الله، أن علم حكم الله في هذا الأمر، ومن كان لا يؤمن باليوم الأخر فهو في نظر المسلمين كافر بدون هذا التجنس.

3-ومنهم من حمل عليها وعلى الجمعية من أجلها، ومقدم هذا الفريق "المسيو زناتي" الذي كتب مقالا في صوته صال فيه وجال وأرغى وأزبد وأبرق وأرعد، وحاول أن يكون في الجزائر شيخ إسلام، وقاضي محكمة نقض وإبرام، ويبرر الميلي موقف زناتي في كونه ليس غيرة على التجنس لأنه سبق له وأن أقر منذ ثماني سنوات بسوء مغبته، وإنما لأنه كان يجري على عادته في محاربة الإصلاح وكل ما فيه قوة للإسلام والقومية[59].

الخاتمة

من خلال ما سبق ذكره يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

1-فتوى جمعية العلماء كانت ضربة قاضية للتّجنُّس في الجزائر، حيث تراجعت نسبته بشكل ملحوظ، فخلال الفترة الممتدة من 1919-1933، بلغ عددهم 1432 متجنسا، بينما وصل عددهم من 1932 إلى 1936 حوالي 424 مُتجنِّسا، وخلال سنتي 1937-1938 بلغ عددهم 190 مُتجنسا[60]، وهو أقصى حد وصل إليه عدد المتجنسين، والذي يمكن اعتباره بمثابة الطلقة الأخيرة لهم في الجزائر، والتي جاءت كرد فعل انتقامي قامت به فرنسا ضد العلماء.

2-أحدثت فتوى العلماء شرخ كبير في أوساط المُتجنسين، حيث راح البعض يَلعَنُ في سِرِّية تامة هذا التَّوجُه الذي لم يُثمر إلاّ الخزي والعار، وما حدث بين فرحات عباس ورابح زناتي من شقاق، من خلال ردودهم ومهاتراتهم فيما بينهم لخير دليل على ذلك[61]، حيث لم تكد تمر خمس سنوات، عن فتوى العلماء حتى تراجع فرحات عباس وغيّر موقفه تماما من الأفكار المُتطرفة التي كان يؤمن بها، من خلال تأسيسه لحزب أحباب البيان والحرية سنة 1943.

3-لم تعالج الفتوى مسألة التجنس بمعزل عن مسألة الزواج بالأجنبيات، نظرا للعلاقة القائمة بين التَّجنس بالجنسية الفرنسية والزّواج بالأجنبيات، إذ لم نُسجِّل حُصول حالات من هذا النَّوع بعد صُدور فتوى العلماء.

4-لم تكتف فتوىَ العُلماء بتحريم التّجنُّس ووصف المُتجنِّسين بالمُرتدين عن الدين الإسلامي، بل قامت بتوضيح حُكم المرتد وما يترتب عليه، فالمُرتد عن دين الإسلام لا يَرث حسب المذاهب الأربعة، كما يُفسخ زواجه وتُقسم تركته، ولا يجوز دفنه في مقابر المسلمين[62]، ولقد امتنع الطّلبة في منطقة القبائل عن تلاوة

القرآن والقيام بصلاة الجنازة على الأموات من المتجنِّسين[63]، نظرا للأفكار التغريبية التي كان يُروِّج لها بعض المُتجنِّسين مثل بلقاسم إباعزيزن، وحنفي لهمك[64]، فتأثّروا لهذه المُقاطعة ورفعوا شكوى بهذا الخُصوص إلى الإدارة الفرنسية، يلتمسون منها التدخل لصالحهم، فقامت بالدعوة إلى عقد اجتماع لشيوخ الزوايا ببلدية مقلة (مقلع) تيزي وزو بحضور القاضي والوالي، أسفر عن: إقرار المُتجنِّسين بعدم استفادتهم من شيء ايجابي نظير التَّجنُّس، والتزام محند أوبلقاسم بالتنقل إليهم عند دفن موتاهم[65]، معنى ذلك أن هؤلاء المُتجنِّسين باتوا محاصرين من طرف الشّرع الإسلامي الذي يرفضهم والمجتمع الذي يمقتهم.

5-ترك العلماء باب الحوار مفتوح مع المُتجنسين: « وأخيرا يجب أن يفهم أن الجمعية تُفرّق بين التّجنس والمُتجنِّس، فالتَّجنُّس معنى مُنكر شرعًا، ليست له ناحية تُرضي، والمتجنس شخص فيه صفات مُرضية ومسخوطة، فإذا أتانا بجهته المرضية قبلناه وسررنا به وتركنا له حالته الشخصية، وإننا لنعلم أن الحياة لا تستقر إلا مع التسامح، والتجافي عن التعصب»[66]، نفهم من هذا الشق الدعوي في الفتوى، التي لم تكن تحمل طابع سياسي كما يرى البعض بِقدر ما كانت فتوى دينية شرعية، حددت من خلالها رأي الفقه الإسلامي في التجنُّس، وتركت نتائجها تُثمر مع مرور الوقت.

6-أثارت الفتوى ضجّة كبيرة في أوساط المُتجنسين بتونس، والشّاهد في ذلك رسالة ضيا نوري رئيس جمعية المُسلمين التُّونسيين المُتجنِّسين الراغبين في الرجوع للجنسية التونسية "الكاف"، التي أرسلها إلى ابن باديس، يُشيد فيها بالفتوى التي بيّن فيها حُكم الله تعالى، بعدما أحجم بعض عُلماء تونس الذين خنعوا للسلطة ورَضُوا بِحب الدُّنيا عن الآخرة[67].

ثم ينتقل إلى تقديم واجب الشُّكر بما وَضّحه ابن باديس في مسألتهم التي باتت «أعقد من ذنب الضّب لما أحدثته من المشاكل الدولية، في نظر المُستعمرين لأن باعترافهم بأحقية مطلبنا في الرجوع إلى جنسيتنا المحبوبة اعترافا منهم بوجود الجنسية التونسية وهذا ما لا يرضونه ولن يعترفوا به ما دام علماؤنا التونسيون في صمم عن إجابة سؤالاتنا...في إبداء حكم الله في مسألتنا وهم عنا لاهون وبوجودنا لا يشعرون»[68]. ونظرا لأهمية هذه الفتوى على مستوى تونس قامت مجلة الإرادة لسان الحزب الحر الدستوري بنشرها كاملة بعد صدورها مباشرة في جريدة البصائر[69].

الهوامش:

1-الجزائري، الأمير محمد: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربي، بيروت، ج1، 1384هـ/ 1964م، ص-ص316-317.

2-مناصرية، يوسف: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص41.

3-علي، مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر بحث في التاريخ الديني والاجتماعي من 1925-1940، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص491.

4-بوعزيز، يحي: كفاح الجزائر من خلال الوثائق، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص183.

5-المرجع نفسه، ص185.

6-المرجع نفسه، ص-ص196-198.

7-بوعزيز، يحي: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص80.

8-الميلي، محمد: الشيخ مبارك الميلي حياته العلمية ونضاله الوطني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص66.

9-المصدر نفسه، ص65.

10-أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ج2، ص167.

11-كاتب، كمال: أوربيون أهالي ويهود بالجزائر 1830-1962 تمثيل وحقائق السكان، ترجمة رمضان زبدي، تقديم بن يمين ستورا، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص230.

12- قاصري، محمد السعيد: "أبو حامد العربي المشرفي وتراثه المخطوط بالمغرب الأقصى"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع24، ذي الحجة 1428هـ/ ديسمبر 2007، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص250.

13-المنوني، محمد: "وثيقة عن المهاجرين التلمسانيين بفاس"، دعوة الحق، ع2، السنة العاشرة، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1380هـ/1966م، الرباط، المغرب، ص104.

14-الأشرف، مصطفى: الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص241.

15-المرجع نفسه، ص238.

16-المرجع نفسه، ص-ص238-239.

17-قنان، جمال: نصوص سياسية جزائرية في القرن 19 (1830-1914)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص268.

18-المرجع نفسه، ص269.

19-المرجع نفسه، ص-ص268-270.

20-حاجي، فريد: السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر 1837-1937، المُنطلق-السَّيرُورة-المَآل، دار الخلدونية، الجزائر، 1434هـ/2013م، ص406.

21-المرجع نفسه، ص406.

22- المرجع نفسه، 407.

23- المرجع نفسه، 407.

24- المرجع نفسه، 407.

25- بوعزيز، يحي: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ج2، ص317.

26- خليفي، عبد القادر: أحمد توفيق المدني النضال السياسي والإسهام الفكري في الساحتين الجزائرية والتونسية 1899-1983، دار المحابر، الجزائر، 2013، ص288.

27-آجرون، شارل روبير: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص62.

28- خليفي، عبد القادر: المرجع السابق، ص287. بلغت طلبات التجنس خلال هذه الفترة 2207 طلبا، رفض منها 482 طلبا.

29- كاتب، كمال: المرجع السابق، ص232.

30- أجرون، شارل روبير: المصدر السابق، ص103.

31- مراد، علي: المرجع السابق، ص492.

32-المدني، أحمد توفيق: حياة كفاح ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ج2، ص-ص161-162.

33- حاجي، فريد: المرجع السابق، ص410.

34- الميلي، مبارك بن محمد: "التجنس وفتوى جمعية العلماء في شأنه"، البصائر، ع100، السنة الثالثة 17 ذي الحجة 1356هـ/ 18 فيفري 1938م، ص1.

35- أبو القاسم، سعد الله: المرجع السابق، ص428.

36- الميلي، مبارك بن محمد: المصدر السابق، ص2.

37- مريوش، أحمد: الشيخ الطيب العقبي، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2006، ص366.

38- الشيخ خير الدين، محمد: مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دون تاريخ، ج1، ص106.

39- المصدر نفسه، ج1، ص350.

40- بريفيليي، غي: النخبة الجزائرية الفرانكفونية 1880-1962، ترجمة محمد حاج مسعود وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص408.

41- فرحات، عباس: الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم الشاب الجزائري 1930، ترجمة أحمد منّور، تقديم أبو القاسم سعد الله، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص99.

42- المصدر نفسه، ص133.

43- بوعزيز، يحي: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج2، المرجع السابق، ص326.

44- الميلي، محمد: المؤتمر الإسلامي الجزائري، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ص316.

45- مراد، علي: المرجع السابق، ص492.

46- الميلي، محمد: المرجع السابق، ص309.

47-الطيب، العقبي: "كلمتي الصريحة في التجنس والمُتجنِّسين"، البصائر، ع77، السنة الثانية، 21 جمادى الأولى 1356هـ/ 30 جويلية 1937م، ص1.

48- المصدر نفسه، ص1.

49-"الإفتاء في البصائر" البصائر، ع12، السنة الأولى، 04 محرم 1355هـ/ 27 مارس 1936م، ص5.

50- صديقي، بوبكر: البُعد المقاصدي في فتاوى أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، (دراسة من خلال جريدة البصائر 1935-1956)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية تخصص فقه وأصول، إشراف أ.د مسعود فلوسي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 1431-1432هـ/ 2010-2011م، ص53.

51- المرجع نفسه، ص57.

52-"فتوى جمعية العلماء في التّجنس الكُلّي والجُزئي"، البصائر، ع95، السنة الثالثة، 12 ذي القعدة 1356هـ/ 14 جانفي 1938م، ص-ص1-2.

53- قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لاَ يُومِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ سورة النساء الآية 65.

54- المصدر نفسه، ص2.

55-Testament " الوصية، وهي كلمة أجنبية، معناها وصية الهالك قبل موته.

56- تركي، رابح: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص130.

57- المرجع نفسه، ص176.

58-الميلي، مبارك بن محمد: "التّجنُّس وفتوى جمعية العلماء في شأنه"، البصائر، ع100، السنة الثالثة، 17 ذي الحجة 1356هـ/ 18 فيفري 1938م، ص2.

59-المصدر نفسه، ص2.

60-مراد، علي: المرجع السابق، ص492.

61- حاجي، فريد: المرجع السابق، ص-ص417-420.

62- الميلي، محمد: المرجع السابق، ص66.

63- المدني، أحمد توفيق: المصدر السابق، ص204.

64- بريفيليي، غي: المصدر السابق، ص-ص405-407.

65- حاجي، فريد: المرجع السابق، ص415.

66- الميلي، مبارك بن محمد: المصدر السابق، ص2.

67- ضيا، نوري: "رسالة من متجنسي تونس"، البصائر، ع100، السنة الثالثة، 17 ذي الحجة 1356هـ/ 18 فيفري 1938، ص5-6.

68- المصدر نفسه، ص5.

69-ع 266، السنة الخامسة، الخميس 18 ذي القعدة 1356هـ/ 20 جانفي 1938، ص2، ولقد وافانا مشكورا الأستاذ عبد الكامل عطية -أستاذ بجامعة الشهيد حمه لخضر بوادي سوف- بنسخة مُصورة من هذه المجلة عبر الإنترنت أثناء وجوده في رحلة علمية بتونس.

الشيخ الجنثوري ونوازله الفقهية

د. هرباش زاجية، جامعة معسكر، الجزائر

المقدمة:

التفتت الدراسات التاريخية في الفترة الأخيرة إلى مؤلفات النوازل الفقهية التي جمعت بين ثناياها معلومات هامة عن المجتمعات الإسلامية كشفت عن أوضاع اقتصادية واجتماعية كانت مجهولة وهي الميزة التي اصطبغت بها هذه النوازل التي عايشت معاناة المجتمعات بعيدا عن قصور الحكام، وحياتهم السياسية التي ارتبطت بها المؤلفات سابقا، وعرَّفت بالدور الذي لعبه مؤلفوها برصيدهم العلمي الذي أثرى الحياة الثقافية وقدم للناس الحلول الشرعية لمختلف المسائل التي اعترضت حياتهم بكل واقعية منها نوازل العلامة الجنثوري بإقليم توات.

1- النوازل وأهميتها:

النوازل هي جمع نازلة ومعناها لغويا هي المصيبة الشديدة[1]، وهي أيضا تلك الحوادث والوقائع التي تنزل بالناس يوميا فيتجهون بها إلى الفقهاء والقضاة ليقدموا لهم فيها حلولا شرعية يتم استخلاصها واستنباطها من النصوص الفقهية[2] و بذلك فهي فرع من الفروع الفقهية التي برع فيها الأندلسيون[3] والمغاربة[4] على حد السواء، ولقد استمر الأندلسيون في إصدارها إلى غاية سقوط غرناطة في سنة 898هـ /1492م[5].

تعددت تسمية كتب النوازل وكثرت التعاريف الخاصة بها في معظم المؤلفات التي شملتها وبرع فيها الفقهاء لتوضيح مختلف القضايا التي عرضت عليهم في مجال العبادات و المعاملات، فعرَّفت بالنوازل، والفتاوى[6]، والأجوبة[7]، والمسائل[8] والأحكام أيضا، وبمقارنة بسيطة لمضمون هذه المصطلحات مع محتويات الكتب التي تحمل مثل هذه العناوين فإنها تحتوي على نفس المعنى ولا يمكن التفريق بينها أي بين الفتاوى، أو الأجوبة، أو الأسئلة، أو الأحكام[9] وغيرها[10]، وإذا كان أهل المغرب والأندلس[11] قد انفردوا بهذا العلم لانتهاجهم للمذهب المالكي[12] وتأثرهم به، فأطلقوا عليه اسم النوازل أو الفتاوى، فإنَّ علماء المشرق أيضا اعتمدوه واستعملوا مصطلح الفتاوى دلالة عليه[13].

للنوازل أهمية بالغة في مختلف نواحي الحياة تكمن فيما يلي:

- تستمد النوازل أصولها من الشريعة الإسلامية وذلك بالرجوع إلى أمهات الكتب الفقهية[14]، مما يجعل أحكامها موافقة للشريعة وغير مخالفة لها فتُشعر الجميع بالاطمئنان عند تطبيقها من الجانبين، القضاة وعامة الناس في مجال الفرائض والعبادات[15]، كما هو الشأن أيضا في مجال المعاملات التجارية، الزراعية، الصناعية وكذلك في تحديد الملكية، وتقسيم المياه وغيرها.

- حلولها تكون آنية ومحلية أي مرتبطة بزمان ومكان معين وهذا يضفي على الشريعة الحركية والنشاط والاجتهاد المستمر، فيجعلها مواكبة لتطور الأحداث في كل الأزمنة، وينفي عنها صفة الجمود[16] مما يجعلها عملية، وواقعية لا تعتمد على التنظير والافتراضات فقط[17].

– تعتبر النوازل تطبيقا فعليا لفقه المذهب المالكي فأحكام الشريعة وجدت الميدان الذي تسايره بالتفات النوازل إلى الجانب الاجتماعي والاقتصادي والديني والثقافي[18] مما جعلها مصدرا هاما لمعرفة الواقع في جميع مجالاته.

–لم تكن النوازل متشددة في التعامل مع الوقائع التي حدثت في عصور متقدمة بل راعت أعراف الناس وعاداتهم وتقاليدهم بكل مرونة، ووقفت في وجه العوائد الفاسدة وصححتها بصورة قانونية وشرعية[19].

– تقدم النوازل وصفا للطبقات الاجتماعية المختلفة، وتتجاوز الطبقة الحاكمة التي شكلت المادة الدسمة للمؤرخين بصفة خاصة في مؤلفاتهم، ولذلك فلقد نزلت النوازل إلى الطبقات الدنيا للمجتمع من خماسين، وفلاحين، وغيرهم واهتمت بتفاصيل حياتهم من خلال أسئلتهم المطروحة والرد عليها[20].

– تشكل النوازل صورة واضحة عن الفكر الاقتصادي والسياسي و الثقافي، وتطلعنا على التراث الذي تعامل به أجدادنا في معاملاتهم، فالنصوص الضائعة وجدت بين ثنايا تلك النوازل[21]، التي مازال الكثير منها عبارة عن مخطوطات لم تشملها عمليات البحث للوصول إلى حقيقتها، وما تحتويه من كنوز هامة.

2– تطورها:

بداية النوازل كانت أندلسية بظهور نوازل ابن شبطون المتوفى سنة 193هـ / 808م، [22] ثم أعقبتها نوازل عيسى ابن دينار المتوفى سنة 212هـ / 827م[23]، ولم يقتصر فقه النوازل على منطقة الأندلس التي كانت السباقة إلى هذا المجال بل ظهر أيضا بالقيروان بإفريقية (تونس) على يدي العالم سحنون[24] بنوازله الفقهية[25].

تميزت هذه الفترة بنقل هذه النوازل عن طريق الرواية الشفوية التي لم يتسن لأصحابها تدوينها كما أن الجزء الذي تم تدوينه ضاع معظمه، يأتي بعدها العهد المرابطي الذي كان موحدا لبلاد المغرب لكن الفتاوى في زمنه كانت قليلة[26] شملت فتاوى ابن رشد[27]، ولم تسمح له الظروف السياسية بمواصلة تأليفها وذلك لظهور الدولة الموحدية التي سيطرت على بلاد المغرب والأندلس إلى غاية هزيمتها في معركة حصن العقاب سنة 609هـ/ 1212م لتتهاوى مدن الأندلس تباعا بعد ذلك ماعدا مملكة غرناطة[28] التي بقيت تصارع القوى النصرانية بمفردها مما جعل النوازل تتجه إلى الخوض في مثل هذه المسائل المحددة لعلاقة النصارى بالمسلمين[29] والتي كانت في حقيقتها علاقة غالب مُنتقم ومغلوب يائس.

بلاد المغرب بدورها ظهرت فيها الكثير من المؤلفات النوازلية التي اهتمت بالواقع المغربي الذي عاش وضعا سياسيا آخر بعد ضعف دولة الموحدين، أشهرها نوازل البرزلي[30]، و المازوني[31]، و الونشريسي[32]، والعلمي[33]، و التُسولي[34] وغيرهم واستمرت اصداراتها رغم الانقسامات السياسية التي شهدتها بلاد المغرب الإسلامي في الفترات التاريخية اللاحقة[35] والتي لم تقف في وجه نشاط علمائه الفقهي، فعرفت الجزائر الزيانية نوازل المازوني، و الونشريسي الذي نقل عن شيخه المازوني نوازل كثيرة، وشهدت تونس الحفصية نوازل البرزلي بقيمتها التاريخية.

لم يقتصر الأمر على هذه النوازل فقط بل لم ينقطع سيلها بتاتا فواصل الفقهاء تأليفها لما لها من أهمية في حياة المجتمعات لقربها منهم، وتقديمها لمختلف الحلول للمشاكل والمسائل التي تتعرض لها العامة من الناس منهم في جميع جوانب حياتها، فظهرت في الجزائر مجموعة كبيرة من الفتاوى والنوازل سواء كان ذلك في المناطق الشمالية التلية التي عرفت الكثير من العلماء كالمقري[36]، أو في الجنوبية التي شهدت الكثير من العلماء من بينهم العلامة الجنثوري الذي تتناول هذه الورقة جانبا من حياته وتلقي نظرة على نوازله.

حاول هؤلاء الفقهاء وغيرهم حل مشاكل مجتمعاتهم بفتاويهم ونوازلهم القائمة على المذهب المالكي، ولقد اختلفت مواضيع تلك الفتاوى حسب الأوضاع التي عايشها هؤلاء الفقهاء فكانت بحق مرآة عاكسة لتلك الأوضاع سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية والتي كانت قليلة مقارنة بمثيلتها في الناحيتين الاجتماعية و الاقتصادية، التي نالت حصة الأسد في طرحهم لارتباطها بقضايا المجتمع بالدرجة الأولى.

نوازل البرزلي على سبيل المثال التي عاصرت العهد الحفصي تعرضت للمشاكل التي عرفها مجتمعه لكنها لم تغفل عن الوضع في الأندلس كأهل الذمة في غرناطة، ونفس الأمر كان مع نوازل مازونة التي تعرضت للوضع في الجزائر، بجاية، تلمسان و تونس، وأبرزت دور المرابطين (الزوايا) في هذه الحقبة[37]، وعالجت نوازل الونشريسي من جهتها الأوضاع الاقتصادية و حتى السياسية بإدراج قضية يهود توات[38] ، أما التُسولي فلقد أفتى في أمر الجهاد عندما راسله الأمير عبد القادر في قضية تعاون البعض مع الفرنسيين حيث كانوا يُدلونهم على عورات المسلمين بالوطن الجزائري، فرد عليه بما يشفي الغليل في أجوبة مطولة[39].

يتبين من هذا العرض المختصر الدور المميز الذي لعبته النوازل في حل القضايا التي ظهرت في المجتمعات الإسلامية والتي تكيفت مع الأوضاع والمستجدات التي طرأت عليها، فلقد تغيرت أوضاعها من مجتمعات اضطلعت بنشر الإسلام في الفترات الأولى من ظهورها إلى مجتمعات أُخضعت لاستعمار جديد لم تتخلص منه إلا بعد تضحيات جسام، الشيء الذي لم تتمكن منه منطقة الأندلس الفردوس المفقود مهد العلوم وفقه النوازل، والتي أرست قواعد الفقه النوازلي وأصبحت مرجعية لمختلف المفتين في الأزمنة اللاحقة وفي مختلف الميادين.

3- التعريف بالشيخ الجنثوري:

هو الشيخ عبد الرحمن بن أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن علي الإنصالحي الجنثوري[40] الجراري، لا تشير المصادر المختلفة إلى تاريخ ميلاده(حيث عاش في القرن 12ه /18م ولكنها وصفته أحسن وصف فهو العالم الفقيه و:" ...أحد المجتهدين في عصره من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء كان ثقة صالحا، وكان عديم النظير في العلم على اختلاف فنونه متبحرا في معرفة أحكامه ومعانيه وعليه مدار الفتوى..."[41].

تتلمذ على يد شيخ المشايخ عمر بن عبد القادر التنلاني وتمكن من الجمع بين مختلف العلوم الشرعية والعقلية واللغوية [42]، تبحره في العلم سمح له بالريادة في هذا المجال الذي انتفع منه تلاميذه الكثيرون من أمثال الشريف محمد عبد العالي بن عبد الحكم، والفقيهين عبد الرحمن بن عمر التنلاني [43] و محمد عبد الجبار بن أحمد التنكرامي[44].

رحلته إلى مصر والحجاز ساهمت في إقدامه على رفع راية العلم في هذه المناطق التي ناظر فيها علماء القاهرة و بلاد الحجاز و ذكر تفوق علماء توات عن غيرهم بقوله : "...إني اختبرت علماء القاهرة والحرمين... ...فلم ألق فيهم من يصل إصبع رجل شيخنا أبي حفص إلا واحدا في علم الحديث..."[45] ولقد أجاز هذا العالم بإجازتين[46]، من مؤلفاته شرح على مختصر خليل من بداية الكتاب إلى باب النكاح أطلق عليها اسم معونة الغريم في بعض قضاء دين الغريم، وله تأليف في التصوف والنوازل المشهورة باسمه، توفي سنة 1160هـ/1747م [47] كنيته في النوازل ذكرت بأبي زيد[48].

ساهم الشيخ العلامة الجنثوري بإطلاعه الواسع و معرفته المتبحرة في مختلف العلوم في نشر العلم في إقليم توات[49] و خارجه، فتخرج على يده نخبة من الفقهاء الأجلاء حملوا لواء التعليم بعده،كما أنه ساهم أيضا في التعريف بإقليم توات خارج نطاق المغرب عند تنتقله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج أين ناظر علماء القاهرة و الحرمين، بعلمه الذي تلقاه في الجنوب الجزائري فأفحم هؤلاء العلماء الذين لم يصلوا على حد تعبيره إصبع رجل شيخه أبا حفص[50] وأجاز واحدا منهم لتضلعه في علم الحديث وغيره[51].

كان أول من قام بجمع النوازل وتصنيفها بإقليم توات [52]، التي تعرضت بكل وضوح لمختلف جوانب الحياة الاجتماعية و الاقتصادية، لم يكن يخشى في قول الحق في القضاء لومة لائم ويظهر ذلك جليا من خلال نوازله[53] التي أبدى فيها مواقفه من الحق دون خوف أو تردد حيال الضرائب التي فرضت على أهل الإقليم وعنف القضاة الذين ساندوا الجباة وافتروا على الله الكذب ففي رأيه أن الظلمة أقرب إلى رحمة الله إذا تابوا عكس من حكم بما حرم الله [54].

4- نماذج من نوازله:

أ- نوازل الأحباس:

منها على سبيل المثال وليس الحصر بعض النوازل الخاصة بالأحباس[55] كقسمة الجنان المحبس،[56] أو عمن حبس حبسا على أولاده الذكور دون الإناث[57]، واستغلال أراضي الحبس والتنازع عليها بين المُحبس عليهم،[58] أو فيمن حبس حبسا على أولاده وأعقابه ما تناسلوا وامتدت فروعهم ثم حاول بيع هذا الحبس[59].

بين في نوازل الأحباس الكثير من الحلول التي قدمها للمجتمع التواتي الذي كان يكثر من اللجوء إلى حبس أراضيه التي وردت بصيغة الجنان[60] سواء كانت عمرى[61] أو اعتصار[62] أو غيرها كمن مات في غيبته بعد تحبيسه لأصوله على أولاده، لكن أهم هذه النوازل المتعلقة بالأحباس هي إقدام بعض القضاة

على بيع أملاك الناس المحبسة[63] لدفع المغارم المخزنية والمطالب السلطانية [64] التي كانت مسلطة على رقاب أهل إقليم توات، واعتبرها من البلوى التي عمَت في بلاد توات وقورارة حيث سمح بعض قضاتها لأنفسهم ببيع أصول الهاربين في المغارم وصنفها في خانة بيع المضغوط الذي يكثر فيه الخلاف، مستندا إلى نوازل البرزلي[65] و نوازل مازونة[66] فذكر : "...أن بعض القضاة كان يرد عهم خوف الله من هذا المدخل وأنه قد كاد أن يركن إليهم شيئا قليلا لولا أنَّ الله منَ عليه بالعصمة وشككه في تمالوء قضاة الإقليمين في ذلك..." [67].

يشرح في فتواه تلك البلوى فيذكر أن القاضي هنا تنزَل في منزلة ربَ الشيء أو مالكه وأنَ هذا البيع هو بيع جبري باطل إجماعا لاسيما وأنه لم يُقبض فيه الثمن، وأن القاضي يحق له بيع ما لزم وليس فيما لا يلزمه محاولا تبينه قائلا : "...فإذا بطل لزومه بطل هذا المبنى من أصله وذلك أن مبنى كثير منهم على لزوم هذه المغارم فصاروا (أي القضاة)أعوانا للقواد بل قاض واحد أفضل لهم من ألف فارس لأن كثيرا من الناس يخافون من القاضي أكثر من القائد فقد كان العلماء هُداة فصاروا الآن حيرة وكانوا نورا فصاروا ظلمة وكانوا رحمة فعادوا نقمة ...فإنا لله وإنا إليه راجعون فقد صاروا عونا للظلمة فيما لا يجدوا له مستندا في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا إجماع ولا قياس بل محض تعد وعناء..." [68]مستشهدا بقول الشاطبي: [69]

قل للأمير نصيحةَ *** لا تركني إلى فقيه

إنَ الفقيه إذا أتـى *** لبوا بكُم لاخير فيه [70]

لهجته في هذه النازلة كانت قوية وشديدة تنتصر للحق وتمنع الباطل مؤكدة أن هذه الممارسات مآلها خراب البلد الذي يباع فيه مال الغائب، و اليتيم، و الأرامل، وبيع الحبس، والعمرى ارتكابا حسب تعبيره لأخف الضررين و يواصل فتواه بأن القضاة هنا لجأوا إلى القياس لكنهم أتوا القياس من غير بابه لأنهم لم يتقنوا شروط القياس الواجبة، ولا أبواب العلم اللازمة بل هو تخبط عشوائي معللا ذلك بأدلة من علماء المالكية في الأندلس و المغرب [71]، كفتاوى البرزلي، وابن مرزوق و المازوني مستنتجا ضرورة إبطال لزوم تلك المغارم التي هي على الصفة المقررة في بلدنا حسب تعبيره[72] (أي توات) وبيان صفة ما يلزم لقول الله تعالى :" وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ"[73] وقوله صلى الله عليه وسلم :" لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس" [74].

يستشهد في هذا المقام أيضا بقول الإمام النووي في توضيحه لبطلان تلك المغارم ومواجهة هذا الأخير للسلطان الظاهر بيبرس [75] في الفتوى التي أغضبت الحاكم، وأخرجت الإمام من دمشق[76]، ويدحض الأقوال المؤيدة لها من نوازل مازونة [77] و الإمام سحنون [78] ويرى أن بيع مال الهاربين الذي أقره القاضي باعتباره مصلحة للباقين حرام لأنه يُعجل بخراب البلد، فالهروب لم يكن إراديا بل كانت له أسبابه فمنهم من هرب خوفا على نفسه من القتل، أو الضرب، أو التطويف به في الأسواق، ومنهم من فرَ خوفا من أن

تُزاد عليه مظلمة أو يُقبض عليه بتهمة غيره، ومنهم من هرب خوفا من فقره إذا بقي حيث ستُباع أملاكه بأرخص الأثمان [79].

يُشدد الجنثوري على القضاة الذين شاركوا في إصدار مثل هذه الأحكام الجائرة لصالح المخزن ويُخوفهم بعقاب الله تعالى قائلا: "... وقضاتنا إذا أخذ البريء بجريرة غيره صاروا لأخذه أعوانا وكفى المرء ظلما أن يكون عونا للظلمة، والظلمة أقرب إلى رحمة الله من هؤلاء وذلك أنَّ الظلمة علموا أنهم ظلموا فاعترفوا بذنوبهم ولعلهم يتوبون أو تنكسر قلوبهم وقد قال أنا عند المُنكسرة قلوبهم من أجلي وأما من حكم بمُحرم ونسبه إلى الله فكيف يعتذر وهو ينسبه إلى الله تعالى و رسوله، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا إلا إذا كان يعتقد أنه جائر في حكمه فحينئذ يقولون على الله الكذب وهم يعلمون و الكذب على الله ورسوله من الكبائر وكذلك الكذب على العلماء..." [80].

يصف الجنثوري في نوازله الظلم الذي تعرض له أهل إقليم توات فيقول : " ...فإن ما يجري عندنا فإن القائد يقطع نخل الهارب ويهدم دياره، ويأكل كل ما ظهر من أمواله ومع هذا لم يعذره قضاتنا..." [81] ويصل بعد جدال طويل إلى فساد البيع الذي تم إمضاؤه ، و ظلم تلك المغارم للرعية، ولقد ساهم القضاة بأحكامهم في تكريس هذه المظالم لإمضائهم لها، ويدين مثل تلك التصرفات مشيرا إلى حرمة مال أحد ما مقابل نجاة مال آخر، فتلك المغارم الجائرة تُعرض من رفضها إلى عقوبات قاسية تُهدم على إثرها داره وتُنهب أمتعته وتُقطع نخيله، ودفعها هو استخلاص واستنقاذ له من هذا المآل الذي لا تحمد عقباه [82].

ب- تعقب حكم القاضي لإبطاله:

النازلة في أصلها مشاجرة بين خصمين حاول فيها أحدهما تعقب حكم القاضي وفسخ تصيير جنان في النازلة لعدم يمين القضاء وغيره، فأفتى فيه الجنثوري مشيرا لعدم توفق القاضي في حكمه لأنه خرج فيه عن سبيل القصد، فنبهه على ذلك و بين له مواقع الخطأ وأشار له إلى مسالك الحق الواجب اتباعها ولتجتنب الباطل وقد كان القاضي قد سأله عن النازلة [83] ليسترشد منه لكنه لم يستمع لتنبيهه لأن الشيطان نفخ في أذنه وأبى أن يرجع عن حكمه حسب قوله، وكان قبل ذلك على غير هذه الحال لكن القلوب بيد الله يقلبها حيث يشاء.

محصلة هذا الحكم الذي حكم به القاضيان عبد القادر و عبد الله الزبير تبين بطلانه لأنهما حكما فيه جورا لم يثبت لتعمدهما الباطل وقد يكونا خرجا عن سبيل القصد لاحتمال الجهل و الغلط، لذا فكيف يترك هذا الاحتمال ويحكم عليهما بالجور ويشير إلى أن تعمد الباطل بعد العلم غير جائز مع ضرورة مراعاة عامل الجهل والغلط الذي لا يسلم منه بشر بعد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ولقد تتبع الناقض الحكم الصادر فصلا بفصل من أجل إعلان الحق الذي لا يجوز كتمانه، لكن القاضيين الذين حكما في المسألة توفيا وقد صرحا أنهما أثبتا الموجبات الشرعية في المسألة السابقة التي تتعلق ببيع ما لا يوظف[84] كالنخل.

الوظيف المخزني حسبه صفته معلومة حتى لدى الصبيان فهو مفروض على الماء، في حين كان القضاة في توات يبيعون غير الموظف في الموظف من غير الماء فأفرغوا جنات الناس وباعوا النخل والماء والديار وغير ذلك[85]، وعليه فهؤلاء القضاة يجب أن يفرقوا بين الوجهين فإما أن ينقضوا الجميع أو يتركوا الجميع، فسكوتهم عن الخوض في هذه المسألة كان مرده إلى تجنب اثارة الفتنة في البلد ويعود ذلك حسب النازلة إلى أحكام البرزلي التي ترجح عدم التعرض لأحكام أهل الجور وتركها خوفا من كثرة الفتنة بين الناس[86].

يناقش نازلة المشاجرة السابقة بفصولها ويقلبها من كل الجهات والجوانب و يذكر أن الاستشارة فيها طلبت منه متأخرة أي بعد صدور الحكم فيها والذي لا يتوافق مع فتواه التي نبَه من خلالها القاضي على الأخطاء التي ارتكبها ونصحه بالرجوع إلى نصوص العلماء [87].

الفتوى قدمها للقاضي ولصاحب النقض على حد السواء ولقد آثر هذا الأخير الصلح في المسألة عكس القاضي الذي تعصب لرأيه مدفوعا بكتابات بعض الناس له و الذين غرروه فلم تؤثر فيه نصيحة أصوات الحق التي جسدها الشيخ الجنثوري بقوله:"... ثم لما صح عندي هذا تفكرت فيما يلزمني وينجيني من الله عز وجل فعلمت أنه لا ينجيني إلا الصدع بالحق الذي عَلمنيه الله... ومنه من اثم من كتم أو خاف في الله لومة لائم مع ما حصل من اليأس من الرجوع للحق وصمم من صمم على الباطل...وتلك من لم ينصف من القضاة قديما... ولقد كنت قبل الآن ذكرت لبعض القضاة أنه أخطأ وبينت ذالك فصمم فعجبت من ذالك حتى وقفت على أنَّ هذه سنتهم قديما..." [88].

حاول الجنثوري قدر الامكان تنبيه القاضي إلى أخطائه، بل ذهب إلى الأكثر من ذلك معلنا أنه إذا ثبت الغلط فيما ذهب إليه في تلك الفتوى فإنه مستعد لإشهار غلطته أمام الناس ليسمعها الحاضر والبادي وهي لا تنقص من قيمته وقدره أبدا بل ترفعها عند الله تعالى فمن طلب رضى الله بسخط الناس كفاه الله ضرهم تأسيا بالعالم القدوة سلطان العلماء العز بن عبد السلام[89] الذي... أفتى بشيء فعله و قد غاب عنه المستفتي ولم يعرفه فنادى في أسواق مصر من أفتاه ابن عبد السلام فليتبد فإنه أخطأ..." [90].

هذا الموقف يُظهر قوة شخصية هذا القاضي الذي يُضرب به المثل في الذود عن الحق وإنصاف أصحاب الحقوق ولو على نفسه لا يمنعه الحياء في قضية فصل فيها أن يراجعها [91]، فمن تبع فتواه فلقد اتبع دين الله وشرعه و لم يتبع عبد الرحمن بن ابراهيم حسب قوله [92]، ليواصل الخوض في تلك الفتوى الطويلة التي جار فيها القاضي وهو أمر مهول لأنه إن كان عنده باطلا فلمَ أمضاه وإن كان حقا فلم رجع عنه لأن العاقل هو الذي يرجع من الباطل إلى الحق وليس العكس كما هو الشأن في هذه النازلة.

يؤكد في هذه الفتوى على إقامة الحق بصورة عادلة فيقام الحد على الضعاف كما يقام على الأشراف بتخصيصهم عن غيرهم[93]، وطلب من السيد سماحي صاحب النازلة أن يقدم المستندات التي يحوزها حتى تمكنه من إبطال الفتوى فإن ظهر بطلانها أبطل فتواه وعرضها على العلماء ليبينوا طريق الحق بالعلم الذي لا يشبع منه بتواضعه الذي يجعل من علمه شيخا وسيدا له مهما كانت مكانته لأنه أنقذه من

النار[94] دامغا في فتواه حكم القاضيين بالحجج والأدلة التي تُدينهما في هذه النازلة، مشيرا إلى صحة النصوص التي اعتمد عليها في الحكم لكنها لم تستغل في موضعها الصحيح، مبينا:" ...أن مسائل الفقه كلها كليات و الصور النازلة في الوجود جزئيات ولا يعلم أنَّ الجزئيات النازلة من جملة جزئيات الكلية الفقهية..." [95].

ج- نوازل البيوع:

نوازل الجنثوري التي وقفت إلى جانب الحق بقوة هذا العالم الفذ والقاضي العدل نظرت إلى قضايا البيوع التي شملت بيع الأراضي(الجنان) [96] بيع النخيل [97]، الجمال كالذي اشترى جملا من ذوي منيع بتافيلالت وقدم به إلى تيميمون ليختلف مع البائع لكونه سُرق منه[98]، وبيع أمة مغشوشة ظهرت عيوبها بوفاتها بعد أسبوعين فقط من شرائها[99] فحددت هل الوفاة عادت إلى العيوب أم غير ذلك باعتبار أن منطقة توات كانت مركزا تجاريا معروفا في تجارة العبيد التي خصها الفقهاء بفتاوى مشهورة عرفت بقضية الرقيق المجلوبين من السودان[100].

قضايا البيوع لم تشمل فقد الشراء والبيع بل نظرت إلى بعض الممارسات العرفية في البيوع و أنكرتها كقوله: "... والعُرف عندهم بمنزلة الشاهد إذا وقع الإنكار من أحدهم على رب الدفتر والزمام..."[101]،مؤكدا وجود زمام أو سجل تسجل فيه الكباش المشتراة في خطوة لتنظيم سوق الماشية لأهميتها [102].

وصفت نوازله أيضا الصراعات التي قامت بين قبائل الخنافسة وذوي منيع التي تميزت بالنهب و السلب، وأكل مال الغير، وهي النوازل التي استند إليها البلبالي في نوازل الغنية : "...فيمن اشترى جملا من ذوي منيع في تافيلالت وقدم به إلى تيميمون أين تعَرف عليه صاحبه من الخنافسة وطلبه ..." [103].

كانت نوازل الجنثوري إحدى المصادر المهمة التي ارتكزت عليها نوازل الغنية في إصدار الأحكام عن النوازل[104] و المسائل التي طرحت عليهم، وساهمت في حل هذه المسائل برجاحة عقل هؤلاء العلماء الذين تركوا لنا تراثا زاخرا يدل على باعهم الطويل في مجال الفقه، وعلى مكانتهم العلمية داخل القطر الجزائري و خارجه، وهي تحتاج إلى الالتفاتة للحفاظ عليها والنهل من علومها والاستفادة منها.

نوازل الجنثوري القليلة التي تمَ الحصول عليها مهمة جدا في التعريف بالقضايا التي اعترضت المجتمع التواتي في مختلف ميادين حياته الاقتصادية والاجتماعية أرخت لحقبة زمنية محددة يجب أخذ مناهلها بعين الاعتبار فرغم قلتها تطرقت لبعض المشاكل السياسية التي ذكرت في نوازله التي بين أيدينا عن الصراع الدائر بين قبائل الخنافسة العربية وذوي منيع[105] أو في تلك التي نقلها عنه غيره وشكلت مرجعية لهم[106].

ساعدت تلك النوازل بغزارتها العلمية التي تميز بها العلامة الجنثوري وبالحجج الدامغة التي حوتها مصدرا هاما للفتاوى في المذهب المالكي بالجنوب الجزائري من جهة ووسيلة لمعرفة طرق المناقشة المثمرة التي توصل أصحابها إلى الاقناع بالفكر و العلم وليس بالعنف والدم.

الوقوف إلى جانب الحق مهما كانت الظروف والدفاع عن المظلومين بعدالة القضاء لأنه أساس الملك ولقد قدم نماذج عن ذلك في نوازله التي عنفت القضاة و نبهتهم إلى الحق ورفع المظالم. قول الصدق ولو على نفسه والتواضع طلبا للعلم في أي موضع كان فهو القائل أنا لا نشبع من العلم ومن أفادنا بعلمه فهو شيخنا وسيدنا كائن من كان لأنه ينجيه من النار مما يبين أسس التعلم النافعة، كما أنه سعى إلى الاعتراف بالخطأ إذا عرفه دون أن يحط ذلك من قدره بل اعتبره رفعة تأسيا بالعلماء المسلمين الذين أشرقت صفحات تاريخنا الاسلامي بنور علمهم وسمو أخلاقهم[107].

بينت أن صحة أقوال الفقهاء المعتمدة في حل المسائل لا تعني شيئا إذا لم تستغل في أماكنها الصحيحة[108] وأكد في بعض فتاويه أنه استحسن حكم أحد القضاة لكنه في نفس الوقت استهجن استعمال لفظ "أصل الأحباس حرام " الذي جرى عمل القضاة به واستحسنوه لأن ذلك لا أساس له لا في كتاب الله و لا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا في إجماع المسلمين و هذا لا يصح في مذهب أهل السنة إذ لا حَسن إلا ما استحسنه الشرع [109].

تشكل هذه الورقة المتواضعة قطرة في محيط الوطن الجزائري الذي يزخر بكنوز عظيمة لم نصل بعد إلى معرفة قيمتها الحقيقة والمبعثرة في خزائن مخطوطات كثيرة والتي بإمكانها إماطة اللثام عن عظماء هذا الوطن الذين دافعوا بالقلم والدم عنه في كل فتراته التاريخية المضيئة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الهوامش:

[1] المنجد في اللغة و الأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان،1997، ط 36، ص 802.

[2] العبادي بن أحمد، فقه النوازل في سوس، قضايا وأعلام من القرن 9 إلى نهاية القرن 14هـ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ط1، ص 53. بن عبد الله، معلمة الفقه المالكي، ط1، دار الغرب الإسلامي ، 1983، ص325.

[3] آخر كتاب ألف في الأندلس هو نوازل ابن طركاط " الحديقة النضرة". القاضي عياض وولده محمد، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق وتعليق، محمد ابن شريفة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1997، ص 11.

[4] استمرت إصدارات النوازل في المغرب مثل نوازل الرهوني في المغرب إلى سنة 1373هـ / 1953م وفي الجزائر، نوازل الغنية 1261هـ / 1845م. ونوازل الشيخ باي الكنتي 1282 هـ / 1865م . العبادي، المرجع السابق، ص ص 44، 45. حوتية محمد، توات و الأزواد، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر والتوزيع و الترجمة، ج1، ص ص 336،338.

[5] القاضي عياض، المصدر السابق، ص 11.

[6] و رد ذكر الفتاوى في القرآن الكريم:" :"يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(43)" سورة يوسف الآية 43. أما عن تعريف الفتوى فهي إبانة الأمر أو الإخبار بحكم شرعي يتعلق بالعبادات أو قواعد الأخلاق ولقد أدرج البرزلي في مقدمة... ...فتاويه تعريف الفتوى وضبط أحكامها وربطها بالنوازل. البرزلي، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002، ج 1، ص ص 62، 99. عمر الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ، الرباط،

المغرب 1987، ص ص 96، 103. إدريس كرم، العلاقات الاجتماعية من خلال النوازل الفقهية بالمغرب، ط 1، مطبعة فضالة، المغرب، 2005، ص ص19،22.

[7] الأجوبة: وأحيانا الجوابات: وهي الرد على الأسئلة المطروحة أو المرفوعة إلى القضاة وذلك في صيغة و أجاب، أو الجواب مثل أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي أو أجوبة التسولي. عن الأجوبة ذكر التليلي تعريفها في مقدمة فتاوى ابن رشد. ابن رشد، فتاوى ابن رشد، تحقيق وتعليق وتقديم المختار ابن الطاهر التليلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، السفر الأول، ص 37.

[8] المسائل: وهي الأسئلة التي وردت على الفقهاء وأجابوا عنها وبها وردت في كتبهم كأسئلة فلان أو مسائل فلان، ومنها مسائل ابن رشد. ابن رشد، مسائل أبي الوليد بن رشد الجد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1992، م 1، ص 125. العبادي، المرجع السابق، ص 56.

[9] الأحكام: كأحكام القاضي عياض وأحكام ابن سهل. ابن سهل، كتاب النوازل والأعلام المسمى ديوان الأحكام الكبرى، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، ص ص 11، 17. القاضي عياض، المصدر السابق، ص 11.

[10] وردت عند جاك بيرك بالفتاوى، الأحكام، النوازل، الأجوبة .ابن رشد ، المصدر السابق، السفر 1، ص ص 35، 37.

– Berque(J), les Nawâzil El Muzâraā, du Miyâr Alwazzâni, Etudes et traduction, ed Félix Moncho Rabat, 1940, p13.

[11] أول تأليف لفتاوى مالك هي للفقيه أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون توفي سنة 193هـ / 808م. ابن القاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقا ت المالكية، تخريج و تعليق عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003، م1، ص 94.

[12] يرى ابن خلدون أن أهل المغرب والأندلس اختصوا بمذهب الإمام مالك لأن سفرهم كان إلى الحجاز، والمدينة كانت دار علم، ولم تكن العراق في طريقهم، وأيضا حسب رأيه لبداوة أهل المغرب والأندلس التي تتوافق وبداوة أهل الحجاز. وقد اعتبر بعض الباحثين ذلك تجنيا على البربر. ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1999، ص 420. عمر الجيدي، المرجع السابق، ص ص 36، 37.

[13] العبادي، المرجع السابق، ص 52.

[14] المرجع نفسه، ص 58. عبد العزيز خلوف، المرجع السابق، ص 78.

[15] عبد الله معصر، "النوازل الاقتصادية بالمغرب الإسلامي"، المصباحية، ع 5 سلسلة العلوم الإنسانية، مطبعة ساسي، المغرب، 2001، ص 89. العبادي ،المرجع السابق، ص 58.

[16] شملت نوازل البرزلي و الونشريسي فقه المعاملات وخصصت لها حيزا كبيرا. البرزلي: المصدر السابق ، ج3، ص ص 152، 466. الونشريسي، المعيار، المصدر السابق ،ج5، ص 6 . محمد لمراني علوي، قضايا الماء في بلاد المغرب الأقصى من خلال كتب النوازل الفقهية، المعيار للونشريسي كنموذج، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1999، ص ص 47، 63.

[17] مقدمة كتاب المعيار قدمت عرضا للنوازل والتي تختلف أساسا عن الافتراضات، ودفعت إلى الاجتهاد. الونشريسي، المصدر السابق، ج1، محمد المختار ولد السعد، الفتاوى و التاريخ، دراسة المظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا. من خلال فقه النوازل، ط1، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 13.

[18] عبد الحي العمري، عبد الكريم مراد، نوازل الشفعة وفقا للمذهب المالكي وما جرى به العمل في المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2003، ط1، ص21. العبادي، المرجع السابق، ص 58.

[19] عبد الحي العمروي ، المرجع السابق، ص 21. حوتية، توات، ج1، المرجع السابق، ص 326. إدريس كرم، المرجع السابق، ص 29.

[20] العمروي، المرجع السابق، ص 21. محمد المختار، المرجع السابق، ص ص 54، 55. عبد الله معصر، المرجع السابق، ص ص 97، 99.

[21] العمروي، المرجع نفسه، ص21. محمد المختار، المرجع نفسه، ص 11.

[22] ابن القاسم مخلوف ، المرجع السابق، ج1، ص 94.

[23] عيسى بن دينار: هو أبو محمد عيسى بن دينار ن توفي في سنة 212هـ / 827م، كانت الفتيا تدور عليه في الأندلس ولا يوجد من هو أفقه منه نقل عنه ابن سهل.و العلمي، له 20 كتابا في سماع ابن القاسم، ألف في الفقه كتاب الهدية. المرجع نفسه، ص 95.

[24] سحنون : هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي القيرواني، قاضي القيروان، فقيها، عالما زاهدا لايهاب سلطانه، ولد بالقيروان في 160هـ /776م وتولى قضاءها في 234هـ/848م . روى المدونة عن ابن القاسم. القاضي عياض، ترتيب المدارك لمعرفة أعيان مذهب مالك، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب،(د ت)، ج4، ص 45. حمدي عبد المنعم شلبي، دليل السالك للمصطلحات والأسماء في الإمام مالك، دار النصر للطباعة الإسلامية، مكتبة ابن سينا للنشر، القاهرة، (د ت)، ص 126.

[25] وردت نوازل سحنون عند ابن سهل في أكثر من مرة مثلا ص 96، 302، 576. وذكر العبادي أنه عثر على 18 ورقة سميت بأجوبة سحنون تحتوي على 55 مسألة فقهية كتزكية الشاهد، وعيوب الدواب. ابن سهل ، المصدر السابق، ص 96، 302، 576. العبادي، المرجع السابق، ص 63.

[26] يذكر ولد السعد وجود فتاوى لعبد الله بن ياسين نقلا عن القاضي عياض بأن فتواه كان يضرب بها المثل. محمد المختار ولد السعد، المرجع السابق، ص ص 41، 42.

[27] فتاوى ابن رشد، ومسائل الجد التي نشرت. ابن رشد ، فتاوى، المصدر السابق، السفر 1، ص 37 وما بعدها-- مسائل الوليد ابن رشد، المصدر السابق، م1، ص 125 وما بعدها. محمد المغراوي، مسائل العملة والصرف والأسعار في العصر المرابطي من خلال فتاوى ابن رشد، التاريخ وأدب النوازل، ط1، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1995، ص ص 59، 69.

[28] مملكة غرناطة: أدى فيها بنو الأحمر الدور الأساسي ابتداء من سنة 635هـ، 1237م على يد محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي، وهي التي بقيت تصارع النصارى إلى غاية 897هـ/1492م .عصام محمد شبارو، الأندلس من الفتح الغربي المرصود إلى الفردوس المفقود 91هـ - 897هـ/ 710م-1492م، ط1، دار النهضة العربية، لبنان،2002 ،ص ص284،285.

[29] نوازل البرزلي تحدثت عن حال جزيرة الأندلس واكتناف أهل الحرب لهم ودور أهل الذمة الذين كانوا يدلون النصارى على عورات المسلمين خاصة ذمة غرناطة وذكر أن السنة منعت استعبادهم لكنها لم تمنع إجلاءهم كما فعل عمر بن الخطاب (رض) مع اليهود. البرزلي، المصدر السابق، ج1، ص 14.

[30] البرزلي: هو أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي، اشتهر بالبرزلي ولد في القيروان سنة 738هـ/1337م، وتوفي في سنة 841هـ/1438م بعد عمر طويل أنهاه وهو كفيف لكنه لم يتوقف عن التأليف يعد من كبار فقهاء المالكية تتلمذ على يد شيخه ابن عرفة المشهور، أشهر مؤلفاته كتابه جامع مسائل الأحكام الذي عرف بفتاوى البرزلي. المصدر نفسه، ج1، ص ص5، 46.

[31] نوازل مازونة: نسبة إلى أبي زكريا يحي المغيلي المازوني عنونها بالدرر المكنونة في نوازل مازونة شملتها دراسات كثيرة توفي في سنة 883هـ/1478م. الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، طبعة جديدة ، وزارة الثقافة، 2007، ج1، ص ص 220،221.

[32] نوازله قيمة أدرج فيها قضية المغيلي مع يهود توات وهي من القضايا المستحدثة في هذه الفترة التي صاحبت طرد المسلمين من الأندلس بعد سقوط غرناطة وقضية هدم الكنائس وتحدثت عن الأندلس المهددة من قبل المسيحيين وافتداء الأسرى المسيحيين وفائدة ذلك التي تعود باستنقاذ أسرى المسلمين من أيدي الكفار. الونشريسي، المعيار، المصدر السابق ،ج2،ص ص 181،182، ص ص 214،219.

[33] العلمي: علي بن عيسى بن علي الحسني العلمي الشفشاوني. توفي في سنة 1127هـ/1714م له نوازل قيمة عرفت باسمه. ابن القاسم مخلوف، المرجع السابق، ج2، ص 485. العبادي، المرجع السابق، ص 89.

[34] التسولي: هو أبو الحسن علي بن عبد السلام بن علي التسولي، ولد بتسول إحدى المدن المغربية في أواخر القرن 12 و أوائل القرن 13هـ/19م وتوفي في سنة 1253هـ/1842م، له مؤلفات عديدة منها التي ارتبطت بالأجوبة على أسئلة الأمير عبد القادر. التسولي، أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد. دراسة وتحقيق عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص ص36،39.

[35] هو ظهور الدولة العثمانية وتغير الأحداث ببلاد المغرب عموما.

[36] المقري، هو أحمد المقري بن محمد بن يحيى أبو العباس المعروف بالمقري 986 – 1041هـ / 1578 – 1631م مؤرخ، أديب، مفسر، طفقت شهرته المغرب والمشرق والسودان أهم مؤلفاته، نفح الطيب، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض وله فتاوى في تناول الدخان. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، طبعة جديدة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دار الثقافة، لبنان، 1982، ج3،ص148،144. عمار هلال، العلماء الجزائريون في فاس فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين، فاس وإفريقيا، العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية، ط 1، نشر معهد لدراسات الإفريقية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس، 1996، ص ص 63، 64.

[37] المازوني،الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق مختار حساني، مراجعة مالك كرشوش الزواوي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع،6 أجزاء.

[38] الونشريسي، المعيار، المصدر السابق، ج 2، ص ص 214، 219.

[39] التسولي، المصدر السابق ، ص ص 102، 127.

[40] منطقة جنثور:جنوب غرب تيميمون على مسافة 67 كلم. وهي لفظة بربرية تعني باللغة العربية البنت الشابة، الصديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 هـ إلى 14هـ / 17 إلى 20م، ط1، مديرية الثقافة لولاية أدرار، 2003 ، ص ص 63، 64.

[41] عبد القادر بن عمر التنلاني، الدرة الفاخرة في ذكر المشائخ التواتية، خزانة كوسام، الورقة 18.

[42] عبد القادر بن عمر التنلاني، المصدر السابق، الورقة 18.

[43] الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني: توفي في سنة 1233هـ/1817م بمصر التي دفن بها من مؤلفاته مختصر السمين في إعراب القرآن الكريم. عبد الحميد بكري، النبذة في تاريخ توات و أعلامها ، من القرن9هـ إلى14 هـ، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران،2007، ص 115.

44 نفسه، ص 126.

45 باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، دار هومه، ج 2، ص ص 570، 571.

46 نفسه، ص 571.

47 الجنثوري، نوازل الجنثوري،نسخة كوسام ، الورقة 01.عبد الحميد بكري، المرجع السابق، ص 126. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص 67. باي بلعالم، قبلية فلان في الماضي و الحاضر وما لها من العلوم والمعرفة والمآثر، دار هومه، الجزائر، ص ص 312، 313.

[48] الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص 65.

[49] للتعريف بالإقليم المتكون من توات، قورارة، تديكلت.محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و19م، دراسة أوضاع الإقليم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1977، ص 1. عبد الكريم عوفي ،" مراكز المخطوطات في الجنوب الجزائري، إقليم توات نموذجا"، آفاق الثقافة والتراث، ع 34 جويلية 2001، إصدار دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة و التراث، ص 114.

[50] أبوحفص: يقصد به الشيخ عمر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التنلاني المتوفى في سنة 1152هـ/ 1739م له تقايد في المختصر و ترجيحات في النحو والفقه. عبد القادر بن عمر ، الدرة الفاخرة الورقة 01. عبد الحميد البكري ،المرجع السابق، ص 107.

[51] باي بلعالم ،الرحلة ، المرجع السابق، ج2، ص570.

[52] محمد دباغ، درسات في التراث ودار الغرب للنشر و التوزيع ،2007، ص129.

[53] تحصلت على نوازله من ثلاثة أماكن هي خزانة كوسام التي نسخها السيد الطيب شاري، وخزانة المطارفة بأدرار و بعض الأوراق من سطيف (السيد بوكراع) لكن للأسف فإن المخطوط لم يكن كاملا و لقد حاولت دمج المعلومات المتوفرة منها، كوسام 20 ورقة، المطارفة 12 ورقة ، سطيف 31 ورقة. وهي كلها مبتورة في بدايتها رقمت حسب تسلسل متنها.

[54] الجنثوري، نوازل الجنثوري، نسخة كوسام ، الورقة 14.

[55] كثرت الأحباس بصور مختلفة في إقليم توات. هرباش زاجية، الوضع الاقتصادي في إقليم توات من خلال مخطوط الغنية، في القرنين 12و13 الهجريين 18و19 الميلاديين، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، السنة الجامعية،2011-2012،ص ص100، 114. الجنثوري، المصدر السابق، نسخة سطيف، الورقة 22.

[56] نفسه، الورقة 22.

[57] نفسه، الورقة 24.

[58] نفسه، الورقة 25.

[59] نفسه، الورقة28.

[60] نفسه ، ورقات28،25،22.

[61] العمرى: إعطاء أرض أو دار أو إبل مدى حياة الموهوب له فإن مات رجعت إلى صاحبها بقوله هي عمرى أو عمرك فإذا مت رجعت إلي. الإمام مسلم، صحيح مسلم، اعتناء محمد بن عياد عبد الحليم، ط1، مطابع دار التراث الحديثة، مصر، 2004،ج2، ص 153. الزرقاني، شرح الزرقاني، دار الفكر،لبنان، بيروت، ج 4، ص 48. الدردير، أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك، دار الفكر للطاعة والنشر، ص 160. الجنثوري، المصدر السابق ، الورقة21.

[62] الاعتصار: من تصدق على ابنه الصغير ثم رجع فيها دون عوض ولقد أجاز الإمام مالك للوالد اعتصار ما حبسه وذكر القيرواني أن الاعتصار للصغير والكبير، ولا يجوز اعتصار اليتيم. مالك بن أنس، المدونة، المدونة الكبرى مع تعليقات مقدمات ابن رشد، تحقيق أبو مالك كمال بن سالم المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر،(د ت)، ج6، ص ص143،145 . أبي زيد القيرواني، رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومعها إيضاح المعاني على رسالة القيرواني، ص ص160،161. الجنثوري، المصدر السابق، نسخة سطيف، الورقة26.

[63] يمنع بيع الوقف عند جمهور المالكية واختلفوا في بعض الأمور فالمساجد لا يجوز بيعها ولو خربت. أما الحيوان والعروض فاختلف فيها كالحيوان والثوب، أما ابن الماجشون فقال لا يباع أصلا. ولقد اعتبره الجنثوري معصية لله. الجنثوري ، المصدر السابق، نسخة سطيف، الورقة27.ابن المبارك،مسائل في أحكام الشرعية أو عمدة الحكام وخلاصة الأحكام في فصل الخصام تعليق، محمد موهوب بن أحمد بن حسين، دار الهدى، الجزائر،(د ت)، ص ص 95، 96. مناصرة، الفقه المالكي و أدلته في فقه المعاملات، الأحكام المالية، دار الهدى للطباعة و النشر، الجزائر، ص 307.

[64] الجنثوري، المصدر السابق، الورقة31.

[65] نفسه، خزانة كوسام ،الورقة 01 .البرزلي، فتاوى،ج3،ص ص47،45.

[66] نفسه، الورقة 02.

[67] الإقليمين هما توات و قورارة. نفسه، الورقة01.

[68] نفسه، الورقة03.

[69] الإمام الشاطبي: هو عبد الرحمن بن يعقوب الخزرجي الأنصاري الشاطبي القاضي الفقيه كان عالما بالعربية والأصول له شرح الجزولية ولي قضاء بجاية فأحسن القيام بما تولاه، وطلب للمبايعة في واقعة ابن مزين فرفض حتى لا يفسد دينه .أحمد بابا التنبكتي ، التنبكتي،كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج من تراجم المالكية، تعليق أبو يحي عبد الله الكندري، ط1،دار ابن حزم للطباعة و النشر، 2001، ص ص296،295.

[70] الجنثوري، المصدر السابق، الورقة 03.

[71] نفسه،الورقة04.

[72] نفسه، الورقة 01.

[73] سورة البقرة، الآية رقم 188.

[74] الدارقطيني، سنن الدارقطني ،ح 2886، تحقيق الأرناؤوط، ط1، مؤسسة بيروت،2004 ، ج 3، ص 424.الجنثوري، المصدر السابق، الورقة 07.

[75] الظاهر بيبرس : هو الملك الظاهر بيبرس أبو الفتح الصالحي البندقداري كان من المماليك ،تولى لسلطة سنة 658هـ / 1260م. شهد عهده إبطال المظالم و استرجاع المناطق الإسلامية وتعميرها هو من أقر الخلفاء العباسيين بمصر بعدسقوط الخلافة في العراق توفي سنة 676هـ / 1278م . السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ج2 ، ص ص 83،75.

[76] رفض الإمام النووي أخذ مال المسلمين لمحاربة النصارى مما أغضب الظاهر فأخرجه من البلد لكنه تراجع برأي الفقهاء لمكانته في دمشق وماله من تأثير في أوساط أهلها لكن الإمام رفض و لم يعد إلى دمشق إلا بعد وفاة بيبرس. السيوطي، المصدر السابق، ص 82.

[77] عمن أودع عند رجل وديعة نوازل الودائع. المازوني ، المصدر السابق ،ج 3، ص ص 339، 340.

[78] الجنثوري، المصدر السابق ، الورقة 12.

[79] نفسه، الورقة 12.

[80] نفسه ، الورقة 14.

[81] نفسه، الورقة 15.

[82] نفسه، الورقة 16.

[83] السائل القاضي عبد القادر السماحي. نفسه،الورقة رقم14.

[84] تفرض عليه الوظائف المخزنية التي فرضها المخزن المغربي على أهالي إقليم توات. نفسه، الورقة 14. هرباش: المرجع السابق، ص 334. ...

-Martin Quatre Siècles D'histoire Marocaine Au Sahara de 1504 à 1902 au Maroc de ... 1892 à 1912 Librairie Félix Aclan, paris, 1923, Pp 60, 178.

[85] الجنثوري، المصدر السابق ،الورقة 14.

[86] نفسه، الورقة15.

[87] طلب من صاحب النقض تولي أمره بنفسه دون الاشارة إلى فتواه وإشاعتها بين الناس .نفسه، الورقة17.

[88] يستند إلى قول مالك لابن القاسم"إذا كان من قبله أمضاه على حق فأنفذه إلى صاحبه وهي فتوى نقلها عن البرزلي. البرزلي، المصدر السابق،ج 1، ص 47. الجنثوري،المصدر السابق، الورقة17.

[89] الشيخ عز الدين بن عبد السلام : سلطان العلماء(587هـ/660هـ) من مصر له تصانيف كثيرة . السيوطي، المصدر السابق ،ج1، ص ص 242، 243. الجنثوري، المصدر السابق، نسخة سطيف، الورقة17.

[90] الجنثوري،المصدر السابق ،الورقة17.

[91] يذكر قول عمر بن الخطاب (رض) لا يمنعك الحياء في قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم عقلك وهديت فيه لرشدك أن يرجع إلى الحق. نفسه، الورقة17.

[92] نفسه، الورقة17.

[93] نفسه، الورقة18.

[94] نفسه،الورقة18.

[95] نفسه، الورقة،19.

[96] نفسه، الورقة25. نسخة المطارفة، الورقة 04 .

[97] نفسه، الورقة26. نسخة المطارفة، الورقة 05 .

[98] نفسه، نسخة المطارفة، الورقة07.

[99] نفسه، نسخة سطيف،الورقة 19

[100] راسل الشيخ سعيد بن إبراهيم المعروف بقدورة الإمام أحمد بابا التنبكتي يستفتيه حولها. أحمد بابا التنبكتي، معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، تحقيق وترجمة فاطمة الحراف، وجون هانويك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، المغرب، 2000، ص 43.

[101] الجنثوري ، المصدر السابق، نسخة المطارفة، الورقة 04.

[102] نفسه، الورقة 04.

[103] سنة 1175هـ / 1744م عند مجيء القائد الجيلالي الصفار حسب مارتان. هرباش زاجية، المرجع السابق، ص54.

[104] نفسه.

[105] الجنثوري، المصدر السابق،نسخة كوسام، الورقة08.

[106] جانب من نوازله اعتمدها البلبالي في نوازله وهي مهمة .هرباش ، المرجع السابق، ص 331.

[107] الجنثوري، المصدر السابق،نسخة سطيف،الورقتين 17،18.

[108] نفسه، الورقة19.

[109] نفسه، الورقة31.

الإمام الغزالي و فقهاء المغرب والأندلس
بين الاختلاف والاتفاق المذهبي

د.خالد بوهند، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر

المقدمة

سنحاول في هذه الدراسة أن نسلط الضوء على حالات الاختلاف والاتفاق بين فقهاء المشرق والمغرب الإسلاميين، خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ويتعلق الأمر بآراء وكتابات الإمام أبي حامد الغزالي الدينية ومواقف فقهاء بلاد المغرب والأندلس منها خلال عهد دولة المرابطين، وبداية عهد دولة الموحدين . فما هي مسبباته ؟ ثم ما هي تداعياته ؟ .

للإجابة على هذا السؤال قسمنا هذه الدراسة إلى خمسة عناصر ، نتناول في العنصر الأول نبذة تاريخية مقتضبة عن مولد ونشأة الإمام الغزالي ، وهذا للكشف عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى حدوث "انفصام في شخصيته" ، و إذا شئنا القول "الردة" ، أو "الشك" الذي وقع فيه الإمام والذي سبب له أزمة نفسية ، لم يتعافى منها إلا عندما حسم الأمر باختياره طريق الزهد و السياحة الصوفية تاركا وراءه العائلة والمنصب والجاه و السمعة التي حضي بها سواء كان ذلك في بلاط الوزير نظام الملك السلجوقي ، أو في المدرسة النظامية ببغداد .

وقمنا في العنصر الموالي بوضع ذلك النقاش بين المشارقة والمغاربة في سياقه التاريخي ، حيث بحثنا في هذا الصدد عن الأوضاع الدينية والسياسية مشرقا ومغربا خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين. وقمنا في العنصر الثالث بتحليل آراء الإمام الغزالي الدينية والفلسفية ، ومن ثم عرض مجموعة مصنفاته ، ولا سيما كتابه الهام : "إحياء علوم الدين" ، وهو كتاب تضمن عصارة حياته الدينية والفلسفية والتعليمية ، حاول فيه الكاتب المزاوجة بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية(الدين والفلسفة) ، وما بين الأصول والفروع ، وما بين الفقه والتصوف .

إن ذلك سينمي لديه أعداء كثيرين لا سيما فقهاء المغرب والأندلس في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، وعلى هذا الأساس بحثنا في العنصر الرابع عن الأسباب التي كانت وراء إحراق كتب الإمام الغزالي ولا سيما كتاب "الإحياء" ، ولعل أهمها اشتغال الغزالي بالفلسفة وبالمزاوجة بين الأصول الفقهية(القرآن و الحديث) والفروع ، بينما كان جل اهتمام فقهاء المغرب بما في ذلك الأندلس على الفروع مستندين في ذلك على مذهب الإمام مالك لا غير .

وكما كان هناك من الفقهاء المغاربة من انتقد الإمام الغزالي ، وذهب البعض منهم الآخر إلى حد تكفيره ، وجد من الفقهاء من أيد آراء الإمام الغزالي ودافع عنها ، وهناك من الفقهاء من استغل لقاؤه مع الإمام "مطية" للوصول إلى الحكم ، ونعني هنا ما فعله محمد (المهدي) بن تومرت ، عندما كان يخطط

لإقامة دولته(الموحدية) على أنقاذ دولة المرابطين المتهالكة ، وهذا ما حاولنا أن نتحدث عنه في العنصر الخامس والأخير .

1-نبذة عن حياة الإمام الغزالي

ولد الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي سنة 450 هـ/1058م ، لُقب بالغزالي لأن والده كان يغزل الصوف ويبيعه في حانوته ، فلما احتضر أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له صوفي صالح فعلمهما الخط وأدبهما ، ولما نفد منه ما خلفه أبوهما ، وتعذر عليه إطعامهما أدخلهما المدرسة النظامية ، فاشتغل بها الإمام مدة ، ثم ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي بجرجان ، ثم إلى أبي المعالي الجويني الملقب بإمام الحرمين بنيسابور ، فاشتغل عليه ولازمه حتى صار انظر زمانه ، وجلس للإقراء في حياة إمامه وصنف كتبا . فلما مات إمامه التحق ببلاط الوزير نظام الملك السلجوقي ، و حضر مجلسه ، وكان مجلسه محط رحال العلماء ومقصد الأئمة والفصحاء ، فأقبل عليه نظام الملك وحل منه محلا عظيما ، فعظمت منزلته وطار اسمه في الآفاق ، وتصدى للتدريس بنظامية بغداد سنة 484 هـ/1091م ، فشدت إليه الرحال إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفضها وأطرحها [1] ، وأقبل على العبادة والسياحة ، فخرج إلى الحجاز سنة 488 هـ/1095م ، فحج ، ثم رجع إلى دمشق واستوطنها عشر سنين بمنارة الجامع الأموي ، وصنف فيها كتبا يقال أن كتاب "الإحياء" منها ، ثم صار إلى القدس فالإسكندرية . عاد الإمام الغزالي إلى وطنه بطوس مقبلا على التصنيف والعبادة ، وملازمة التلاوة ، ونشر العلم ، وعدم مخالطة الناس ، وألح عليه الوزير فخر الدين بن نظام الملك للتدريس بنظامية نيسابور ، فاستجاب لذلك ، وتصدى للتدريس مدة ، ثم ترك التدريس وعاد إلى وطنه وابتنى زاوية بجوارها مدرسة ، ولزم الانقطاع ، ووظف أوقاته على وظائف الخير ، بحيث لا يمضي لحظة منها إلا في طاعة من التلاوة والتدريس والنظر في الأحاديث خصوصا البخاري وإدامة الصيام والتهجد ومجالسة أهل القلوب إلى غاية وفاته بالطابران قصبة بلاد طوس سنة 505 هـ/1111م ، وعمره 55 سنة [2].

2-عصر الإمام الغزالي

لفهم أفكار وآراء الإمام أبي حامد الغزالي الدينية والفلسفية ، ومواقف فقهاء بلاد المغرب والأندلس منها ، علينا أولا الكشف عن العصر الذي عاش في كنفه هذا الإمام ، ففي المشرق الإسلامي كانت نهايات القرن الرابع الهجري ومطالع القرن الخامس فترة ازدهار المناهج الفلسفية في الإسلام ، حيث سيطرت آراء المدرسة المشائية الإسلامية التي تزعمها الفارابي وابن سينا ، كما ازدهرت بدورها الطرق الصوفية ، وكان لهذا تأثير في إضعاف سلطة الفقهاء والمدافعين عن النص الظاهر من أهل السنة وغيرهم من المتمسكين بظاهر العبادات والشعائر .

على صعيد آخر اتسم هذا العصر وهو العصر العباسي المتأخر بانحلال سياسي وعسكري وأخلاقي، واستولت فيه العناصر التركية على الحكم في بغداد ، وهددت الإسماعيلية والباطنية الخلافة

العباسية ، كما استشرى خطر القرامطة في الإحساء ، وسقطت إنطاكية والقدس في أيدي الصليبيين . فكانت شخصية أبي حامد الغزالي هي التي هيأت لها الظروف السالفة الذكر أن تلعب هذا الدور الخطير في القرن الخامس الهجري فتكون عند مفترق الطرق في الحياة العقلية الإسلامية ، إذ تواجه عوامل الانهيار والتبعثر مواجهة واعية صلبة تحفظ على الإسلام أصوله وتثبت دعائمه [3] .

أما في بلاد المغرب الإسلامي فقد عاشت على وقع الدولة المرابطية التي نشأت على أساس دعوة دينية للفقيه أبي محمد عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي المتوفى سنة 451 هـ/1059م ، ركز قواعدها السياسية والعسكرية يوسف بن تاشفين في بلاد المغرب أولا ثم في الأندلس [4] حيث دانت له الجزيرة بأجمعها [5] ، ولو مؤقتا ، لأن الأمر سيتحول فيما بعد إلى رفض ملوك الطوائف للمرابطين ، فقرر يوسف بن تاشفين إعطاء صبغة شرعية لحركته في بلاد الأندلس ، فبعث الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي الاشبيلي وابنه أبا بكر لبلاد المشرق سنة 485 هـ/1092م في مهمة لرجاء الخليفة العباسي المستظهر بالله حتى يصدر عهدا للأمير يوسف بولايته بلاد المغرب والأندلس ، وكذا حصوله على سند شرعي يبرر تصرفه مع ملوك الطوائف ، فاتصل الفقيه ابن العربي وابنه أبو بكر بالإمام الغزالي ، وشرحا له أحوال الأندلس ، ودور الأمير ابن تاشفين في إنقاذ بلاد الإسلام من النصارى ، وطلبا منه فتوى تبرر مواقف الأمير يوسف بن تاشفين من ملوك الطوائف ورجاله ، فاستجاب الإمام الغزالي لهذا الطلب وأصدر فتواه التي تدعو إلى طاعة أهل الأندلس لابن تاشفين [6] .

وعلى عكس فقهاء المشرق الإسلامي التي كانت الأوضاع الدينية والفلسفية سببا في إضعاف سلطة الفقهاء ، فإن فقهاء المغرب الإسلامي سيشهدون عصرهم الذهبي ، ولا سيما في ولاية أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين الذي اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا كبيرا لم يبلغوا مثله من قبل . ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرة وكبيرة موقوفة عليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم . ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علَّم علم فروع المذهب المالكي ، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاه ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله (ص) [7].

الجدير ذكره أنه لما انفرد المغرب بذيوع هذا المذهب الفقهي منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ، نجم عن ذلك أن قلت المناظرات المذهبية ، وقصر عمر علم الكلام ، واتجه الفكر الفلسفي في منحى واحد ، هو المنحى العقلي الصرف ، وضعف بنتيجة ذلك استعداد الجمهور لقبول تعدد الآراء ، وتنوع المذاهب ، وأفاد الفقهاء من هذا التماثل الفكري في تأليب العامة ضد الفلاسفة ، وقد حدث ذلك مرارا ، واجتمع العامة صفا واحدا خلف الفقهاء لمناهضة الفلسفة وزعمائها [8].

3-آراء وآثار الإمام الغزالي

إنه من الصعوبة بمكان إيجاد شخصية في التاريخ الحضاري مثل شخصية الإمام الغزالي ، التي استطاعت أن تستوعب المعارف السائدة حتى عصره [9] ، ولا سيما تراث الحضارة الإسلامية خلال القرن الرابع الهجري الذي عد بحق العصر الذهبي بالنسبة لانتشار وازدهار الفلسفة وعلم الكلام(العقائد) والفقه والتصوف وعلم اللغة والأدب...الخ [10]. خاض الغزالي بكل جرأة غمار بحر المعرفة والاستكشاف وهو في عهد مبكر من حياته حيث يعترف : « ولم أزل في عنفوان شبابي...إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين...أتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لا أميز بين محق ومبطل و متسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا إلا و أريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا و أجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا و أحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبدا إلا و أترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا و أتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته » [11].

عاش الغزالي آراءه بصدق وإخلاص فلم يكن ثمة فجوة بين ما يعتقد و ما يسلك . فآراؤه صورة لحياته وحياته صورة لآرائه ، ولذلك أمضى حياته هذه مناضلا ضد الآراء والأفكار والعقائد التي سبق أن كشف عنها وتبين له خطأها واقتنع بزيفها وبطلانها ، فقد نقد بشدة أيضا الاتجاهات الخاطئة في فهم الدين وصلة ذلك بالله والحياة ، إذ انتقد المتكلمين في اتجاههم إلى تحويل عقائد الجمهور إلى نظام من الإيمان المثبت منطقيا والجامد عند عدد من الحجج الكلامية الشكلية ، وناهض ما لا مسوغ له من الجهود التي كان البعض يبذلها لتحويل الدين إلى قانون فقهي وقضائي بدل أن يبقى حيا عاملا موجها للسلوك ، باعثا له باستمرار إلى وحدة الهدف المنسجم مع المثل العليا ، وخاصم الفلاسفة الذين لم يجد الكثير منهم في الدين أكثر من تأمل عقلي في النظام الكوني .

لقد نظر الغزالي إلى الدين بأسلوب خاص نابض بالحياة ليتحقق فيه ارتباط الظاهر بالباطن سواء أكان ذلك في معرفة الأصول أم الفروع أم العبادات أم المعاملات ، فهذه الازدواجية بين الظاهر والباطن هي من الأهمية بمكان في موقف الغزالي الديني ، وبأنها الدعامة الأساسية التي يستند إليها فهم الغزالي للإسلام [12]. ويعد كتابه الموسوم "إحياء علوم الدين" أحد أبرز تصنيفاته على الإطلاق، حيث يتضمن عصارة حياته الدينية والفلسفية والتعليمية، وهو أصدق تعبير للسلفية في الإسلام [13]، وقيل فيه أنه لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الإحياء لأغنى عما ذهب.

إن كتاب الإحياء مرتب على أربعة أقسام : العبادات ، و العادات ، و المهلكات ، و المنجيات ، في كل منها عشرة كتب . في القسم الأول العلم ، قواعد العقائد ، الطهارة ، الصلاة ، الزكاة ، الصيام ، الحج ، تلاوة القرآن ، الأذكار والأوراد. وفي القسم الثاني آداب الأكل ، وآداب الكسب ، وآداب النكاح ، والحلال والحرام ، وآداب الصحبة ، والعزلة ، وآداب السفر ، والسماع ، والأمر بالمعروف ، وأخلاق النبوة . وفي القسم الثالث شرح لعجائب القلب ، ورياضة النفس ، وآفة الشهوتين ، وآفة اللسان ، وآفة الغضب ،

وذم الدنيا ، وذم المال ، وذم الجاه والرياء ، وذم الكبر والغرور . وفي القسم الرابع التوبة ، والصبر والشكر ، والخوف والرجاء ، والفقر والزهد ، والتوحيد ، و المحبة ، والنية والصدق ، والمراقبة ، والتفكر وذكر الموت ، فالجملة أربعون كتابا [14].

وللغزالي مصنفات أخرى في الفقه منها : الوجيز و المستصفى . وله في المنطق والفلسفة معيار العلم ومحك النظر ، ومقاصد الفلاسفة وفيه يعرض آرائهم توطئة للرد عليهم ، وتهافت الفلاسفة وفيه يفند مذاهبهم ، وله في علم الكلام الاقتصاد في الاعتقاد ، والرسالة القدسية وهي مختصر للرسالة السابقة وتوجد في الإحياء تحت عنوان : قواعد العقائد ، وفي الرد على الباطنية القسطاس المستقيم ، وفي معتقدات السلف جواهر القرآن ، وكتاب الأربعين ، والحكمة في مخلوقات الله ، والدرة الفاخرة ، والمقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى ، والكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين ، و الحام العوام عن علم الكلام وعلى شاكلتها رسالة في الوعظ والاعتقاد .

وللغزالي كتب تقترب في مضمونها من إحياء علوم الدين مثل : كيمياء السعادة ، والرسالة اللدنية ، ومكاشفة القلوب ، وبداية الهداية ، وميزان العمل، ويا أيها الولد ، وخلاصة التصانيف في التصوف بالفارسية ، ومنهاج العابدين وهو آخر ما أملى من كتب . ومن أهم الكتب التي ألفها الغزالي تلك التي تسجل تطوره الروحي وتتضمن تاريخا لحياته ودفاعا عن مواقفه مثل : المنقذ من الضلال ، وفيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، والإملاء من إشكالات الإحياء [15]. بعد استعراض مختصر آراء و آثار الإمام أبي حامد الغزالي ، نود هنا أن نطرح السؤال التالي : كيف استقبل نظراء الإمام الغزالي ببلاد المغرب والأندلس كل هاته الاجتهادات ؟ .

4-مواقف فقهاء المغرب والأندلس من الإمام الغزالي

ورد في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لمؤلفه المراكشي أنه: « لما دخلت كتب أبي حامد الغزالي المغرب ، أمر أمير المسلمين (علي بن يوسف بن تاشفين) بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الأمر في ذلك » [16] ، لأنه اتهم من قبل فقهاء المغرب والأندلس بالأخذ عن الفلاسفة ، كما رمي بالمروق والإلحاد [17] .

إن ما يفسر هاته المواقف من آراء الغزالي-وتكملة لما سبق ذكره-أن المرابطون وبأمر منهم ، هُجرت دراسة "الأصول" في الدين والشريعة ، وخصوصا دراسة الحديث ، بل كانت مذمومة في المغرب ، فلم يروا فيها فائدة ، ونظرا إليها الفقهاء نظرة كراهية . ولم يهتم الفقهاء إلا بدراسة "الفروع" وهو الفقه العملي الذي يشمل "القانون المدني" والعبادات بحسب مذهب مالك . وعُدوا دراسة "الفروع" أقصى غايات علم الدين بدلا من أن تكون مجرد فرع ثانوي وإنساني ، وهو ما أدى إلى القضاء على التفكير العقلي للبحث عن تأويل آيات القرآن الكريم ، وجرى ذلك بعينه فيما يتعلق بدراسة الحديث ، وكل الفقه تحجّر في القالب الثابت الذي صنعه مؤسس المذهب ، ووجب الاقتصار على ذلك ، ومنع الاجتهاد في الإسلام في المغرب والأندلس ، الاجتهاد المستند على الأصول نفسها ممثلة في الكتاب والسنة [18] .

مهما يكن من أمر فإن من بين الفقهاء ببلاد المغرب والأندلس ممن تصدوا لكتب الغزالي يأتي في مقدمتهم أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة ، فلقد ارتبط اسم هذا الفقيه بقضية الإحراق باعتباره أحد أصحاب النفوذ في ذلك الوقت لدى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين ، ولقد تجاوزت مهمته الحدث إلى الرد على الغزالي ، من خلال رسالة نقلها عنه تلميذه ابن عطية ، ثم يأتي بعده رد أبي بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري المالكي والمعروف بالطرطوشي نسبة إلى بلدة طرطوشة بالأندلس ، من خلال رسالته التي بعث بها لابن المظفر (ولعله أحد أصدقائه) ، ثم رد المازري الذي تضمنه كتابه "الكشف والأنباء على المترجح بالإحياء" ، وهو نفسه الذي اختلف مع الجويني (إمام الحرمين) وأستاذ الغزالي ، وهي قضية أخرى تندرج في نطاق النقاش العام الذي أثير بين علماء المشرق وعلماء المغرب [19].

ومع ذلك يخبرنا ابن مريم أن يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل المعروف بابن النحوي(م.513 هـ/1119م) نزيل قلعة بني حماد وأصله من توزر ، اشتغل بالأصول (الكتاب والسنة) ، كان له اهتمام خاص بكتاب الإحياء للغزالي ، ولهذا عارض فكرة إحراق الكتاب بمراكش ، حيث راسل في هذا الصدد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين ، وأفتى بعدم جواز منعه في دولة المرابطين ، ذكر ابن مريم أنه : « انتسخ (كذا) الإحياء في ثلاثين جزءا يقرأ منه كل يوم جزءا في رمضان وقال وددت أني لم انظر في عمري سواه » [20].

5-علاقة محمد بن تومرت بالإمام الغزالي

في أواخر عهد دولة المرابطين ، ظهر فقيه ببلاد المغرب الإسلامي هو محمد بن تومرت (المهدي) مؤسس دولة الموحدين ، ذكر عبد الواحد المراكشي أنه من مواليد منطقة سوس ، بضيعة ايجلي أن وارغن تحديدا ، وهو من قبيلة هرغة ، يعرف سكانها بإيسرغينن أي الشرفاء على لسان المصامدة . يعود نسب محمد بن تومرت إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، رحل إلى المشرق سنة 501 هـ/1107م لطلب العلم ، حيث لقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئا من أصول الفقه وأصول الدين ، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين ، و لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده[21] ، السؤال المطروح هل تتلمذ محمد بن تومرت على يد الإمام الغزالي ؟ أو بالأحرى هل التقى الرجلان فعلا ؟ .

لقد تضاربت آراء المؤرخين حول هذه المسألة ، فابن الأثير مثلا ينفي أصلا لقاء الرجلين ، ويكتفي بتتبع مسيرة محمد بن تومرت مشرقا طالبا للعلم ، ثم مغربا عند عودته كداعية يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر [22] ، والمراكشي الذي يشك في هذا اللقاء ، ومع ذلك يورد بعض الروايات الممزوجة بالخرافة ، حيث يذكر أن الإمام الغزالي بلغه ما فعل أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بكتبه التي وصلت إلى المغرب ، من إحراقها وإفسادها ، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس ، فقال الغزالي : « ليذهبن عن قليل ملكه ، وليقتلن ولده ، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضرا مجلسنا » وكان ابن تومرت يحدث نفسه

بالقيام عليهم ، فقوي طمعه [23] ، ويعبر ابن خلدون عن هذا اللقاء بما يفيد الشك فيقول : « لقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي ، وفاوضه بذات صدره » [24] .

أما بقية المؤرخين المغاربة فيؤكدون هذا اللقاء ، على غرار ابن القطان الذي يورد الخبر عن أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن العراقي عن بعض أشياخه ومفاده أن رجلا ورد من المغرب فسأله أبو حامد الغزالي عن مصير كتابه "الإحياء" فأخبره أنه أحرق . فتغير وجه الغزالي ، ومد يديه للدعاء : « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، واذهب دولتهم كما حرقوه » . فقام محمد بن تومرت من تلك الحلقة وقال : « ادع الله أيها الإمام أن يجعل ذلك على يدي » . فتغافل عنه أبو حامد . وبعد مدة جاء رجل آخر فسأله أبو حامد فأخبره بصحة الخبر ، فدعا بمثل دعائه الأول ، فقال له محمد : « على يدي إن شاء الله » ، فقال أبا حامد : « اللهم اجعله على يده » [25] .

ونقل عن ابن القطان قضية اللقاء كل من ابن عذاري ، وأكده ابن القنفذ ، والزركشي ، و السبكي في طبقاته يذكر عند استعراضه لحياة ابن تومرت تفقهه على الغزالي و الكيا الهراسي [26] ، و السلاوي الذي يذكر بدوره أن ابن تومرت : «...دخل العراق ولقي به جملة من العلماء وفحول النظار وأفاد علما واسعا ، وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده و لقي أبا حامد الغزالي وفاوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه » [27] .

ولعل الحرص في التأكيد على تتلمذ ابن تومرت على الغزالي هو إضفاء صبغة العصمة على المهدي ، ورسالته ، وأن مبعثها ومنطلقها دعوة الغزالي التجديدية التي قوبلت بالرفض من طرف المرابطين أعداء الموحدين الذين سيحلون محلهم فيما بعد . ومهما يكن فالدوافع الحقيقية لدعوى محمد المهدي لم تكن قضية "الإحراق" ، وإنما حالة التفتح التي عاشها ابن تومرت في المشرق لما كان طالب علم . وبالمقارنة تبين له أن المشرق يعج بعلوم الأصول والكلام والحديث والتفسير ، والمغرب ما زال يحاول فهم مدونة سحنون وحل ألغازها [28] .

يتحدث المستشرق الفرنسي ألفريد بل عن حركة محمد بن تومرت التي بدأها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المناطق التي نزل ضيفا عليها ، ثم في الفترة الثانية عندما ظهر في تينملل وقد صار مهدي الموحدين [29] بعد إقناعه للمصامدة بأنه هو المهدي المعصوم فبايعوه على ذلك[30] ، و حرر مذهبه [31] وهو عبارة عن تصانيف في العلم ، منها كتاب سماه "أعز ما يطلب" ، وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل ، إلا في إثبات الصفات ، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها ، وكان يبطن شيئا من التشيع ، غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء [32] ، ونظم عقيدة جماعة الموحدين وحكومتهم من أجل ما سيقوم به من كفاح ضد المرابطين[33] .

إن عالم الدين البربري ابن تومرت ليس فقط مؤسس إمبراطورية عظيمة في المغرب الإسلامي ، بل أعطى للمغرب والأندلس مذهبا دينيا(أشعريا) ، دعا إليه أولا ، ثم بانتصاراته ثانيا فرضه على تلك البلاد

التي لم تكن عرفته بعد ولم تحتفظ به طويلا بعد وفاة رابع خلفاء الدولة محمد الناصر (م.610 هـ/1213م) [34].

الخاتمة

ما يمكن استخلاصه من هذه الدراسة التاريخية المقتضبة هو أن الإمام أبو حامد الغزالي عاش في مرحلة مفصلية من تاريخ البلاد الإسلامية تمثلت في بداية انحطاط البلاد الإسلامية ، وتجلت أعراضه في تقلص باب الاجتهاد في العلوم الدينية والدنيوية ، و تغلبت المذاهب الصوفية على المذاهب الفقهية ، وانصب اهتمام الفقهاء على الفروع بدلا من الرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) كما فعل سلفنا الصالح ، وعلى هذا الأساس كانت اجتهادات الغزالي محل شبهة ، واتهمه فقهاء المغرب والأندلس المدعومين من قبل حكامهم بالمروق ، وصل بهم الأمر إلى حد إحراق كتبه .فهل لهذه المعطيات دخل في توجيه مسار هذا الرجل الفذ ؟ .

يمكن اختزال مسيرة الإمام الغزالي من الولادة إلى الوفاة (505-450هـ/1058-1111م) في ثلاثية : المجد-الشك-اليقين ، ومعنى ذلك أن حياة هذا الرجل الفريدة من نوعها كانت ماضية في اتجاه عكسي ، فمن الشهرة و حياة النعيم ، إلى الانعزال وحياة الزهد والتقشف ، ومن العالمية إلى المحلية ، وكأن هذه الشخصية لا تأبى إلا العودة إلى جذورها وأصولها الأولى ، فمن بغداد(عاصمة العالم) إلى الحجاز ، فدمشق ، فالقدس ، مرورا بالإسكندرية ، ها هو الإمام يعود أدراجه إلى مسقط رأسه طوس ، فهناك نشأته الأولى ومشربه الصوفي ، وكلها معطيات ومؤشرات قادت هذا الرجل إلى الانزواء في زاويته التي بناها لاستكمال بقية حياته .

الهوامش

(1)-في سنة 488 هـ/1095م ، تعرض الإمام الغزالي لأزمة شكية دامت قرابة شهرين ، نظرا لاشتغاله بالفلسفة (السفسطة) ، كما أن قلبه توزع بين مغريات الدنيا المتمثلة في المنصب والجاه العريض والمال الوفير والشهرة الواسعة، وبين متطلبات الإيمان الذي انغرس في قلبه منذ الصبا ، ولكنه سرعان ما حسم الصراع ، فخرج من بغداد مخلفا وراءه عائلته ومنصبه ، مقبلا على السياحة الصوفية والخلوة والعزلة التي دامت قرابة 11 سنة كاملة .

(2)-أبي الفلاح عبد الحي بن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب . ج4 . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1994 ، ص.10-12 . وأيضا : عماد الدين بن كثير ، البداية والنهاية . ج12 . مكتبة الصفا ، القاهرة ، 2003 ، ص.149 .

(3)-محمد علي أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام . دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، بدون تاريخ ، ص.ص.335-336.

(4)-الطاهر المعموري ، الغزالي وعلماء المغرب . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990 ، ص.7.

(5)-عبد الواحد بن علي المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب . (تحقيق : خليل عمران المنصور) . دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2005 ، ص.114.

(6)-الطاهر المعموري ، مرجع سابق ، ص.ص.8-9.

(7)-عبد الواحد بن علي المراكشي ، مصدر سابق ، ص.ص.121-122.

(8)–عادل العوا ، المذاهب الفلسفية . منشورات جامعة دمشق ، دمشق ، 2001–2002 ، ص.ص.191–192.

(9)-Haïdar Bammate, Visages de l'islam. ENAL, Alger, 1991, p.168.

(10)–لمزيد من الاطلاع أنظر : آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام . جزآن . (ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة) .الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1986 ، 897 صفحة .

(11)–أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الظلال . (تحقيق : أحمد شمس الدين) . دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1988 ، ص.ص.24–25.

(12)–عبد الحميد خطاب ، الغزالي بين الدين والفلسفة . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ، ص.400.

(13)- Haïdar Bammate, op.cit, p.171.

(14)–أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين . 5 أجزاء . (تحقيق : سيد عمران) . دار الحديث ، القاهرة ، 2004 . و أيضا: حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . م1 . دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، بدون تاريخ ، ص.23.

(15)– محمد علي أبو ريان ، مرجع سابق ، ص.ص.339–340.

(16)– عبد الواحد بن علي المراكشي ، مصدر سابق ، ص.122.

(17)–أرثور سعدييف ، توفيق سلوم ، الفلسفة العربية الإسلامية . المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار ، الجزائر ، 2001 ، ص.291.

(18)–ألفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم . (ترجمة : عبد الرحمن بدوي) .دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1987 ، ص.241.

(19)–الطاهر المعموري ، مرجع سابق ، ص.ص.21–49.

(20)–أبو عبد الله محمد بن مريم ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان . (تحقيق : عبد الرحمن طالب) . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 ، ص.ص.300–301.

(21)–عبد الواحد المراكشي ، مصدر سابق ، ص.ص.126–127.

(22)–عز الدين بن الأثير ، الكامل في التاريخ .(تحقيق : أبو صهيب الكرمي) . بيت الأفكار الدولية ، عمان ، بدون تاريخ ، ص.1613.

(23)– عبد الواحد بن علي المراكشي ، مصدر سابق ، ص.127.

(24)–عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . (تحقيق : أبو صهيب الكرمي) .بيت الأفكار الدولية ، عمان ، بدون تاريخ ، ص.1668.

(25)– الطاهر المعموري ، مرجع سابق ، ص.ص.25–26.

(26)–نفس المرجع ، ص.26.

(27)–شهاب الدين السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . ج1 . (تحقيق :محمد عثمان) . دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2007 ، ص.229.

(28)– الطاهر المعموري ، مرجع سابق ، ص.ص.27–29.

(29)–ألفرد بل ، مرجع سابق ، ص.250.

(30)– عبد الواحد المراكشي ، مصدر سابق ، ص.132.

(31)–ألفرد بل ، مرجع سابق ، ص.250.

(32)–عبد الواحد المراكشي ، مصدر سابق ، ص.132.

(33)–ألفرد بل ، مرجع سابق ، ص.250.
(34)–نفس المرجع ، ص.264.

المرأة الموريتانية والتنمية

أة. لاله بنت سيد لمين، جامعة نواكشوط، موريتانيا

المقدمة:

إن للمرأة الموريتانية دورا هاما في عملية التنمية ،وإذا ما أريد لهذا الدور أن يكون فعالا، فلابد من أن تتوافر لها معطيات رئيسة تمكنها من أن تساهم بشكل إيجابي في حركة التنمية وتوجهها، ويأتي في مقدمة هذه المعطيات الإنتاج الاقتصادي، فقد شاركت المرأة الموريتانية في المجتمع التقليدي في توفير شؤون أسرتها، وساهمت بالتعاون مع الرجل في مختلف أنشطة الاقتصاد الريفي كتربية الماشية والزراعة، وظل هذين القطاعين مهيمنين علي النشاطات الاقتصادية للسكان، حتى ما بعد الاستقلال ،إلا أن تحولات مكانية واجتماعية وثقافية واقتصادية أدت إلى تغييرات على مستوى المجتمع وأنشطته الممارسة بشكل عام.

فتحولت الأنظمة الاقتصادية من اقتصاديات ريفية (زراعة – تربية ماشية) إلى اقتصاد عصري مرتبط بموارد اقتصادية تصديرية"الموارد المعدنية" صاحب ذلك تحول في الأنشطة التي يمارسها السكان .إضافة إلي التحولات السكانية التي عرفها المجال من حركات هجرية ونزوح ،كان لهما انعكاس كبير علي السكان بشكل عام وعلي النساء بشكل خاص.فأدى هذا إلي زيادة ملحوظة في نسب مشاركة النساء في الأنشطة الاقتصادية الجديدة، فبدأت مساهمة المرأة كقوة عاملة في البلد ، وبدأ طموحها يتجه نحو مسايرة الرجال في بناء الدولة الناشئة .والتي لم يعمل المستعمر الفرنسي علي تهيئة المرأة ،لتكون شريكة فعلية للرجل لتسيير شؤون الدولة في الأيام الأولي لقيام الدولة،وذلك بتجاهله تعليمها مثلما فعل للرجال.

وقد كان لتغيير وسط الإقامة من ريفي إلى مستقر وحضري أو شبه حضري دورا هاما في دعم تطور المرأة، فظاهرة الجفاف التي ضربت البلاد في سنوات الستينات والسبعينات ،وما خلفته من موجات نزوح من الريف نحو الحضر و هجرة نحو المدن خاصة العواصم، أدت إلى تغييرات بنيوية للاقتصاد فبدأت الأنشطة المرتبطة بالريف تتقلص ،وحلت محلها أنشطة اقتصادية أخرى فرضها الوسط الجديد، وبدأت المرأة تستفيد من خدمات، اجتماعية، كالتعليم، الصحة، والعمل،مما سيكون له انعكاس فيما بعد علي تعزيز مكانة المرأة في مختلف المجالات.

وكان لهذه الخدمات دور كبير في دفع النساء إلى التطلع للاندماج في الحياة الاقتصادية الجديدة . وزاد من حظوظ مساهمة المرأة في التنمية الاهتمام الدولي بقضايا المرأة، والذي تزامن زمنيا مع التحولات التي تشهدها البلاد، من هجرة ونزوح إلى الأوساط الحضرية في منتصف السبعينات وفي هذه الفترة خصصت الأمم المتحدة عقدا دوليا للمرأة حدد للفترة ما بين (1985–1975)[1].

فقد ارتبط مفهوم التنمية بنساء العالم منذ هذا التاريخ، حيث أدت مساعي الأمم المتحدة إلى الإقرار بجهود كبيرة بذلتها المرأة وسلطت الأضواء على ما أعتبر آنذاك بالمشكلة الخاصة بالنساء في عملية التنمية.

فأصبح للنساء صوت يمكنهن من التعبير عن أنفسهن خاصة نساء العالم الثالث باعتبارهن فئة اجتماعية بحاجة ماسة إلى جهود تنموية خاصة. ويشترك الرجال مع النساء في العالم الثالث في نفس المعاناة، وقد أدت في نفس الفترة الزمنية وكالات تنموية دولية وطنية على حد سواء، ووزارات مكلفة بقضايا المرأة في بعض الدول، وظهرت في بلادنا في نهاية الثمانينات، وكان ذلك استجابة لضغوط و دعوات ومؤتمرات دولية وإقليمية ووطنية أدركت خطورة تهميش النساء في مجتمعاتهن، وترى أنه السبب الرئيسي في فشل سياسيتهم التنموية. لأن المرأة تمثل مصدرا تنمويا لم يطرق من قبل، هكذا اعتبرت المرأة مشكلا تنمويا وحلا لقضايا التنمية، وسنحاول في هذا البحث المتواضع تقديم صورة عن واقع مشاركة المرأة الموريتانية في عملية التنمية وسنتناول الموضوع من خلال محورين سنتطرق في الأول إلي النشاط الاقتصادي للمرأة قبل الاستقلال ونتناول في الثاني الأنشطة الاقتصادية للنساء ما بعد قيام الدولة.لنخلص إلي توصيات يمكن أن تعزز مكانة للمرأة في عملية التنمية الاقتصادية.

- **تطور النشاط الاقتصادي للمرأة الموريتانية**

لقد كان الدين الإسلامي أكثر تقدما من أي دين آخر بالنسبة لمشاركة المرأة ومكانتها في المجتمع فالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والاجتهادات المختلفة تعطي للمرأة مكانة خاصة تترجم عمليا إلى اعترافات شرعية تملي عليها حقوقها وواجباتها، وتوضح لها الدور الاقتصادي الذي يجب أن تلعبه والنشاطات الاقتصادية التي تؤديها داخل أو خارج البيت بهدف إشباع احتياجات أسرتها أو مجتمعها من خلال تحقيق منافع اقتصادية لأسرتها ومجتمعها،تمشيا مع دينها وقيم وعادات مجتمعها.

المحور الأول :الأنشطة الاقتصادية للمرأة ما قبل قيام الدولة

لعبت المرأة الموريتانية ما قبل قيام الدولة دورا هاما في توفير حاجيات بيتها، حيث ساهمت في مختلف الأنشطة الاقتصادية التقليدية، فقد عملت بالتعاون مع الرجل في الحقول الزراعية، ورعت الحيوانات، ومن هذين الموردين الاقتصاديين وفرت مستلزمات أسرتها.

فمن صوف ووبر حيواناتها نسجت بأنها خيوط خيمتها ومن جلودها صنعت متطلباتها أسرتها، مخدات " فرو" غطاء و" التيزياتن" وهي آلة تقليدية توضع عليها لوازم العائلات ومئونتهم.

وآلات حفظ المواد الغذائية،" كالظبية " لحفظ الحبوب" ولمصر" لحفظ السكر والشاي و "القربة" لحفظ الماء، و" الشكوة " بأنواعها " الشكوة الحمرة" لتحويل الحليب إلى لبن و" الجفافة" لعزل الدهون أو " الزبدة عن اللبن.

وهذه طريقة تتطلب في العصر الحديث آلات ومصانع لإتمامها ،كما أن المرأة الموريتانية اعتمدت على مواردها الطبيعية الأخرى في توفير حاجياتها من الحصائر والأسرة وغيرها من متطلباتها من الخشب المحلي. أما عن الأنشطة اليومية للبيت فإن المرأة مسؤولة عن الطهي وإعداد الطعام ورعاية الأبناء والقيام بكل ما يهم الأسرة من أنشطة تهدف إلى توفير معيشتها. ولم يقتصر دورها على الجانب الاقتصادي فقط وإنما كان لها دور في الجوانب الأخرى، ففي مجال التعليم المحضرى قامت المرأة بتعليم أبنائها شؤون

دينهم كتحفظهم القرآن مثلا وهناك نساء رائدات في ذلك .وإن كان هنالك تفاوت لدور النساء تبعا للتصنيفات التقليدية للمجتمع لن ندخل في تفاصيل تلك التصنيفات لأنها لا تدخل في اهتمام الموضوع. ولعبت النساء دورا هاما في مختلف الأنشطة الاقتصادية التي كانت سائدة في مجتمع ما قبل قيام الدولة، حتى أن النساء شكلن تعاونيات عرفت محليا باسم " التويزة" وهي عبارة عن تكتل من النساء يجتمعن في وقت محدد لإكمال عمل معين لا تستطيع امرأة وحدها إنجازه ، وتعتبر "التويزة" نوع من التعاون النسوي لإنجاز عمل ما هام.وتمثل "التويزة " مستوى معين من الوعي بين النساء على أنهن يتحملن مسؤوليات يجب أن يوفين بها . ومن الجدير بالذكر أن معظم الأنشطة تختفي بمجرد انتقال المرأة من الوسط الريفي إلى الوسط الحضري، ومن المهم التمييز بين النشاطات التي تتناقص ممارستها والنشاطات الأخرى فالنشاطات الزراعية تنتهي في أغلب الحالات عند الانتقال إلي الوسط الحضري لارتباطها بالأرض ،بينما الأنشطة الأخرى قد تنقلها معها لأي وسط آخر. وغالبا ما لا تتقاضى النساء أجور مقابل الأعمال التي يقمن بها، ولذا فإن النساء العاملات في هذا القطاع يحذفن من إحصائيات القوى العاملة، مما يقلل من معدلات حساب اشتراك النساء في أهم الأنشطة الاقتصادية.

المحور الثاني: مشاركة المرأة في التنمية ما بعد قيام الدولة.

نلاحظ من خلال التطور العددي للسكان بصفة عامة وللنساء بصورة خاصة أن المرأة في أي مجتمع رقم هام لا يمكن تجاوزه، وأن إشراكها في عملية التنمية أمر ضروري، ولا يمكن أن نتصور أي نجاح للتنمية دون مشاركة المرأة. وشكل استقلال البلاد وما رافقه في استقرار وتحضر منعطفا تاريخيا في تغير دور النساء الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي.

ففي بداية الاستقلال قدر عدد سكان البلاد ب800 ألف نسمة وفي أول إحصاء للسكان وصل عدد السكان إلى 1.040.000 نسمة[2] 1965 . وبلغ عدد السكان 1.864.000 في إحصاء 1988 مثلت النساء 51% من عدد السكان ووصل عدد النساء إلى 52% حسب إحصاء 2000 ومثلن 50.7% [3] حسب إحصاء 2013، والذي وصل فيه عدد السكان إلى 3.537.368 نسمة.

وقد ظلت مشاركة المرأة الموريتانية، في مختلف الأنشطة الاقتصادية التي كانت تمارس في الأوساط الريفية متواصلة مشاركة الرجل في عملية الإنتاج ,فمن خلال بعض الإحصائيات ، نلاحظ أن عدد المشتغلين في الزراعة مثلوا في السبعينات 82.6% ، وتتغير النسبة تبعا للوسط ففي بداية الاستقلال كان 91% [4] من الريفيين يشتغلون في الزراعة، 77% منهم يعملون في تربية الماشية. وفي الوسط المستقر تهم الزراعة 64.4%، ويفسر ذلك بعوامل عدة منها، عاملي الجفاف والتصحر الذين قلصا المساحات الزراعية، وأديا إلى هجرة ونزوح السكان عن مناطقهم الزراعية، وعوامل أخرى مرتبطة بعزوف المواطن عن الزراعة و إيجاد بدائل أخرى، كاستيراد الدولة للمواد الغذائية والذي أدي إلي عزوف المواطن عن ممارسة الزراعة، و تعد ظاهرة التحضر من أهم العوامل التي قلصت منه، فنلاحظ أن الوسط الحضري ساهم بشكل كبير في تغيير النشاط، وساهمت ظاهرة التحضر في انتشار الوعي بين الأهالي بضرورة

تمدرس البنات، كان ذلك بداية فعلية لتغير عقلية المجتمع عن المرأة. وكانت حقبة الستينات والسبعينات أهم عقدين تجاوزت فيهم المرأة عقبات معقدة على رأسها الأمية وبدأت تجني نتائج تعليمها . فحصلت أعداد هامة من البنات على شهادات عليا مكنتهن من العمل بتراتب في مختلف وظائف الدولة، مثل الإدارات المختلفة وقطاعي التعليم والصحة. وكان ذلك بمثابة ثمرة لجهودهن خلال عشرات السنين ورغم ذلك مازالت الهوة شاسعة بينها مع الرجل في مجال التوظيف، أنظر الجدول1

الجدول1: توزيع النساء العاملات في القطاع العمومي تبعا للرتبة

الرتبة	مجموع العمال	النساء الموظفات	النسبة % مجموع	مجموع الوكلاء	نساء	%
م A	9250	1036	11.20	450	65	14.44
ب B	13270	3669	27.85	375	123	35.20
س C	5988	3212	5364	524	277	5232
د D	131	23	17.56	949	252	5532
المجموع	28639	7969	2782	2298	999	4347

Statistiques du ministère de la fonction publique 2010

نلاحظ من خلال الجدول انخفاض نسبة الموظفات على مستوى الوظيفة العمومية مقارنة بنسبة الرجال ضمن 30937 موظف تمثل النساء 8966 موظفة أي نسبة 29% نساء مقابل 71% رجال وتتفاوت هذه النسبة بين النساء من حيث الرتبة، أي أن أغلبية الموظفات في الوظيفة العمومية هن عاملات بوظائف بسيطة 7967 موظفات ما بين السكرتيريا – التعليم الأساسي و التمريض، أي أن 89% منهن يمارسن هذه المهن و11% من العاملات في الوظيفة العمومية، حاصلات على شهادات، أي إطارات، ويوحي واقع توظيف المرأة في القطاع العمومي أنه ما زال دون المستوى المطلوب .إذا ما قورن بنسبة الرجال في هذا القطاع، وليس هناك مبرر لذلك ما دامت هناك أعداد هامة من النساء حاصلات على شهادات عليا. أما عن القطاعات الأخرى فإن المرأة تلعب دورا هاما فيها، خاصة القطاع الخاص، ففيما يخص قطاع التصنيع أو الصناعة التقليدية فإن مصنع النسيج أو الزرابي الذي يصنف من الصناعة التقليدية اليدوية . فقد أبدعت المرأة فيها وهي بمثابة صناعة تقليدية أو نوع من التراث التقليدي الذي يستهويه السياح والأجانب بشكل خاص. ويسجل عدد الرجال العاملين في قطاع الصناعة التحويلية 4.8% ،بينما في قطاع النقل والمواصلات والتخزين8.9% رجال مقابل 6.2% نساء، وإن كانت هذه الإحصائيات قديمة، إلا أنها مازالت تعبر إلى حد ما عن واقع العمالة في قطاع الصناعة وغيرها، ونلاحظ أن المرأة الموريتانية ما زالت بعيدة عن الاشتراك في القطاعات الاقتصادية اليدوية، إذا ما قورنت بنسبة اشتراك الرجال، رغم ضعف قطاع البناء والتشييد فإنه محتكر من طرف الأجانب وهو قطاع ذكوري في أغلب حالاته، وبخصوص القطاع غير المصنف والذي لا تتقاضى فيه النساء رواتب فيستوعب 78.8% ويتضمن

مختلف النشاطات بما فيها العمل المنزلي والصيد التقليدي الذي تختص بعض النساء في صنع مشتقاته والاتجار به.

وتتواجد النساء بشكل أكبر في القطاع التجاري بمختلف أنواعه في المدن، خاصة العاصمتين نواذيبو ونواكشوط .إذ تقدر بعض الدراسات أن ما بين 13.5% و 17.3% [5] من النساء في الأوساط الحضرية يشتغلن في التجارة والخدمات ،وبينت بعض الدراسات أن $\frac{2}{3}$ من العاملات في هذا القطاع يعملن بوسائلهن الذاتية ويجنين عائدات معتبرة وتمتلك النساء الموريتانيات سوقا خاصا بهن، كما يتواجدن بأعداد هامة في معظم الأسواق خاصة بالعاصمة نواكشوط ويحلل امتهان المرأة الموريتانية للتجارة بمجموعة من الأسباب منها:

- ✓ مسؤولية المرأة عن إعالة أسرتها، حيث يصل المعدل حسب بعض التقديرات إلى28% تتفاوت من 25% في الوسط الريفي إلى 28% في الوسط الحضري.
- ✓ انتشار ظاهرة الطلاق في المجتمع مما يجعل المرأة مسؤولة عن إعالة أسرتها 31% بمعدل الطلاق في المجتمع.
- ✓ انتشار الأمية بين صفوف النساء إذ تزيد على49.5% تتفاوت تبعا للعمر والوسط.
- ✓ تقليد النساء بعضهن لبعض في ممارسة التجارة كلها عوامل مضافة إلى أخرى أدت إلى امتهان المرأة للتجارة، حيث أبدعت منذ عقود في ممارسة هذا النشاط الذي قاد بعض النساء إلى جلب مختلف السلع النسائية وتجهيزات البيوت وغيره من أصقاع العالم.

كما شكلت النساء الموريتانيات تكتلات اقتصادية في شكل تعاونيات نسائية مختلفة الأغراض (زراعية – تجارية – صناعية – تقليدية) قدرت هذه التعاونيات بأكثر من 5000 تعاونية تنتشر في مختلف أنحاء البلاد كما يلاحظ أنهن ينشطن في مجال المنظمات التابعة للنساء ب 60% من مجموع المنظمات الموجودة في البلاد.

ورغم ما قامت به المرأة الموريتانية من نشاطات يمكن أن تساهم في عملية التنمية إلا أن ذلك يبقى ضئيلا إذا ما قورن بما يمكن أن تساهم به إذا ذللت أمامها الصعاب المتمثلة في عوامل جوهرية ما زالت تقف حجر عثرة أمام مشاركة فعالة للمرأة في عملية التنمية، ولعل أهم تلك العوامل التعليم والصحة والخصائص الديمغرافية، وذلك ما سنتعرض له فيما يلي

1 – العوامل المؤثرة في اشتراك المرأة في النشاطات الاقتصادية

- التعليم:

يرفع التعليم من إمكانية حصول المرأة على العمل، ويزيد من مستوى توقعاتها في الحياة ويخفض ويضعف التقاليد والقيم التي تقصيها. ويدعم فرص توظيفها، حيث تؤكد المعطيات الإحصائية ذلك، إذ يلاحظ ارتفاع نسبة مساهمة المرأة في النشاط الاقتصادي مع ارتفاع مؤهلها العلمي، وتبدأ بمجرد حصولها على عمل وتستعين بعمال، كما تساهم المدارس ودور الحضانة والأهل في مساعدة المرأة

على أن تخرج للعمل والتعليم. فنلاحظ من خلال إحصائيات تمدرس البنات أن نسبتهن ترتفع دائما في مرحلة التعليم الابتدائية، في الفترة العمرية 6- 14 سنة، حسب إحصائيات 1977، 4.8% ذكور مقابل 13 % إناث[6] ، وفي سنة 1988 بلغ عدد الإناث 34.5% مقابل 42.9% ذكور.

ومن المعروف أن فرص التعليم متساوية أمام الجنسين في البلاد، إلا أننا نلاحظ أنه في بعض السنوات تزيد نسبة تقييد البنات في الابتدائي على الذكور وفي سنة 2008 بلغت105 % إناث مقابل 94.4% ذكور.

وفي التعليم الثانوي 44.5 % إناث مقابل 55 % ذكور و18 % إناث مقابل 82 % على مستوى التعليم العالي.

وتعلل أسباب تراجع نسبة النساء ابتداء من التعليم الإعدادي والثانوي والعالي نتيجة التسرب المدرسي الذي يمكنٍ أن يعود إلى الأسباب التالية:

- الزواج المبكر للفتيات
- التسرب المرتبط بعزوف الأهل عن التنقل عن وسطهم الريفي مثلا إلى الحضري
- التسرب في صفوف بعض الشرائح نتيجة الفقر واللجوء إلى البحث عن العمل لبناتهم لمساعدتهم ماديا.
- عدم اهتمام المجتمع بتعليم البنات.

وتتعدد أسباب نسبة تراجع المتعلمات، مما سيكون له انعكاس على نسبة حضورهن في قطاعات العمل، كما يلاحظ أن ارتفاع الأمية بين صفوف النساء وبخاصة الأمهات قد يكون عاملا مساعدا في ارتفاع نسبة هجر البنات لمقاعد التعليم.

وترتفع الأمية في المجتمع بصفة عامة إذ قدر إحصاء 1977 أن 18.2 % من عموم السكان أميين وبلغت حسب إحصاء 1988 ، 33.9 % وترتفع الأمية بين النساء إذ وصلت 30.1 % سنة 1988 وتصل بين صفوف النساء إلى 49.4 % حسب دراسة 2004 وبين إحصاء السكان 1988 أن انتشار الأمية يختلف تبعا للوسط ،حيث أن 42 % من المستقرين أميين، وتفيد هذه الدراسة أن 1/3 من الموريتانيين يكتب ويقرأ العربية و 1/10 يكتب ويقرأ الفرنسية.

كما أن 46.6% من السكان فوق 6 سنوات حصلوا على التعليم المحضري و 25.1 % مروا بتعليم عصري 21.3% لهم مستويات متفاوتة.

- المرأة والصحة

يصل عدد سكان موريتانيا2.508.159 نسمة ،وتتوزع بين الوسطين الحضري الريفي إذ يتمثل نسبة سكان الحضري 38.1 % سنة 2000. (انظر الجدول 2 تطور السكان تبعا للوسط).وتفيد إحصاءات 2013ان النساء يمثلن أكثر 50%.وأن الرحل تقلصوا إلي 1,9% مما تناقص حاد في نسبة المشتغلين لنشاط الاقتصاد التقليدي.

وترتفع نسبة الإناث في الريف نظرا لعامل الهجرة التي تنتشر في صفوف الرجال بحثا عن العمل أو لظاهرة الطلاق أو العنوسة .... وغيره. أما بخصوص الجانب الصحي فمن لمعروف أن أمل الحياة لدى النساء أطول منه لدى الرجال، إذ تقدر في موريتانيا ب 59 سنة لدي النساء مقابل 54.1 سنة للرجال، ويعود السبب إلى مجموعة من العوامل تؤدي إلى طول أمد الحياة من منطقة الأخرى، مثلا الدول الأقل نموا 48 سنة للذكور مقابل 55 سنة للبنات، في الخليج 60 سنة ذكور، 76% نسبة للإناث، وفي الدول المتقدمة يصل المعدل 79 نسبة، 73 ذكورا و 80.2 إناثا.

وترتفع نسبة الخصوبة لدى النساء في سن الإنجاب إذ يصل معدلها إلى 4.7 طفل (انظر الجدول2).

الجدول2: تطور الخصوبة لدى النساء في سن الإنجاب

1966 – 1962	طفل 6,5
1971 – 1967	طفل 6,9
1976 – 1972	طفل 7,2
1981 – 1977	طفل 6,3

Source : fécondité et ethnies en Mauritanie préface de Yvescharbit P81

ويتفاوت المعدل تبعا لمجموعة من العوامل منها:

الوسط، الحالة الاقتصادية، المستوى التعليمي، وتتباين نسبة الخصوبة في المنطقة العربية ما بين 5,7 شخص و7,9 شخص.

ويقاس مستوى صحة المرأة الموريتانية على غرار غيرها من النساء في العالم النامي والعربي بشكل خاص، بالإضافة إلى العمر المتوقع عند الولادة بنسبة وفيات الأمهات والخدمات المقدمة لهن فنجد أن ارتفاع الخصوبة مع عدم توفر وسائل تنظيم الأسرة وكفاية الرعاية الصحية أثناء الحمل والولادة تحت إشراف طبي مع ضعف الغذاء يعرض المرأة للخطر والموت عند الولادة، إذ تصل إلى 686 لكل 100 ألف امرأة حسب إحصائيات 2007 وقد تراجع العدد من 930 لكل 100ألف امرأة إلى 747 لكل 100 ألف امرأة سنة 2004.

الجدول 3: تطور السكان حسب الوسط للفترة ما بين 1965 . 2000

	الوسط الريفي		الوسط الحضري			
السنة	عدد السكان	النسبة%	عـــــــدد السكان	النسبة%	مجموع السكان	النسبة %
1965	997.381	90,9	100.419	9,1	1.097.800	100
1977	1.035.011	77,3	303.819	22,7	1.338.830	100
1988	1.300.321	59,0	763.975	41,0	1.864.236	100
2000	1.553.774	61,3	954.385	38,1	2.508.159	100

المصدر: بتصرف من الباحثة اعتمادا على معطيات من الإحصائيات الرسمية

لكل 100 امرأة إلى 747 امرأة لكل 100 ألف امرأة سنة 2004.

وتعاني المرأة الموريتانية من تدني خدمات رعاية الأمومة وفقر الدم خاصة في المناطق الداخلية والأحياء الفقيرة في المدن، خاصة العاصمة نواكشوط، وتتفاوت النساء من حيث ولوجهن إلى الخدمات الصحية تعبا لمستواهن المادي والتعليمي، كما يتفاوت تبعا للوسط الحضري أو الريفي، وتستأثر مدينة نواكشوط بأعلى نسبة من المستشفيات والمراكز الطبية والعيادات والمراكز الصحية، حيث تتركز أهم الخدمات الحضرية بهذه المدينة، حيث أنها أصبحت تتجاوز المعدل الدولي الذي وضعته منظمة الصحة العالمية، أي عدد السكان مقابل كل مستشفى، ويصل المعدل العالمي إلى 150.000 ساكن للمستشفى.

- **خصائص القوى العاملة النسائية في موريتانيا**

لا يمكن التخطيط لقوة العمل دون معرفة حجم الإناث القادرات على العمل وخصائصهن، وذلك حتى نستطيع تحقيق الاستفادة من هذه الطاقة الأنثوية الكبيرة في مجال التنمية الاقتصادية، وتحقيق تشغيل أمثل ليس أمرا سهلا، فهو يحتاج إلى إعداد المرأة علميا وفنيا، حتى تتمكن من ممارسة العمل وإتقانه.

إن معدل زيادة السكان في موريتانيا هو حوالي 2,9 سنويا مع معدلات مرتفعة للخصوبة في صفوف النساء في سن الإنجاب 15–49 سنة 4–7 طفل مع تفاوت هذه النسبة تبعا لعوامل التعليم والوسط (الحضري والريفي) والمستوى الاقتصادي والعمر.

وتتميز البنية الديمغرافية لموريتانيا على غرار مثيلاتها من البلدان العربية والإفريقية والبلدان النامية بصفة عامة بالسكان الشباب.

ويقدر عدد سكان موريتانيا بـ2.508.159 نسمة سنة 2000 يقدر عدد النساء بـ1.266.447 والرجال 1.241.712 أي أن النساء يمثلن 50,5% رجال تمثل النشطات أو اللواتي في سن العمل 187.563 وبذلك عندما نتكلم عن المرأة الموريتانية المؤهلة للعمل فإننا نتحدث عن قوة عمل توازي 51% من الفئة العمرية (59–15) سنة.

إن المجتمع الذي يحاول اللحاق بالدول المتقدمة أو النامية الناجحة هو بحاجة إلى كل القوى العاملة لديه، ومن غير المعقول أن تبقى المرأة، التي تكون قسما ذا أهمية من موارده البشرية معطلة عن المشاركة في عملية الإنتاج.

وموضوع، ضرورة اشتراك المرأة في عملية التنمية يجب أن ينطلق من تهيئة الظروف المناسبة التي تمكنها من الإقبال على العمل، بدون أن يؤثر ذلك على إضعاف مؤسسة الأسرة، مع ما يرافق هذا الضعف من مشاكل تتعلق بنشأة الأطفال والشباب كما يحصل في بعض الدول الأكثر نموا.

- **توصيات لتحسين وضع المرأة الموريتانية**

إن تهيئة المرأة الموريتانية في الحياة العملية ضرورة تحتمها إرادة التغيير والتطور في العصر الحديث، ولن يتم ذلك إلا وفقا لخطة عملية شاملة ومتكاملة تنطلق من تقدير الموقف الحالي للمرأة والتضييق من الهوة في المستقبل القريب للانتقال من الوضع الحالي إلى الوضع المقصود، على أن يكون الهدف

الأساسي لهذه الخطة هو دعم تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية على أساس من الحقوق والواجبات تجاه النساء أنفسهن واتجاه الأسرة والمجتمع وللوصول إلى ذلك لابد من توفر ما يلي:

- وجود إرادة سياسية لذلك.
- تغيير نظرة المرأة لنفسها، وتغيير نظرة المجتمع عن المرأة.
- تحسين قدرات المرأة وإبرازها لإمكانياتها عند طريق منحها فرص التعليم والتكوين.
- تغيير نظرة المجتمع للصورة النمطية للمرأة عن طريق جدية عمل المرأة وإعطاء المرأة المتعلقة والعاملة نموذجا جديدا وصورة إيجابية للمجتمع عن المرأة، يتم ذلك عن طريق تجسيده في الواقع وبواسطة وسائل الإعلام.
- منح المرأة حقوقها بالتساوي مع الرجل من ناحية فرص العمل والترقية والتقاعد ... وغيره.
- تغيير كل القوانين التي تحد من عدم مشاركة النساء في النشاطات السياسية والثقافية والاقتصادية، واحترام الاتفاقيات الدولية التي وضعتها الدولة بخصوص المرأة، والتي تتماشى مع الشريعة الإسلامية.
- دعم كل المبادرات التي تعمل على الرفع من مستوى المرأة ونيلها لحقوقها كاملة.

ولتحقيق التنمية الاقتصادية لابد من الجدية في معالجة مثل هذه المطالب ولن يتم ذلك إلا بإرادة المرأة والرجل على السواء، فالتنمية ليست مساواة الرجل بالمرأة بل هي عملية خلق وإبداع للرجل والمرأة على حد سواء، ولن يتم ذلك إلا بخلق سياسات اقتصادية واجتماعية تضمن خلق مجتمع تسوده الحرية والعدالة الاجتماعية وتضع ثروات الدولة المادية في خدمة ثروته البشرية، وهذه الطموحات لن تتجسد في مجتمع نصفه يعاني الشلل بشكل كلي ومجتمع غير قادر على المساهمة المباشرة في حركة المجتمع.

الهوامش:

[1] لميمة أبو بكر شرين شكري، المرأة والجندر، إلغاء التمييز الثقافي والاجتماعي بين الجنسين، دار الفكر، ص 82.

[2] لاله بت سيد لمين، الهجرة الداخلية لمدينة نواكشوط دراسة، حالة عرفات، بحث لنيل دراسات عليا في الجغرافيا الاجتماعية، جامعة محمد الخامس الرباط المملكة المغربية 2002 ص56.

[3] النتائج الأولوية الإحصاء السكان والمساكن، المكتب الوطني للإحصاء السنة 2013، ص 1

[4] Résulta perioritaire du Recensement de la population et de L'habitat 1988. P13

[5] (Résultat prioritaire du Recensement de la population et de L'habitat 1988. Volume P14

[6] اعتمادا علي إحصائيات وزارة التعليم 2008.

المراجع والمصادر

- نتائج إحصاء 1977 المكتب الوطني للإحصاء.
- نتائج إحصاء 1987 المكتب الوطني للإحصاء.
- نتائج إحصاء 2000 المكتب الوطني للإحصاء.
- وزارة الوظيفة العمومية والشغل وعصرنة الإدارة.
- وزارة المرأة والشؤون الاجتماعية.

- تقرير حول سكان العالم 2002 "النساء والفقر والإمكانات".
- السكان والتنمية، مقاربة سوسيوتنموية، الدكتور سعاد نور الدين.
- دار المنهل اللبناني.
- "المرأة والجندر" إلغاء التمييز الثقافي والاجتماعي بين الجنسين.
- د. أميمه أبو بكر . د. شرين شكري . دار الفكر المعاصر . بيروت لبنان.
- المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثالثة.
- المرأة والعمل السياسي، رؤية إسلامية، هبة رؤوف عزت.
- دار المعرفة.
- إحصاء البنى التحتية والخدمات الصحية لمدينة نواكشوط 2012.
- مجموعة نواكشوط الحضرية.
- Mauritanie enquête démographique et de santé 2000-2001 0NS.
- L'enquête national mauritanienne sur la fécondité
- (ENMF) en 1981
- L'enquête de la population en 1976-1977
- Fécondité et ETHNIE en Mauritanie, préface de yues CHARBIT
- Keumaye IGNE GONGBA (1992)

التوسع الحضري والتنمية بمدينة كيفه

د. محمد محمود ولد المصطفى، جامعة نواكشوط، موريتانيا

المقدمة

تعتبر ظاهرة التمدين أهم المميزات التي طبعت المجال الموريتاني خلال العقود الأخير، وقد عرفت هذه الظاهرة نموا قويا تجلى في ارتفاع غر مسبوق للساكنة الحضرية، حيث شهد سكان مدن موريتانيا منذ بداية القرن 20 نمو متسارعا، إذ لم يكن يتجاوز مجموع سكان الحواضر سنة 1965 م 9.1% من السكان في حين تقدر تلك النسبة بـ 48.3 %حاليا، ولم يكن التمدين في موريتانيا نتاجا لتحولات تقنية واقتصادية على غرار الثورة الصناعية التي أفرزته في أوربا، بل اتخذ طابعا ديمغرافيا تغذيه الأزمة التي اخترقت الأرياف الموريتانية في القرن20 وتخترقها في الحالي، جراء اكتساحها من طرف موجات الجفاف وتقدم جبهات التصحر ولانفتاح القسري على اقتصاد السوق، والإقصاء الذي طالها من طرف الأنظمة التي تعاقب على الحكم في البلد، وكانت هذه الأزمة سببا في اندلاع هجرة القرويين نحو المدن.

وإذا كانت الظاهرة الحضرية قد أصبحت تفرض نفسها كواقع في جميع ولايات الوطن وتساهم في تاطير المجال الريفي من خلال الخدمات التي تقدمها فان الاختلال الذي يميزها أبقى على الفوارق المجالية الكبيرة، وبالتالي ظلت المدن(نواكشوط، نواذيبو) الكبيرة تفرض هيمنتها على باقي المدن الأخرى والملاحظ حاليا، نمو مضطردا لعدد من المدن التي تنمو وتتطور عبر المجال الوطني يعرف هذا النسيج الحضري تنوعا من حيث تعدد مدنه ونمو سكانه وتوسع عمرانه. فالملاحظ التوسع الذي تشهده مدننا، سيقف على ظاهرة ذات امتداد مجالي شاسع وتوزيع مختل وغير منتظم، نتج عن نقص في التجهيزات والبنيات التحتية ومشاكل التنقل وتدهور المرافق العمومية والتوسع العشوائي للبناء وتدني إطار العيش وهكذا يتبن أن ضعف التحكم في التوسع الحضري[1] يشكل عائق أمام تنمية مدننا ومما لاشك فيه أن تقاعس العمومية عن اتخاذ إجراءات للحيلولة دون استمرار إنتاج هذه الأشكال من التوسع العمراني، وهكذا اهتمت الدراسات الحضرية خلال السنوات الماضية بمدينة نواكشوط دون أن يتجه اهتمام الباحثين نحو المدن الداخلية في سياق تفكير في تحويل هذه المدن أقطاب محلية للتنمية، بغية التخفيف من ضغط الهجرة على مدينة نواكشوط.

أهمية البحث:

يكتسي موضع التوسع الحضري والتنمية الترابية بمدينة كيفه أهمية بالغة على اعتبار أنها تنمو بشكل مثير للانتباه، وأصبحت لها انعكاسات مجالية، فالمدينة تقع ضمن مجال عرف تهميشا وإقصاء في عمليات التنمية منذ الاستقلال وتأثر كثيرا بالظروف المناخية الصعبة جراء موجات الجفاف. فظهرت المدينة كقطب ديمغرافي في أمس لحاجة إلى لفة من طرف الدولة وجعله قطب تنموي يؤطر ويهيكل الجزء الجنوب–الشرقي من البلاد وذلك من خلال الموقع الاستراتجي الذي تتمتع به المدينة.

منهج البحث

تم الاعتماد على مجموعة من المناهج؛ بهدف الإحاطة بكل جوانب البحث، كان في مقدمتها استعمال المنهج الاستقرائي لتحليل الظواهر والأحداث؛ ثم المنهج الاستنباطي الذي يجسد الانتقال من العام إلى الخاص؛ ومن الكل إلى الجزء. والمنهج التاريخي والمنهج الوصفي لتوطين بعض الظواهر التي تمت مشاهدتها أثناء العمل الميداني. وأخيرا ما يمكن أن نطلق عليه المنهج النسقي، بهدف تحديد الظواهر وإسقاطها تبعا لمواطن القوة والضعف المحددة لعوامل التنمية الترابية المستدامة.

وتُوجت هذه الخطوة، بالشروع في إعداد الاستمارة النهائية وأثناء هذه الخطوة تم اختيار عينة تمثلت في 740 أسرة، حدد حجم هذه العينة انطلاقا من عدة المعايير، أهمها التجانس النسبي للمجتمع المدروس، والهدف الكمي والنوعي للبيانات، لذلك تم اختيار ثلاثة أحياء في المدينة، وذلك من أجل الاطلاع ميدانيا على جملة من المعطيات تتعلق بالظروف الاجتماعية والاقتصادية للأسر.

المحور الأول : دينامية المجال الحضري

يشكل التوسع الحضري الخاصية الأكثر بروزا في كل المدن، فهو بذلك يحظى باهتمام العديد من الباحثين كموضوع لدراسة ونظرا لهذا الاهتمام المتعدد، فقد أصبح توسع المجال الحضري حقلا للعديد من النظريات والتفسيرات، إلى درجة انه أصبح يشكل حلبه صراع بن العديد من التيارات في العلوم الاجتماعية. ورغم تباين الخلفيات المتحكمة في هذه التيارات، فان معظمها يلتقي عند العناصر المرتبطة بالنمو الديمغرافي والمسالة العقارية والوظائف الحضرية وتطور الأنشطة الاقتصادية ..... ويرتكز جوهر الاختلاف بينهما، في إعطاء الأولوية لأحد هذه العناصر، وجعل الآخر تصبح مجرد نتائج له. ولذلك فان فك تشابك خيوط هذا الموضوع، يقتضي تحديد ادوار الفعاليات المتحكمة في توسع ذلك المجال، من خلال أشكال التحولات المجالية، التي عرفتها مدينة كيفه لنتمكن من الوقوف على معرفة دينامية المجال وأشكال استغلاله ، وتقويم الوضع الحالي والتوجهات المستقبلية.

عرفت مدينة كيفه منذ نشأتها كمركز استعماري في مطلع القرن العشرين 1907 تحولات عديدة من أبرزها ارتقاءها الإداري إلى عاصمة ولاية وأوكلت لها الدولة وظيفة التاطير والتنظيم الإقليمي بولاية لعصابه، وشهدت عدت تطورات تجلت ملامحها من خلال التطور السريع لسكانها وتوسع مجالها الحضري.

إن استحضار عوامل التوسع الحضري لمدينة كيفه يعبر عن أهمية تفسير الحاضر بواسطة الماضي، وكذا رصد توسع المجال بشكل دينامكي أي استرسال توسعه من الماضي في اتجاه المستقبل، والذي بدونه لا يمكن بلوغ فهم عميق لترابية هذه العوامل في الوقت الحاضر، ودور كل واحد منها في توسع المجال الحضري. ويمكن الوقوف على أبعاد هذه العوامل المجالية من خلال دراستها على النحوي التالي:

أ. عوامل النمو الحضر بمدينة كيفه

تدخل مقاربة النمو الحضري في إطار نقل تفسير دينامية المجال، من المستوى المجالي المحض إلى مستوى المدينة كشكل ومضمون في آن واحد. وتكمن أهمية ذلك في الربط بين مختلف المستويات الكامنة خلف العوامل المفسرة للنمو الحضري.

I.1. البعد الديمغرافي:

يعتبر العامل الديمغرفي وعلى رأسه الهجرة أحد الأولويات في دراسة التوسع الحضري التي بنيت عليها مدرسة شيكاكو في العشرينات من القرن الماضي حيث لقت إقبالا كبيرا في تفسير النمو السريع الذي تشهده المدن في العالم الثالث[2]. وإذا كان، النمو اليمغرافي قد لعب دورا إيجابا في بداية نشأة المدن، فقد أصبح فيما بعد مصدر اختلالات حينما لا يواكبه نموا في الاقتصاد الحضري، يكون كفيل بأن يوفر الشغل وموارده العيش للسكان الحضريين الوافدين على المدينة.

I.1.1. النمو السكاني للمدينة خلال 1962 .1977

ارتفع عدد سكان مدينة كيفه من 4400 نسمة سنة 1962 إلى أكثر من10000 نسمة سنة 1977م أي بنسبة تزايد سنوي وصلت إلى 6.11% [3]، و تميزت هذه الفترة بحدث هام تمثل في أزمة الجفاف وتدهور الحياة الريفية وبالتالي هجرة الأعداد الكبيرة من السكان المنكوبين إلى المراكز الحضرية بحثا عن ظروف أحسن، بالإضافة إلى تعزيز البنية التحتية للمدينة كما أنها شكلت مركزا لتوزيع المساعدات الغذائية الممنوحة من طرف الحكومة للمنكبين من جراء موجات الجفاف. وهكذا، فان كانت الهجرة قد لعبت دورا إيجابا في بداية نشأة المدن، فقد أصبحت فيما بعد مصدر اختلالات حينما لا يواكبها نمو في الاقتصاد الحضري، يكون كفيل بان يوفر الشغل وموارد العيش للسكان الحضريين الوافدين على المدينة.

I.1. 2 . النمو السكاني للفترة 1979 . 2013

خلال هذه الفترة ، أظهرت نتائج التعدد الذي اجري في عام 1988م، أن سكان مدينة كيفه بلغ حوالي (29292) نسمة بينما كان في عام 1977 حوالي (107030) نسمة وهذا يعني أن ساكنة المدينة، قد تضاعف ثلاث مرات خلال عشر سنوات؛ وبمعدل نمو سنوي قدر بـ 10% وهذا النمو السكاني، يعتبر من معدلات النمو المرتفعة نسبيا مقارنة بمعدلات النمو لكثير من مدن العالم.

وقد تميزت هذه الفترة باستمرار أزمة الجفاف، فقد بنت دراسة قام بها البنك الدولي 1988 لفائدة الشركة الموريتانية للبناء والتسيير العقاري أن (68%) من السكان استقروا في المدينة آنذاك إثر سنوات الجفاف خصوصا السنوات (1985–1981)[4]. كما تميزت بحدث هام تمثل في ربط المدينة بالعاصمة نواكشوط ويمثل الطريق الجديد ميزة هامة وايجابية انعكس إشعاعها على مختلف مجالات الحياة في المدينة وبواديها، ففي البداية لم يعبد من هذه الطريق إلا الجزء الرابط بين نواكشوط وكيفه الأمر الذي شجع على جعل هذه المدينة المحطة الأخيرة وبذلك أصبحت مركزا مهما لتوزيع البضائع في الداخل.ذ وفي سنة 2000 م بلغ سكان مدينة كيفه (41567) نسمة، بمعدل نمو سنوي (6%) وهذا المعدل بالمقارنة بالمعدلات السابقة التي مرت بها المدينة يعتبر منخفض بسبب تراجع محدود لتيارات الهجرة الريفية؛ بيد

أن المدينة ستعرف نمو متسارعا خلال الفترة ما بعد سنة 2000 ويعزى ذلك لتدهور الظروف المعيشية في الأرياف فالمنطقة عرفت تراجعا كبيرا في التساقطات المطرية وهجرة مهمة من المناطق الزراعية إلى المدن[5] و بلغت مساحة مدينة كيفه 18.55 كلم[2] سنة 2006 [6].

الشكل (1) تطور سكان مدينة كيفه.

I. 2 . الأوضاع القانونية للأراضي ساهمت في التوسع المجالي.

إن التحكم في المجال من اجل تنظيمه وتوجيه التوسع الحضري يفترض وجود سند أو إطار قانوني تعتمد عليه لسلطات العمومية في تدخلاتها على المستوى العقاري وعلى مستوى التخطيط الحضري؛ وتعتبر وثائق التعمير إطارا قانونيا للتخطيط وأداة أساسية لاستغلال الأراضي الحضرية وضمان حسن استعمالها على المدى البعيد والقريب. ولهذا فإن سيادة الملكية العقارية الخاصة على حساب الملك العام للأراضي في مدينة كان وراء الوسع الفوضوي للإطار المبني لمدينة كيفه وذلك من خلال ظاهرة المضاربة العقارية وتجميد الأراضي وجعل أقلية من الفاعلين تتحكم في السوق العقارية و في نمط عيش أغلبية الساكنة. فالارتفاع المتزايد لاثمان الأراضي لا يؤدي فقط إلي استقرار الأسر في أطراف المدينة ولكنه يؤثر سلبا على العدالة الاجتماعية ويعيق سياسة التخطيط الحضر المنشودة.

II – أشكال توسع المجال الحضري : توسع أفقي

يعتبر توسع المجال الحضري عن التحولات المجالية التي تحدث من خلال معرفة جوانبه الكمية والكيفية والقوى المتحكمة فيه والأغراض التي يسخر لخدمتها والتي بدونها تصبح دراسة أشكال التوسع المجال مجرد عملية وصفية لا أهمية لها في حد ذاتها. فالمدينة لا تنتج نفسها أو تعيد إنتاج نفسها فقط انطلاقا من الهياكل المادية التي يتمك تشييدها أو تجديدها وإنما تعيد إنتاج نفسها أيضا من خلال استغلال الإنسان لهذه الهياكل[7]، ومن ثمة فإن توسع المجال الحضري عبر عن كيفية هذا الاستغلال.

أدى النزوح الريفي لسكان البدو والقرى باتجاه مدينة كيفه بحثا عن ظروف أحسن بعد تكرار دورات الجفاف الذي قضى على جل ثروتهم من الماشية، وحكم على المساحات الزراعية بالتراجع وتدني الإنتاجية، إلى أن عرفت المدينة نموا مجاليا سريعا، ففي سنة 1958 كان المجال المبني بمدينة كيفه يتمثل في حي القديمة والحي الإداري فقط ويحيط بهما الوادي (البطحاء) من ثلاثة جهات (الشمال –

الغرب– الجنوب)، وليست هناك فرصة للتوسع إلا باتجاه الشرق، وهو ما سيكون مع مطلع العام 1962 حين توسعت المدينة باتجاه الشرق، وبعد ذلك ظهرت أحياء لقليك وسيف أشريف في نفس الاتجاه تقريبا مع الانزياح باتجاه الشمال بالنسبة لحي سيف أشريف، وخلال الفترة ما بين 1971 – 1984 عرفت المدينة توسع عشوائي كبير ناجم عن تنامي حركات النزوح من الأرياف، تسبب في ولادة حي اتويميرت في الجزء الشرقي دائما ثم حي سكطار الذي سيمثل أول الأحياء الممهدة لتوسع المدينة باتجاه الغرب متجاوزا إشكالية إكراه الوادي، وربما كان السبب في ذلك أن أغلبية ساكنته قادمة أصلا من الأجزاء الغربية والشمالية الغربية من المقاطعة، وبالتالي كسر هذا الحي رتابة مظهر التوسع في اتجاه واحد التي دامت لمدة طويلة[8].

وخلال الفترة ما بين 1984–1994 تم توزيع القطع الأرضية تبعا للتقطيع المعد من طرف السلطات الإدارية للمدينة، فتزايد ظهور مجموعة من الأحياء المتشتة والضعيفة الاندماج في آن معا، حيث أصبحت المدينة تتوسع على جميع الاتجاهات، ولم يعد مشكل الوادي مطروحا نظرا لكونه أصبح يقسم المدينة على ثلاثة أجزاء، هكذا ظهرت أحياء "بلمطار" و"بولنوار" في الجزء الشمالي الغربي على الطريق الوطني (طريق الأمل) "كيفه– نواكشوط"، ثم حي المطار على المحور الطرقي الترابي "كيفه– كنكوصة"، وحي "العنكار" على المحور الطرقي الترابي "كيفه– لقران"، وأحياء "النزاهة" و"عرفات " على المحور الطرقي الوطني" كيفه – النعمه"، ثم توسعت المدينة باتجاه الشمال الشرقي فظهرت أحياء "لقليك" و"صونادير"[9] وإن كان ذلك لم يأخذ بعين الإعتبار مستوى الكثافة السكانية، وضرورة التركيز عليها كمعيار عند عملية التجهيز، حيث لا تزال الفوارق كبيرة فيما بين الأحياء فأكثرها كثافة سكانية هو أقلها حظا في مستوى التأهيل.

جدول (1) توزيع السكان حسب الأحياء والكثافة السكانية سنة 2006.

اسم الحي	المساحة	عدد السكان	عدد الأسر	الكثافة
1القديمة	0 .52 كلم^2	2500	357	48 ن/ كلم^2
2أدباي	0.86.92 كلم^2	1116	159	133ن/ كلم^2.
3الجديدة	0.50. كلم^2	3095	422	60ن/ كلم^2
4الحي الإداري	0.71.28 كلم^2	795	114	11 ن/ كلم^2
5سكطار	2.29 كلم^2	13722	1960	60ن/ كلم^2
6اتويميرت	2.15 كلم^2	5906	843	28ن/ كلم^2
7القليگ	1.76كلم^2	3748	535	21 ن/ كلم^2

8السيف	0.55 كلم^2	7870	1124	141ن/ كلم^2
9النزاهة	1.49 كلم^2	2901	414	20ن/ كلم^2
10السياسة	0.45 كلم^2	1451	207	33ن/ كلم^2
11حي المطار	0.44 كلم^2	500	71	12ن/ كلم^2
12اهل انتو	0.4 كلم^2	5254	750	131ن/ كلم^2
13اخويندي	0.23 كلم^2	7010	1144	304ن/ كلم^2
14حي العنگار	1 كلم^2	1547	221	16ن/ كلم^2
15امصيكيلة	1.15 كلم^2	2945	420	26ن/ كلم^2
16بولنوار	0.6 كلم^2	4876	696	82ن/ كلم^2
17بلمطار	2.97 كلم^2	2991	426	11ن/ كلم^2
المجموع	18.55كلم^2	68227	9863	36.8ن/ كلم^2

Source : programme de développement urbain .ville de kiffa 2006.

يتضح من خلال الجدول السابق، أن الكثافة السكانية بالوسط الحضري ترتفع أساسا في أربعة أحياء، هي حي اخويندي 304ن/ كلم^2، وحي سيف أشريف 141ن/ كلم^2، وحي أدباي 133ن/ كلم^2 وحي أهل انتو 131ن/ كلم^2 وكلها أحياء تقع في أطراف المدينة، وذات مستوى تجهيز ضعيف خصوصا في أحياء اخويندي وأهل انتو، هذا على الرغم من أنها ليست من ضمن الأحياء المتشكلة حديثا،مما يعني غياب العدالة في توزيع التجهيزات داخل الفضاء الحضري لمدينة كيفه، وبرجوعنا إلى الجدول نجد أن الكثافة السكانية بالوسط الحضري تتباين بشكل واضح، فإذا كانت هناك أحياء متوسطة الكثافة بحيث تتراوح ما بين 30 إلى 61 ن/ كلم^2 فان هناك أخرى تقل الكثافة فيها عن 15ن/ كلم^2 كما هو الشأن في أحياء الحي الإداري وحي والمطار.

المحور الثاني : التشخيص الترابي لمدينة كيفه

تشكل التنمية الترابية إطارا لبلورة مختلف المشاريع، التي ترمي إلى تحسن جودة وصورة التراب وجعله وأكثر قابلية للحياة البشرية ومتكيفا مع مختلف الحاجيات الآنية والمستقبلية وهذا لن يتأتى إلا من خلال القيام بتشخيص يقودنا إلى التمعن في الوسط الذي نعيش فيه ومساءلته والتركيز على الخصائص أي تشخيص الواقع والتعرف على مواطن القوة والضعف والمخاطر.

لقد ترتب علي النمو السكاني المتسارع الذي شهدته مدينة كيفه ظهور أزمة حضرية شاملة وعميقة وضعت المدينة تحت ضغط عدد من التحديات التي لم تستطع مختلف السياسات الحضرية التي اتبعت حتى الآن علي التعامل بشكل فعال مع تداعياتها السكانية والاقتصادية والمجالية. ويأتي علي رأس تلك التحديات ارتفاع معدل الفقر الحضري إذا يبلغ معدله 39.4%[10]، يتمثل التحدي الثاني في ارتفاع معدلات

البطالة التي بلغت 32.2% سنة 2008. وقد شكل القطاع غير المصنف ميدانا طبيعيا لامتصاص تلك المعدلات المرتفعة للبطالة مع ما يترتب علي حله من تداعيات سلبية علي الاقتصاد الحضري للمدينة، إما التحدي الثالث فيتمثل في نمو سكانها الجامح وبتوسعها المجالي المتسارع. والحالة هذه تظهر اليوم عدة محاولات لحل هذه المشاكل من خلال تصور يعتمد المشروع الحضري منهجا وخيارات المشاركة والتوازن البيئي والجدوائية في المشاريع الاقتصادية وسيلة وهدفا.

أولا :وضعية السكـــن الحضـــري:

يشكل نمط المسكن، والتسهيلات التي يتيحها للأسرة، مؤشرين على تقييم مستوى الرفاهية الإجتماعية والإقتصادية التي يتمتع بها السكان، ويندرج تحليل وضعية السكن بمنطقة الدراسة كونه يعكس وبقوة الواقع المعيشي لدى الأسرة التي تعيش بالمنطقة، كما يشكل أحد المكونات الهامة للتنمية البشرية المستدامة. وحسب التحريات الميدانية التي قمنا سجلت أعلى نسب للسكن الصلب39.2% (الدار بالأسمنت) ويأتي في المرتبة الثانية السكن المختلط بنسبة 31.6% الذي هو عبارة عن (الخيمة وعريش مبني بالاسمنت أو عريش و بيت من الأسمنت)، وفيي المرتبة الثالثة السكن الهش بنسبة 29.2% الذي هو عبارة عن (الخيمة أو الكوخ أو بيت من الطين)،.

الجدول (2) نوع السكن حسب الأسر المستجوبة بمدينة كيفه

نوع السكن / الأحياء	صلب		هش		مختلط		المجموع	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
حي الجديدة	134	18.1	44	5.9	20	2.7	198	26.7
حي أدباي	69	9.3	156	21	54	7.3	279	37.7
حي النزاهة	87	11.7	16	2.1	160	21.6	263	35.6
المجموع	**290**	**39.2**	**216**	**29.2**	**234**	**31.6**	**740**	**100**

المصدر:البحث الميداني2013.

الصورتان رقم (1) تبين أنواع السكن في مدينة كيفه

4 يغلب على حيازة السكن طابع الملك الخاص

إذا كان الحديث السابق عن المسكن ونوعه وحجمه، يعتبر أساسا لفهم مستوى معيشية هؤلاء السكان، إلا أن الطريقة التي تحصل عليها الأسر على مسكنها تعتبر كذلك لها مدلولاتها .وفي مدينة وحسب الأسر المستجوبة، نجد طابع الحيازة يغلب عليه الملك الخاص بلغت نسبة) 97.6%، مقابل 2.7% سبة السكن المؤجر، ويعزى ارتفاع مؤشر كراء السكن في المدينة إلى وجود بعض من أسر الموظفين الحكوميين، بالإضافة إلى بعض من الأسر التي لم تتمكن بعد من بناء مسكن لها. وعلية فإن السكان في مدينة كيفه يميلون إلى طابع التملك الخاص للمسكن بصفة أساسية على الرغم من ضعف التجهيز في هذه المساكن عموما. ويبين الجدول التالي الوضعية القانونية للسكن بالنسبة لأرباب الأسر المستجوبة في مدينة كيفه.

الجدول (3) الوضعية القانونية للسكن بالنسبة لأرباب الأسر المستجوبة بمدينة كيفه.

نوع حيازة المسكن	ملك خاص		كراء		سكن وظيفي		مجاني		أخر		المجموع	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
حي أدباي	274	37	0	0	0	0	5	0.7	0	0	279	37.7
حي الجديدة	191	25.8	7	0.9	0	0	0	0	0	0	198	26.7
حي النزاهة	250	20.3	13	1.7	0	0	0	0	0	0	263	35.6
المجموع	715	97.6	20	2.7	0	0	5	0.7	0	0	740	100

المصدر :البحث الميداني2013.

ثانيا : الخدمات الاجتماعية

تعاني المدينة من تناقضات كبيرة بين المركز والأحياء الهامشية و بما أن التجهيزات العمومية تشكل العامل الأكثر تأثيرا في تباين المجال، فانه يمكن رصد ارتباط التناقضات المجالية بكيفة الاستجابة لحاجيات السكان. فمدينة كيفه تعرف تركزا كبرا لهذه المرافق في بعض أجزاء المجال الحضري دون غيره. وازدادت التناقضات المجالية مع التوسع الكبير لمجالها الحضري الذي تم في غياب البيات التحتية. انطلاقا من هذا سنحاول دراسة هذه التجهيزات على مستوى المجال الحضري لهذه المدينة عن طريق التمييز بين أنواع التجهيزات بهدف تحديد مكامن القوة ومواطن الضعف وسيكون لهذا التميز دور كبير في معرفة مدى التحولات التي تشهدها المدينة.

1- **التعليم الابتدائي بالمدينة:** إذا كان عدد المدارس المجال الحضري قد قفز من 15 مدرسة سنة 1998 [11] إلى ما مجموعه 45 مدرسة سنة 2011. وبلغ عدد المعلمين من97 معلما سنة 1998 إلى 266 معلما سنة 2009 [12]. فإنه كذلك تميز بعجز كبير في المؤسسات التعليمية عن استيعاب جميع التلاميذ سن الدراسة الابتدائية مثل الاكتظاظ وضعف التجهيز المدرسي، هذا الوضع أصبح سمة بارزة تمتاز بها المدارس في مدينة كيفه الشيء الذي ينم عن نقص المباني والفصول الدراسية. وتعاني المنشأة التعليمية من سوء التوزيع المجالي، إذ توجد أحياء بدون مدارس، كما أن المدارس الابتدائية تفتقر إلى المعدات اللازمة كالطاولات والمقاعد....الخ.

الجدول (4) تطور بنية التعليم الابتدائي في مدينة كيفه خلال الفترة 1998–2010.

مدينة كيفه	1998	2010
عدد المدارس	15	45
عدد التلاميذ	5376	9446
عدد الحجرات	112	176
عدد المعلمين	97	266
عدد التلاميذ/للحجرات	48	53
عدد التلاميذ/للمعلم	55	36

المصدر:الإدارة الجهوية لتعليم بكيفه 2010 .

يبين الجدول أعلاه، تطور بنية التعليم الابتدائي، إذ نجد أن أعداد التلاميذ قد ارتفع من 5376 خلال سنة 1998 إلى 9446 تلميذا سنة 2010، وبلغت نسبة التلاميذ للمعلم الواحد 36 تلميذا، بعد ما كانت تمثل 55 تلميذا للمعلم الواحد سنة 1998 تمثل نسبة البنات (49.4%) من مجموع التلاميذ إلا أن هناك تفاوتا واضحا بين الأحياء من حيث توزيع المدارس، كما أن بعض المدارس ناقصة من حيث الحجرات وتوجد نسبة (42%) من الحجرات في حالة سيئة، ذلك أن التوسع الحضري السريع جعل المدينة تنمو دون أن يرافق ذلك التجهيزات اللازمة.

الخريطة (1) التوزيع المجالي للمنشآت التعليمية في مدينة كيفه.

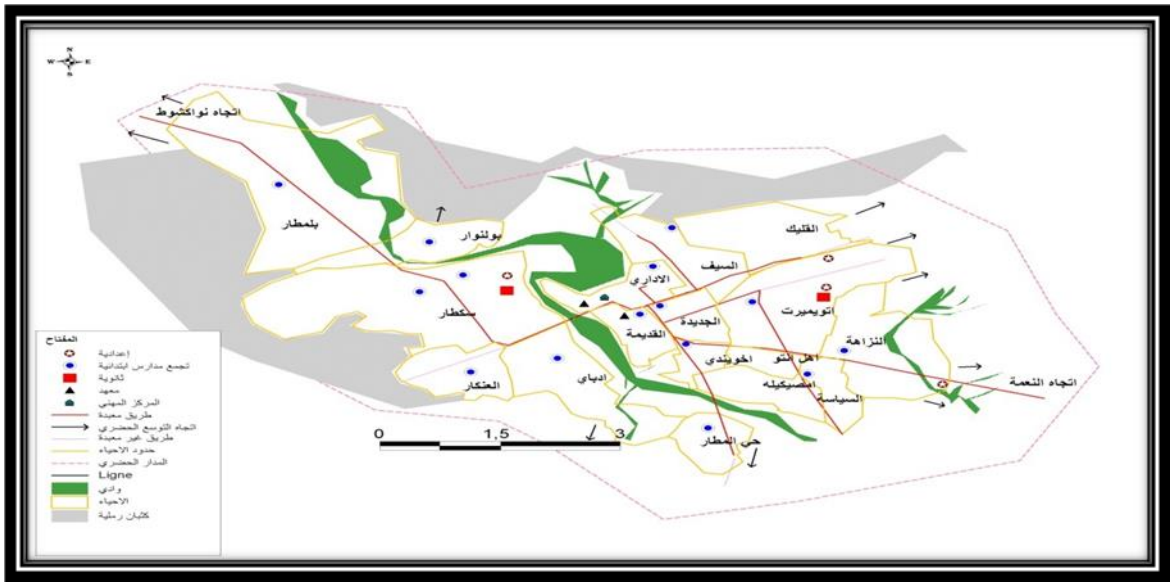

المصدر:مصلحة العمليات العمرانية بوزارة الإسكان والتعمير والاستصلاح الترابي بتصرف من الباحث.

2-لتعليم الثانــوي: تتوفر مدينة كيفه 6 مؤسسات للتعليم الثانوي وقد شهد عدد التلاميذ على المستوى الجهوي تطورا مهما، بحيث ارتفع عدد التلاميذ من 2208 تلميذا من بينهم 1587 ذكورا و621 إناثا سنة 1995 [13]، إلى 4680 تلميذا من بينهم 3399 ذكورا و2413 إناثا سنة 2011. ولا تتوفر منشآت التعليم الثانوي على بنية تربوية كافية لاحتضان التلاميذ الوافدين عليها، فغالبا ما تكون الحجرات غير مكتملة التجهيز، كما تعاني من نقص في التأطير من طرف الموارد البشرية، وتطرح مشكلة النقل الطلابي كمشكلة رئيسية يعاني منها الطلاب وكذلك السكن.

الجدول (5) البنية التربوية للتعليم الثانوية في مدينة كيفه سنة2011.

مدينة كيفه	المؤسسات	الحجرات	عدد التلاميذ			عدد الأساتذة	عدد المؤطرين
			الذكور	الإناث	المجموعة		
	ثانوية 1	22	625	475	1100	39	14
	ثانوية كيفه2	13	378	272	650	12	05
	إعدادية كيفه1	24	765	735	1500	44	11
	إعدادية كيفه2	13	400	350	750	19	10
	إعدادية كيفه3	9	270	220	490	15	05
	إعدادية كيفه4	4	190	100	290	08	04
	المجموع	85	2628	2152	4680	137	49

المصدر : الإدارة الجهوية للتهذيب الوطني – كيفة 2011.

ثالثا : الخدمات الصحية :نقص حاد يشهده القطاع:

يوجد بمدينة كيفه مستشفى جهوي، ومركز للصحة و 11 نقطة صحية، منها 3 نقطة تستغل في ظروف غير لائقة [14]، وتوجد نقطة صحية لا تعمل في الوقت الحالي، نظرا لعجز في الموارد البشرية الصحية. ويعاني المستشفى الجهوي بكيفه من ضعف في الميزانية المخصصة له ذلك أن الدولة تخصه فقط بـ 104 مليون مخصصة للتسيير والعمال، بالإضافة إلى أن هؤلاء العمال يتلقون (60%) من الدخل الذاتي للمستشفى. ويعرف هذا المستشفى نقصا كبيرا في الموارد البشرية فهو بحاجة إلى طبيب في الجراحة العامة، وإلى متخصص في الراديو وطبيب جراحة العظام ، أخصائي في الأمراض الباطنية ومتخصص في الإنعاش[15].

وفي هذا الصدد سجلنا استنكار بعض السكان لضعف الخدمات الصحية في المستشفى، حيث لا توجد به إلا بعض التخصصات المحدودة، ولا شك أن النواقص الملاحظة، رغم الجهود المبذولة على مستوى الوضعية الصحية العامة تفضي إلى ضعف في التغطية الجغرافية، ومحدودية في استخدام المرافق الصحية، وضعف في فاعلية النظام الصحي .

الجدول (6) البنية الصحية بمدينة كيفه سنة2011.

مقاطعة كيفه	البلديات	البنية			صيدلية		سيارات إسعاف
		مستشفى	مركز صحي	نقط صحية	عمومية	خصوصية	
		العدد	العدد	العدد	العدد	العدد	العدد
	كيفه الحضرية	1	1	**11**	11	35	**3**

المصدر : الإدارة الجهوية للصحة 2013.

الصورتان (2) تبين المستشفى الجهوي ومركز الصحي بكيفه

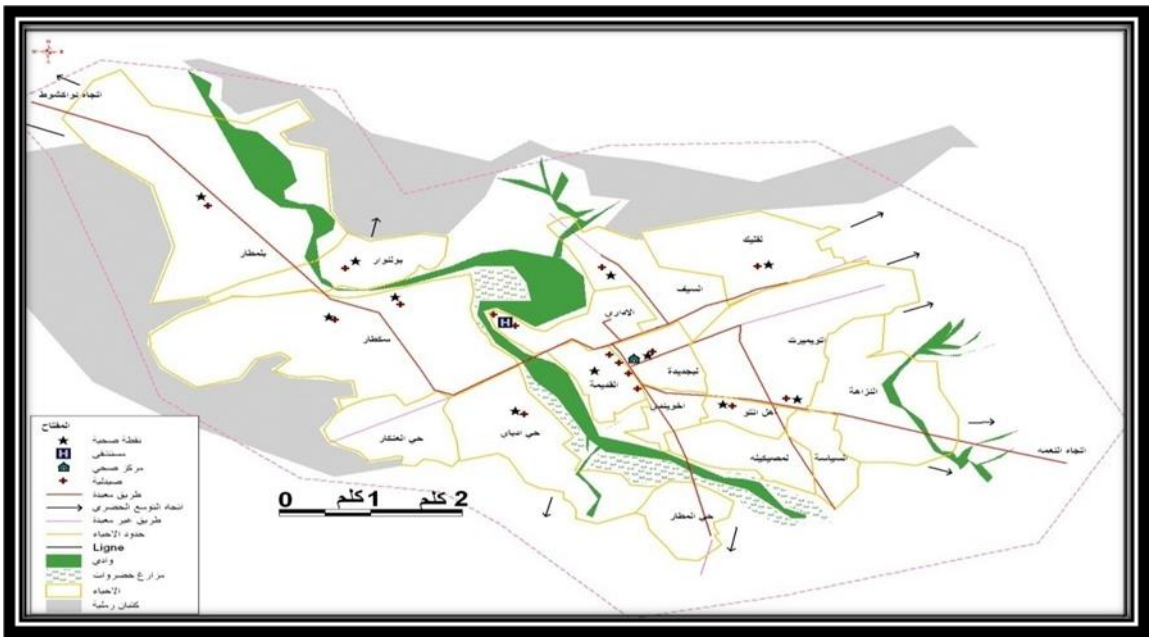

الخريطة (2) التوزيع المجالي للمنشآت الصحية في مدينة كيفه

رابعا : المرافق الثقافية والرياضية في المدينة

تتوفر مدينة كفيه على ملعبين رئيسيين، وهما الملعب البلدي الواقع بحي القديمة وملعب صونادير. هذان الملعبان تقام بهما المباريات المحلية والوطنية ويتسعان لاحتواء كم لا باس به من المتفرجين، لكنهما في نفس الوقت يفتقدان لأبسط ضروريات التجهيز. إذ لا يتوفران على مركبات ولا على أية بنية يمكن استغلالها لاستراحة اللاعبين ناهيك عن كونهما غير مزودين بالماء والكهرباء على الرغم من أهميتهما كخدمات لا يمكن الاستغناء عنها في أية بنية رياضية.

الصورتان (3) تبين أهم المرافق الرياضية في مدينة كيفه

1 المرافـق الإدارية تركز مجالي في الوسط الحضري: على الرغم من تنوع هذه الإدارات الحكومية

والمصالح، إلا أنها تتركز أساسا في مركز المدينة، خصوصا المرافق التالية: الولاية، المقاطعة، البلدية، الدرك الوطني، إدارة الجمارك، مفوضية الشرطة، مقر المحكمة ، الشركة الوطنية للماء وشركة الكهرباء..

2-**المرافـق الترفيهية:** لم تعد الخدمات الترويحية في المدن والمناطق الحضرية، مجرد قضايا ثانوية كما كان ينظر إليها سابقا و إنما أصبحت تشكل جوانب أساسية وجوهرية من حياة المدينة الحديثة، فمع النمو السريع للمدن وتطور أعدادها السكانية واتساع مساحتها وتزايد الضغط باستمرار على الخدمات الحضرية، باتت الخدمات الترويحية بمثابة الرئات التي يتنفس من خلالها المواطنون والمنتجعات التي يلجا إليها بحثا عن أماكن هادئة وممتعة.

3 -الساحات الخضراء: إن الساحات الخضراء بكل أشكالها تزداد أهميتها في المدن، ويصبح من الضروري التوفر عليها في الأحياء السكنية نظرا للأهمية التي تشكلها في حياة سكان المدينة، وأمام ظروف حياة السكان وضغوط العمل المستمرة وطبيعية العلاقات الاجتماعية بالمدينة، أصبحت المجالات الخضراء على تنوع أشكالها من الخدمات الأساسية بالمدينة، فلم تعد شكلا من أشكال جمالية المدينة بل حاجة ملحة تتطلبها ضرورة الحياة بالمدينة.

خامسا: البنيات التحتية في المدينة.

ا-ساكنة تشكو من عجز في المياه الصالحة للشرب:

ظلت مدينة كيفه تعتمد على الآبار في تزويد السكان بالماء الصالح للشرب، شأنها في ذلك شأن المجال الريفي هذه الآبار تم حفرها من طرف السكان في الأحياء، بالإضافة إلى بئرين تم أنشاؤهما من طرف الدولة على بعد 15كلم من كيفه، و يتم تسيير هذه الآبار من قبل البلدية بالتعاون مع الشركة الوطنية للكهرباء والماء في المدينة، إذ كانت توفر هذه الأخيرة 4 صهاريج، فيما كانت البلدية تعمل على بناء حنفيات عمومية في الأحياء، وتوفير صهريجين.

و في العام 2005، تم تزويد المدينة بشبكة مائية مصدر مياهها 5 آبار تم حفرها، وتشرف على هذه الشبكة الشركة الوطنية للماء الصالح للشرب، غير أن هذه الشبكة لم تستطع تغطية كل الأحياء بالمدينة، بل إن الأحياء التي ربطت بالشبكة المائية عادت من جديد إلى الآبار نظرا لعجز الشبكة عن سد حاجيتها من الماء. وقد قدر عدد الأسر المشتركة بـ 4712 أسرة مشتركة[16]. علما بأن المدينة تأوي أكثر من 10000 أسرة. ويحد من الربط بالشبكة عدة إكراهات تقف حجر عثرة أمام الأسرة في مدينة كيفه، ذلك أن تكلفة الاشتراك تبلغ 45000 أوقية، كما أن المشترك يتحمل تكاليف أخرى منها 800 أوقية دفع مقدم، وتكليف التوصيلة وتقدر بـ 6000 أوقية، وآلة التوصيل وتقدر بـ 25000 أوقية وهي تكاليف كبيرة تقف في وجه المواطنين بالمدينة .

الجدول (7) تراجع منسوب الآبار التي تعتمد عليهم الشبكة العمومية للماء.

الآبار	الكمية التي كان ينتجها	الكمية التي أصبح ينتجها يوميا
رقم1	21متر مكعب/ لساعة	13 متر مكعب/ لساعة
رقم2	12متر مكعب/ لساعة	5 متر مكعب/ لساعة
رقم3	6 متر مكعب/ لساعة	4متر مكعب/ لساعة

رقم4	15متر مكعب/ لساعة	12متر مكعب/ لساعة
رقم5	15متر مكعب/ لساعة	نضب بشكل نهائي

المصدر:الوكالة الوطنية للماء الصالح للشرب.

و لا تزال ساكنة هذه المدينة تعتمد على تأمين حاجياتها من الماء عن طريق جلب الماء من الآبار، أو من عند بائعه. و يعتبر مشكل المياه أحد أهم المشاكل التي تواجه ساكنة هذه المدينة.

الجدول (8) مصدر تزويد السكان بالماء الصالح للشرب حسب الأسر المستجوبة في المدينة.

مصدر الماء / الأحياء	حنفية عمومية		صهريج		بئر عصري		بائع ماء		المجموع	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
حي الجديدة	164	22.1	8	1.2	0	0	26	3.5	198	26.7
حي أدباي	197	26.6	26	3.5	0	0	56	7.5	279	37.7
حي النزاهة	123	16.6	12	1.6	36	4.8	92	12.4	263	35.6
المجموع	484	65.4	46	6.2	36	4.8	220	29.7	740	100

المصدر :البحث الميداني2013.

يظهر من خلال البحث الميداني، أن الأحياء المدروسة في المجال الحضري ترتفع فيها نسبة الأسر التي تستعمل الحنفيات الداخلية، بحيث أن (65.4%) من الأسر المستجوبة، مربوطة بالشبكة المائية العمومية، غير أن هذه النسبة تختلف حسب الأحياء المدروسة فقد بلغت في حي" النزاهة" (16.6%)، وفي حي "أدباي" (26.6%)، في حين بلغت نسبة الأسر التي تعتمد على الصهريج من أجل التزويد بالماء الصالح للشرب (6.2%)، ويجب أن نبين أن بعض الأحياء ما تزال العربات التي تبع الماء بنسبة (29.7%) وقد أجابت نسبة (4.8%) من الأسر المستجوبة أن الآبار تمثل مصدر تزويد بالماء الشروب بالنسبة لها.

II- الخدمات الكهربائية :عجز بمدينة كيفه

لفقد ظلت الساكنة بمدينة كيفه غير مربوطة بالكهرباء حتى سنة 1996، حينها استفادت، من مشروع كهربة عواصم الولايات الموريتانية، بمركز يولد الطاقة الكهربائية، غير أن هذا المركز الذي جاء متأخرا لم يلب حاجيات الساكنة ذلك أنه توجد لا تزال توجد أحياء غيرا مربوطة بالشبكة الكهربائية، وتعمل على تدبيره الشركة الوطنية للكهرباء[17]. وتبلغ طاقته الكهربائية (558126 kw)، ويبلغ عدد المشتركين فيها 5123 أسرة[18]. كما توجد العديد من الأسر على مقربة من الشبكة الكهربائية ولكن لم تستطع أن تشترك بالشبكة الكهربائية نظرا لارتفاع تسعيرة الكهرباء.

الجدول (9) مصدر الإنارة بالنسبة لأرباب الأسر المستجوبة في مدينة كيفه

مصدر	الشبكة الكهربائية	شموع	لمبه غاز	المجموع

الإنارة / الأحياء	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
حي الجديدة	198	26.7	0	0	0	0	198	26.7
حي أدباي	272	36.7	5	0.7	2	0.3	279	37.7
حي النزاهة	248	33.5	8	1.1	7	0.9	263	35.6
المجموع	718	97	13	1.8	9	1.2	740	100

المصدر :البحث الميداني2013.

يبين الجدول أعلاه، أن مصدر الإنارة بالشبكة الكهربائية بلغت نسبته (97%)، من مجموع الأسر المستجوبة، وتأتي في المرتبة الثانية الشموع بنسبة بلغت (1.8%) من مجموع الأسر المستجوبة، غر أن العديد من الأسر المستجوبة صرت على أن الكهرباء كثير الانقطاع.وبعضها أشار إلى ضعف في الإنارة العمومية في الشوارع وفي الاسواق.

III- الغاز هو المصدر الرئيس للطهي: تمكن العديد من الأسر في مدينة كيفه من دخول قنينة الغاز ضمن تجهيزات المنزلية، بنسبة 87.2% حسب التحريات الميدانية ورغم ذلك فأن طريقة الطبخ لا تزال تتم بظروف تنقصها السلامة. وقد صرح العديد من الأسر بغلي سعر القنينة، وأن الأسرة تستهلك خنشة من الفحم شهريا، ويبلغ متوسط سعر الخنشة الواحدة 2000 أوقية ويبلغ وزن الخنشة في أحسن الأحوال 30 كلغ، بينما يعتبر ارتفاع سعر الغاز وضعف التموين بهذه المادة في المدينة من أهم مشاكل استخدام الغاز لدى الأسر إذ يبلغ سعر القنينة الواحدة ذات الحجم الكبير 3000 أوقية. وهذا الاستهلاك الكبير للفحم الخشبي يرهن مستقبل الغطاء النباتي.

الجدول (10) المحروق الرئيسي المستخدم للطهي بالنسبة للأسر المستجوبة في مدينة كيفه.

نوع المحروق / الأحياء	الحطب		الفحم الخشبي		غاز		الحطب+فحم خشبي+غاز		المجموع	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
حي الجديدة	0	0	3	0.4	195	26.3	0	0	198	26.7
حي أدباي	0	0	49	6.6	204	27.6	26	3.5	279	37.7
حي النزاهة	0	0	17	2.3	246	33.3	0	0	263	35.6
المجموع	0	0	69	9.3	645	87.2	26	3.5	740	100

المصدر :البحث الميداني2013

IV - مدينة بدون صرف صحـي : لا تتوفر مدينة كيفه على شبكة للصرف الصحي، فالعديد من الأسر تلقي بنفاياتها، إما في الشارع مباشرة أو في حفر مطمورة، أو يتم إفراغها في وادي المسيلة، دون أن تخضع إلى أدنى معالجة، ونشير إلى أنه ونظرا لعدم وجود قنوات خاصة لتصريف مياه الأمطار، فهذه الأخيرة تؤدي إلى اكتساح العديد من المنشآت العمومية الحضرية، جارفة كل ما تجده من نفايات مختلفة، وملحقة أضرارا جسيمة على مستويات عديدة.

V -.الشبكة الطرقية و النقل الحضري : تتميز شبكة الطرق الحضرية بمدينة كيفه بالهشاشة، و نقص ذريع فيما يخص الطرق المعبدة باستثناء محور طريق الأمل الوطنية، الذي يمر من وسط المدينة على طول10 كلم و3 خطوط داخل المدينة،هذا العجز الكبير في مجال الطرق الحضرية، جعل العديد من الأحياء تعيش في عزلة شديدة ويجعل من خدمة النقل الحضري خدمة مفقودة في هذه المدينة.

ويلعب النقل الحضري دورا رياديا في تقوية العلاقة بين أحياء المدينة. وقد عرفت المدينة خلال السنوات الأخيرة انتشار وسائل نقل متنوعة ساهمت في فك العزلة عن العديد من الأحياء، غير أن ضعف وتدهور الشبكة الطرقية، يحدان من اتساع نطاق هذه الخدمات. فعلى مستوى النقل الحضري توجد سيارة أجرة من نوع مرسدس190 بكثرة و بفوضوية، كما تعد العربات التي تجرها الحمير، وسيلة نقل مهمة لشريحة لا يستهان بها من ساكنة هذه المدينة، وتوجد ثلاثة خطوط هي التي تسلكها سيارة أجرة صغيرة مرسدس 190 بتسعرة 100 أوقية، بينما تصل تكلفة الخطوط الأخرى إلى 500 أوقية وهي على النحو التالي:

خط مركز المدينة– حي سكطار – بلمطار؛

خط مركز المدينة– حي النزاهة؛

خط مركز المدينة– حي لقليك؛ ويعتمد السكان أساسا على النقل بالعربات التي تجرها الحمير "شاريت" في تحركاتهم اليومية وسيارة الأجرة. إلا أن ازدحام هذه العربات في الشوارع الرسمية للمدينة يمثل مظهرا غير لائق، بمدينة تعتبر من أكبر مدن البلاد وعاصمة لإقليم بكامله. وربما يرجع هذا التزايد في العربات والملفت للنظر في الحقيقة إلى أن السلطات البلدية المكلفة بمراقبة النقل لم تتدخل للحد من هذه الظاهرة، وإلى كون هذه السلطات تقوم بجباية الضرائب على هذه العربات التي يقدر عددها الآن بما يزيد على 1000 عربة، لذا فإنها تشكل مصدر دخل مهم للبلدية ، وبالتالي فإن تزايدها يعتبر عاملا محببا حتى ولو كان على حساب المظهر الحضري للمدينة.

VI -أسـواق عديمـة التجهيـز في مدينة كيفه: بحكم موقع مدينة كيفه الواقعة على طريق الأمل الوطنية، وقربها من دولة مالي،جعل النشاط التجاري فيها رائجا، كما تعتبر سوقا كبيرا للجزء الجنوبي من البلاد. إذ يوجد في المدينة سوق الجديدة المركزي؛ الذي يحتكر تجارة الجملة ونصف الجملة. وسوق "سكطار". كما تتوفر المدينة على 3 أسواق ثانوية؛ من أهمها سوق "اتويميرت"، وسوق "القديمة"، وسوق لبيع المواشي الذي يتم نقل المواشي منه إلى نواكشوط. إلا أن هذه الأسواق توجد في وضعيات غير مهيئة و لا تخضع لمعايير السلامة والجودة ، فكثيرا ما تتعرض للحرائق مثل ما حدث خلال سنتي

2009 و2010 وراح ضحيتها العديد من السلع التجارية، و أصبح توسيع الأنشطة التجارية على حساب الشوارع ،وتتسبب في ازدحام العديد منها.

سادسا : اقتصاد حضري هشا: تعتبر كيفه مركزا تجاريا هاما مستفيدة في ذلك من موقعها الاستراتجي في التراب الوطني، ومن محاذاتها لجزء من الحدود مع مالي، حيث تنشط الحركة التجارية والسياحية بين البلدين. و توجد بمدينة كيفه أربعة أسواق تجارية، و3 أسواق للمواشي، وفندقان وثلاثة نزل وثلاثة بنوك ومطار صغير، ويعتبر سوق الجديدة أهم أسواقها وقد زاد من أهميته توسط المدينة بين مدن الشرق والغرب فضلا عن توفرها على معبر حدودي مع جمهورية مالي ومن الناحية الجنوبية الشرقية من جهة "تناها" إضافة إلى كونها سوقا لمقاطعتي "سيلبابي "و"وول ينجه" التابعتان لولاية گيديماغا التي تعيش عزلة عن باقي مدن البلاد حيث ترتبط المدينة بهاتين المدينتين بواسطة طريق بري غير معبد وتنقل السيارات يوميا المسافرين والركاب بين هذه المدينة والمقاطعات المحيطة بها.

إن دراسة القطاع التجاري بالسوق المركزي لبلدية كيفه الحضرية تطرح صعوبة بالغة عند محاولة الفصل بين تجارة الجملة وتجارة التجزئة، فهذا القطاع يعاني من فوضوية خارقة نجم عنها عدم التخصيص، حيث نجد عدة أنواع من المواد في نفس المحل أو المؤسسة التجارية، كما أن معظم تجار الجملة لا يحترمون رخصة البيع بالجملة، فغالبا ما يتحولون إلى بائعين بالتجزئة، وبذلك يتخلون عن دورهم كمستوردين يؤمنون حاجيات تجار التقسيط إلى منافسين لهؤلاء. يمكن التمييز داخل أسواق المدينة بين الأنشطة التجارية التالية:

الجدول (11) الخدمات والأنشطة التجارية غير المصنفة بمدينة كيفه

النشاط	مدينة كيفه
نقاط بيع اللحوم"	100
فرن خبز تقليدي	220
مخبزة عصرية	1
المطاعم	51
مغسلة تقليدية	13
طاحونة حبوب	20
محلات الخياطة	18
محلات الحلاقة	37
محلات بيع الهواتف	35
محلات إصلاح الأجهزة	15
محل بيع قطع غيار السيارات	9

مراب إصلاح السيارات	9
محطات بيع الوقود	17
اللحامة	29
أخرى	12

المصدر: العمل الميداني 2013

سابعا: الصناعة التقليدية : تمثل الصناعة التقليدية أحد الأنشطة ذات الإسهام الواضح في هيكلة الأسواق بالمدينة، ، وقد ظل هذا النشاط مقتصرا على شريحة اجتماعية تعرف محليا بالصناع ، ويرتبط العمل بالبنية الأسرية، حيث تتوزع الورشات الصناعية على مجموعة من الأسر والعائلات المعروفة بتعاطيها لهذا النشاط منذ عهد قديم. وبعد التحول الذي عرفه المجتمع و تنامي ظاهرة التمدن والاستقرار كان الصناع هم أول من حس بأهمية الاستقرار لتطوير أنشطتهم، إذ كانت معداتهم متواضعة جدا وتتكون في الغالب من السنديان "الزبرة" والمطرقة "المعون" والكير "الحانوت" والمقبض والأدوات المساعدة كالمنشار والمبرد والنجار والملقط إلى غير ذلك، وتطال الصناعة التقليدية كل من الصناعة الجلدية و تشمل دباغة الجلود الخام وصناعة الوسائد والحقائب التقليدية وانتشار صناعة الحلي، كصياغة الذهب والفضة والحديد وصناعة الأخشاب صناعة الحصائر صناعة السياج.

الصورتان (4) تبين أشكال من الصناعة التقليدية بمدينة كيفه

ثامنا – مدينة تعرف مواسم سياحية مهمة

تعرف هذه المدينة تنظيم بعض المواسم ذات الطابع الديني والفلكلوري وعلمي وتنظيم مهرجانات، وتشكل هذه التظاهرات إحدى المناسبات التي تبرز فيها مختلف الموروثات الثقافية والشعبية للمنطقة، والتي يمكن أن تكون عاملا مهما في النهوض بالقطاع السياحي. كما تشهد موسم الكيطنه (فترة نضوج التمر) هذا الموسم يعتبر من أهم المواسم التي تعرفه المدينة نظرا للإقبال الشعبي الكبير الذي يعرفه من مختلف مدن وقرى الولاية، ومن أهم التسهيلات والخدمات السياحية في المدينة، فندقين ، بالإضافة إلى نزل تم إنشاؤها حديثا بحي القديمة على طريق المطار .

الخاتمة

لقد شكلت قضية تدبر المجال وإعداده، اكبر الإشكاليات المطروحة في موريتانيا على اعتبار إن جميع المقاربات الوطنية والمحلية وكذا القطاعية لم تحقق الأهداف المرجوة، بل ساهمت في تراكم التمايزات المجالية وتزايد التأخر الاقتصادي.

شهدت مدينة كيفه – منذ بعض الوقت– نموا سكانيا ومجاليا غير مسبوق كان له أشد الأثر في إحداث اختلالات حضرية واقتصادية عميقة على مستوى المدينة.وتأتي قضية التوسع الحضري فقي مدينة كيفه على رأس هذه الإشكاليات، الشيء الذي دفع بنا إلى البحث في هذا الموضوع . ولذا فان مقاربة التنمية الترابية تشكل اليوم نموذجا مرجعيا لانجاز برامج لاستثمار عامة ولتصور أفضل الاستراتجيات الفاعلين المحلين ولذالك ارتأينا الاشتغال على مقاربة الحي– المدينة، كمحاولة لمعالجة موضوع التوسع الحضري للمدينة ورسم رؤية ترابية، انطلاقا من الحي الذي يشكل الوحدة المجالية الأنسب، لتأسيس المشروع الحضري.

فمن خلال هذا المقال وقفنا على مجموعة من الاكراهات والمؤهلات التي تضع المدينة في مواجهة استثنائية، تتميز بتزامن استحقاقات، إلا أن حل هذه التحديات بشكل مزمن يمثل تحديا شاملا يستدعي التجنيد الشامل للمجتمع المدني والنخب الاجتماعية والمؤسسات العمومية وهذا التحدي يتطلب تغييرات عميقة في كل المجالات وأحيان إعادة نظر جذرية في سياسة تدبير المجال، التي مرت بها المدينة، وانطلاق من كل هذا أهم النقاط من اجل تأهيل المدينة التالية:

نعطي الأولية للمستوى الاجتماعي : عانت المدينة من انتشار البطالة واستفحال ظاهرة الفقر والعجز عن تلبية احتياجات سكان المدينة ومؤسساتها من الخدمات والتجهيزات الأساسية بشكل مرضي.

ويكمن التحدي الرئيسي من أجل توفير الخدمات الاجتماعية الأساسية مقاربة تشاركية وحوار بين المؤسسات الفاعلة السلطات المحلية والفاعلين الاقتصاديين والسكان للوصول إلى التطابق مع حاجيات والتطلعات المحلية على كافو المستويات ويتعلق الأمر على وجه الخصوص بتكوين مواطنة فاعلة وحكامة مسؤولة. فالهدف الأسمى لتطوير مدينة كيفه هنا يتمثل في النهوض بالعنصر البشري.

على مستوى تنظيم المجال: أمام التحديات التي يواجهها النمو الحضري لمدينة كيفه علي المستويات المؤسسية(تعدد المتدخلين وغياب التنسيق)، والتشريعية (غياب الوثائق التعمير)، والعقارية (عدم ضبط الجوانب العقارية) والمالية (ضعف التمويل المحلي) ، أضحى من اللازم انتهاج خطة عمرانية جديدة تهدف إلى إعادة صياغة آليات ومرجعيات التسيير والتخطيط الحضري بصورة أكثر ملائمة مع النمو الحضري المتسارع للمدينة وذلك من خلال تزويدها بالمخطط التوجيهي التهيئة والتعمير يعمل على عقلنة استغلال مجالها.

المستوى الاقتصادي: لا توجد تنمية بدون دينامكية اقتصادية، إنها شرط لاغني عنه من اجل تحسين الولوج إلى وسائل الإنتاج كما وكيفا. و إقامة البني التحتية ذات الحجم الهام (محطات حافلات، أسواق،

مؤسسات خدمية ...) في محيط المدينة، وتشكل الشراكة بين مختلف الفاعلين المتدخلين في التنمية.مقاربة مثلى لتحقيق هذا الهدف الذي يتطلب التنسيق بين الأعمال المختلفة والأنشطة المتنوعة.

على المستوى البيئي: نظرا للإشكاليات التي بات يطرحها هذا المعطى خاصة في ظل التوسع الحضري المستمر الذي تعرفه المدينة تبقى مواكبة هذا التوسع ضرورة حتمية لتجاوز هذه الإشكالات المطروحة على المستوى البيئي، فتحسين ظروف البيئة الحضرية يشكل إحدى ضروريات العيش الكريم.

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أن التوسع الحضري والتنمية الترابية بمدينة كيفه، عبارة عن مسلسل طويل ومسؤولية جماعية تقتسمها الدولة والمنتخبين المحلين، ويجب أن ينخرط فيه الخواص والمنظمات غير الحكومية والساكنة، في إطار تشاركي تفاوضي تعاقدي.لبلوغ تنمية ترابية ذات بعد استراتجي يراعي فيها واقع حال المدينة والبعد المستقبلي المتوخى من الجميع؛لان المستقبل الحضري لهذه المدينة يجب أن يساهم فيه كل الفاعلين بشكل تشاركي على نحو يضمن الحقوق والواجبات داخل دولتنا ومجتمع يكون مسؤول داخل المجالين الحضري والريفي، لأن هناك علاقات كبيرة بينهما على جميع المستويات، من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية بكل تجلياتها.

الهوامش:

[1] – يقصد به، انتشار الأشكال العمرانية التي ترتبط مع التجمعات الموجود من قبل ويجب أن يكون هنالك استمرارية لكي نستطيع أن نتحدث عن التوسع.

[2]. ناصر عبد الله ، الهجرة الداخلية لسكان المحافظات الشمالية في الجمهورية اليمنية 1975.1986 ، مركز عبادي للنشر 1998،ص،18.

[3] . محمد محمود ولد المصطفى، إعداد المجال والتنمية الترابية بولاية لعصابه حالة مقاطعتي كيفه وكنكوصه، بح لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل 2013–2014 ص 72.

[4]–Vincent BISSON. dynamiques comparées de l'urbanisation en milieu tribal(Tunisie-et Mauritanie) thèse de doctorat en géographie université de tours UFR de droit. D'économie et des sciences sociales 2005.Op.cit.192.

[5] –التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة والفقر 2005 ، الموضوع الخاص باللامركزية ، الحكم المحلي والتنمية البشرية المستدامة وزراه الشؤون الاقتصادية والتنمية ، ص9

[6]-République islamique de Mauritanie programme de développement urbain .ville de kiffa2006 .Op cit 12.

7 . الأمم المتحدة ، برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية ، الدورة الحادية والعشرون ، التوسع الحضري المستدام، نيروبي،16 .20 ابريل 2007 ص 10

8– محمد الأمين ولد لمات البلديات والتنمية المحلية بولاية لعصابه مقاطعة بلدتي كيفه واغورط نموذجا.) بحث لنيل شهادة الدراسات العليا المعمقة في الجغرافيا كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شعيب الدكالي 2007 ، ص 103.

[9]– مقابلة مع السيد محمد ولد محمد الأمين، رئيس المصلحة الفنية ببلدية كفيه بتاريخ2011

[10]– الجمهورية الإسلامية الموريتانية " ملامح الفقر في موريتانيا سنة 2008"، تقرير منشور، ص:96.

[11] - الجمهورية الإسلامية الموريتانية" التقرير العام للخطة العمرانية المرجعية لمدينة كيفه1999 " ص :14.

[12] -Ministère de l' Education Nationale ,annuaire statistique-.2008-2009 op.cit.9.

13– محمود محمود ولد المصطفى ، إعداد المجال والتنمية الترابية بولاية لعصابه حالة مقاطعتي كيفه وكنكوصه " مرجع سبق ذكره، ص :250.

[14]– مقابلة مع المدير الجهوي للصحة والعمل الاجتماعي بولاية لعصابه .2011 .

[15]– مقابلة مع فاك ولد أحمد باب، مدير الجهوي للمستشفى بكيفه بتاريخ2011.

[16]– مقابلة مع مدير الشركة الوطنية للماء الصالح للشرب بتاريخ.2011.

[17]– مقابلة مع مدير الشركة الوطنية للكهرباء بكيفه بتاريخ 2011.

[18] – مقابلة مع مدير الشركة الوطنية للكهرباء بمدينة كيفه بتاريخ 2011.

قائمة المراجع

– التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة والفقر 2005 ، الموضوع الخاص باللامركزية ، الحكم المحلي والتنمية البشرية المستدامة وزراه الشؤون الاقتصادية والتنمية

ـ الأمم المتحدة ، برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية ، الدورة الحادية والعشرون ، التوسع الحضري المستدام، نيروبي،16 .20 ابريل 2007

– الجمهورية الإسلامية الموريتانية " ملامح الفقر في موريتانيا سنة 2008"، تقرير منشور

– الجمهورية الإسلامية الموريتانية" التقرير العام للخطة العمرانية المرجعية لمدينة كيفه1999

محمد الأمين ولد لمات البلديات والتنمية المحلية بولاية لعصابه مقاطعة بلدتي كيفه واغورط نموذجا.) بح لنل شهادة الدراسات العليا المعمقة في الجغرافيا كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شعيب الدكالي 2007 .

– محمد محمود ولد المصطفى، إعداد المجال والتنمية الترابية بولاية لعصابه حالة مقاطعتي كيفه وكنكوصه، بح لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل 2013–2014

– ناصر عبد الله ، الهجرة الداخلية لسكان المحافظات الشمالية في الجمهورية اليمنية 1975-1986 ، مركز عبادي للنشر 1998.

– مقابلة مع السيد محمد ولد محمد الأمين ، رئيس المصلحة الفنية ببلدية كفيه بتاريخ2013

– مقابلة مع المدير الجهوي للصحة والعمل الاجتماعي بولاية لعصابه بتاريخ 2013 .

– مقابلة مع فاك ولد أحمد باب، مدير الجهوي للمستشفى بكيفه بتاريخ2013.

مقابلة مع مدير الشركة الوطنية للماء الصالح للشر مقابلة مع مدير الشركة الوطنية للكهرباء بكيفه بتاريخ 2013.

– مقابلة مع مدير الشركة الوطنية للكهرباء بمدينة كيفه بتاريخ.2013

–Vincent BISSON. dynamiques comparées de l’urbanisation en milieu tribal(Tunisie-et Mauritanie) thèse de doctorat en géographie université de tours UFR de droit. D’économie et des sciences sociales 2005

–République islamique de Mauritanie programme de développement urbain .ville de kiffa2006

- programme de développement urbain .ville de kiffa2006.–

Ministère de l’ Education Nationale ,annuaire statistique-.2008-2009

الأمن الإنساني و دور دولة الرعاية العربية في ظل العولمة

د. علاء زهير الرواشدة، أستاذ مشارك، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن
و دة. أسماء ربحي العرب، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن

المقدمة:

إن الدول العربية ومنذ استقلالها ولظروف واعتبارات خاصة سعت إلى تبني سياسة دولة الرعاية من أجل تحقيق رفاهية مواطنيها وتوفير الحماية لهم وصون أمنهم الإنساني والاجتماعي. وقد التزمت الحكومات العربية بهذا الدور طيلة العقود الماضية، إلا أنه من الواضح أن التغيرات الدولية تسير في عكس هذا الاتجاه وتبدو العولمة على رأس هذه التغيرات وما تتميز به من تكريس لانتصار المجتمعات الرأسمالية في المنافسة الاقتصادية والعلمية والتقنية وتعزيز وتعظيم الثروة والتفوق، ويبدو أن الأسلوب الناجح لا يتم بواسطة الجيوش والسلاح العسكري، وإنما بواسطة الاقتصاد والمال والتقنية والإعلام. كما ويعتبر كذلك تآكل سيادة الدولة من احد الآثار التي تنذر بها العولمة وذلك من خلال انتزاعها لهذه السيادة وتسليمها لمنظمات دولية أو كيانات عصبية أثنية وللمنظمات غير حكومية.

وتبدو الدولة العربية الأكثر عرضة لهذه الآثار بسبب موقعها الاستراتيجي ودخولها كطرف في الصراع العربي – الإسرائيلي إضافة للضعف والعجز الذي تعانيه على جميع المستويات مما جعلها تجد نفسها ضعيفة وغير قادرة على مواصلة تلك الأحكام القاهرة.

وفي ظل المعطيات يتبادر إلى الذهن السؤال حول مصير دور الرعاية والأمن الإنساني الذي تبنته الدول العربية وأصبحت خاصية من خاصيتها.

لذا تأتي هذه الورقة البحثية للإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما مفهوم دولة الرعاية الإنسانية ومتى ظهرت؟
- ما مبررات قيام دولة الرعاية؟
- ما أهداف دولة الرعاية لتحقيق الأمن الإنساني؟
- ما العولمة ؟ وما الأسس التي تقوم عليها؟ وما الاتجاهات حولها؟
- ما الحلول والمقترحات والتوصيات لمعالجة الوضع القائم؟

1- دور الرعاية الإنسانية:

تعرف تنمية الرعاية الاجتماعية على أنها "نظام رئيسي شامل يستهدف توفير الخدمات العامة والخاصة في ضوء مدى الحاجة إليها بحيث تكون متاحة لجميع أفراد المجتمع بدون تمييز أو تفرقة بسبب الطبقة أو اللون أو النوع أو الدين، وتلعب دوراً في إحداث التغير وتدعيم الإيجابية وإعادة توزيع الموارد والسيطرة عليها تحقيقا للأمن الإنساني بمفهومه الشامل"[1].

وتقوم فلسفة دولة الرعاية على تحقيق الأمن الإنساني الشامل من خلال تحمل مسؤولية ضمان مستويات محدودة من الدخل والتغذية والصحة والتعليم والإسكان لكل مواطن مع اعتبار هذه الخدمات

حقوقاً أساسية لكل فرد ويرتبط الأساس التاريخي لمفهوم الرعاية الاجتماعية بنظم الإحسان والمساعدات الفردية التي سادت في المجتمعات الغربية منذ صدور قوانين رعاية الفقراء في انجلترا عام 1601 الأمر الذي جعل هذا المفهوم مرادفاً لرعاية المحتاجين والفقراء[2].

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت دعاوي الرعاية من بريطانيا ثم امتدت بعد ذلك إلى معظم دول أوروبا الغربية.

وقد جاءت الأفكار الرئيسية لدولة الرعاية كرد فعل مباشر على فشل أسباب الرعاية القائمة على النموذج العلاجي وقيمه المتمثلة في الحرية والليبرالية والفردية، كما وتعتبر هذه السياسة كذلك كإستراتيجية استخدامها النظام الرأسمالي لمواجهة نجاح النموذج الرأسمالي في أعقاب الثورة البلشفية وقد تجسد هذا الموقف في دعوات الإصلاح لمسار النظام الاقتصادي وعلاج المشكلات الاقتصادية والاجتماعية كانتشار البطالة وانعدام الاستقرار والأمن الاقتصادي والاجتماعي بين أفراد القوى العاملة.

2- دولة الرعاية العربية ومبررات قيامها:

إن الدول العربية بعد تحقيقها للاستقلال سارت لانتهاج طريقة تساعدها على عبور فجوة التخلف بينها وبين الدول المتقدمة حيث ساد الاعتقاد لديها بأنها يمكن أن تسير وبخطوات أسرع في درب التقدم من خلال التخطيط خصوصاً وأن هذا الأخير لم يكن غريباً عليها إذ أن تداوله كان قبل فترة الاستقلال حيث جاء كنتيجة لحركات التحرر السياسي لهذه الدول، بل وقد جاء كذلك كوسيلة استعملها الاستعمار لإرضاء الشعوب الثائرة وإخماد حركات التحرر التي من الواضح أنها بدأت تزعج السلطات الاستعمارية وتحملها الخسائر الفادحة.

وهكذا تولت الدول العربية سياسة التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة أي لم تأخذ التنمية كمسألة اقتصادية بحتة، إذ أن مشكلات أي مجتمع مترابطة ومتشابكة في جميع جوانبها ومن ثم فلا يجوز إهمال أي جانب من الجوانب "فلا يجوز تصور عملية التنمية منذ البداية إلا على أنها عملية تطوير حضاري ضخم وعميق وأنها عملية اقتصادية اجتماعية وسياسية على نحو شامل ومتكامل"[3].

والسبب في ذلك أن المقدمات الأساسية اللازمة لبناء تنمية ناجحة تتوقف على إحداث تغيرات هيكلية في البنية التحتية والفوقية لمجتمعاتها وبذل كان تولي الدول لهذه المهمة أمراً لا مفر منه أي أن الدور الرقابي للدولة يعتبر بداية طبيعية لهذا الأسلوب.

غير أن الأمن الإنساني و منهج الرعاية الاجتماعية القائمة في الدولة المتخلفة ومنها الدول العربية يبدوا مغايراً للذي قام في المجتمعات الرأسمالية ذلك أن حاجات الرعاية في المجتمعات المتخلفة تعتبر هي بذاتها المتطلبات الأساسية لتحقيق التنمية الشاملة – أي أنها المتطلبات التي ينبغي أن تنطلق منها العملية التنموية ومن ثم فإن حقوق الرعاية الاجتماعية يجب أن تصبح حقوقاً سياسية قابلة للتحقيق والمواجهة عن طريق تدخل الدولة لتيسير الوصول إليها، لا مجرد ضمان وجودها فحسب[4]، بمعنى أن تكون حقوق الرعاية قابلة للتحقيق بما يتناسب مع حجمها الحقيقي في المجتمع، ولا تكون مجرد حقوقاً

متاحة في الوقت الذي لا توجد فيه ضمانات لوصولها لمحتاجيه. مما يبدو إذن :لجوء الدول العربية لانتهاج أسلوب الرعاية الاجتماعية قد أملاه التردي في ظروفها الاجتماعية والاقتصادية الذي ميز سنواتها الأولى من الاستقلال فبسبب الممارسات الاستعمارية فقدت تلك المجتمعات التقسيم الطبقي القديم الذي يتميز بسيطرة واضحة لملاك الأراضي الزراعية الشاسعة وشيوخ القبائل وكبار السن الذين يمتلكون كذلك سلطات اقتصادية واجتماعية وإدارية واسعة، إذ انهار هذا البناء الاجتماعي في الوقت الذي لم تتضح فيه معالم البناء الاجتماعي الجديد، على الرغم من ظهور فئات من المهنيين والإداريين والفنيين الذين شكلوا سنداً للبناء الاجتماعي الجديد إلا أن البناء القديم بقي يمارس عليه نوعاً من التأثير وصل لحد تشكيل معالم البناء الجديد وذلك من خلال التوارث والزواج والمصالح والمنافع بين الأجيال وهذا التأثير يخلق شيئاً من عدم التجانس الاجتماعي أي عدم التجانس البناء الاجتماعي خاصة من حيث بنائه وتوقعات الأدوار والوظائف فيه... وبالإضافة إلى ما سبق كثيراً ما يشكل البناء الاجتماعي القديم عوائق أمام إشباع حاجات المواطنين وبالتالي صون أمنهم الاجتماعي بكل أبعاده[5].

يضاف إلى ذل ارتفاع نسبة التحضر بسبب النزوح الريفي وما رافقه من تضخم لسكان المدن مع ضعف هياكل الاستقبال مما سبب تفشي ظاهرة البطالة وارتفاع حاد في نسب الفقراء.

فهذه الظروف إذن حولت الدور الإنمائي للدولة "مكن الدولة الحارسة إلى دور دولة الرفاه الذي يقوم على توسيع نشاط الحكومة إلى جميع النواحي الاقتصادية والثقافية وإلى استخدام الميزانية العامة لتحقيق تدخل الدولة بما يحقق الأمن الإنساني"[6].

إضافة إلى ذلك هناك آراء تعطي مبررات أخر من بينها:

- أن هناك أسباب تاريخية وراء هيمنة الدولة على النشاط الإنمائي يعود لما مارسته السلطات الاستعمارية من عمليات سيطرة على المال والأعمال مما حال دون نشوء قطاع خاص وطني قوي وقادر على تحمل أعباء التنمية تجسد هذا العجز بعدم مبادرته إلى تلبية الاحتياجات والفرص الاستثمارية التي ظهرت في الدول العربية بعد الاستقلال وهو ما اضطر الحكومات إلى تولي المبادرات اللازمة لذلك.
- أن خروج معظم الدول العربية من نطاق السيطرة الاستعمارية تعين على الحكومات القيام بجملة من المهمات بصورة غير مرتبطة بزمان معين أو مكان واحد، منها مهمة القيام بالتنمية الاقتصادية بما هي ارتقاء مستديم لمستويات المعيشة والاستهلاك المادي وبمحتويات التربية والتعليم والصحة وحماية البيئة ومنها كذلك مهمة توفير الفرص المتكافئة لجميع المواطنين للمشاركة في إنتاج تلك التنمية والتمتع بثمارها وأخيراً توفير الحريات السياسية وحماية الحقوق الوطنية لجميع المواطنين دون تمييز.

- أن الحقبة التي أعقبت حصول تلك البلدان على الاستقلال تميزت باتجاه مباشر وسريع في الخمسينات والستينات نحو تركيز السلطة السياسية والاقتصادية وتأميم كل ما يمكن تأميمه، وشمل هذا التركز المجالات الاقتصادية والاجتماعية.
- إن تدخل الدول العربية في الاقتصاد والمجتمع مثلها مثل تدخلها في السياسة والثقافة، راجع إلى طبيعتها التسلطية أكثر من أي عامل آخر ولا يعود إلى الاقتناع بأي نظريات في التنمية فنظرية التدخل استعملت كثير من النزعة الاحتكارية التي تميز الرموز التسلطية.

كما وأدى تراكم فائض النفط التي كانت تتزايد بنسب مطردة ابتداءاً من أوائل عام 1970 نتيجة لارتفاع أسعاره وتزايد إنتاجه في آن واحد وهو ما يساعد الدول العربية النفطية على زيادة درجات الإنفاق وصل لحد المبالغة في بعض الأحيان.

3- أهداف دولة الرعاية العربية لتحقيق الأمن الإنساني:

إن الأهداف التي سعت دولة الرعاية العربية إلى تحقيقها من خلال انتهاجها لهذا الأسلوب تتمثل بتوفي الأمن الإنساني الشامل من خلال ما يلي:

1) التخفيف من وطأة الفقر:

لقد كان هدف القضاء على الفقر كأحد الأهداف الاجتماعية الرئيسة للحكومات وقد اتبعت معظم الحكومات عدد من السياسات لتحقيق ذلك تراوحت بين تقديم مدفوعات الرعاية للفقراء إلى التأمين الصحي والتأمين ضد البطالة والمعاشات التقاعدية ودعم التعليم والإسكان وذلك بهدف تأمين حد أدنى من مستوى معيشة للفقراء، والقضاء على الفقر أو على الأقل تقليص عدد السكان الذي يعيشون تحت حد الفقر وقد اعتبر "التعامل مع المشكلات الناتجة عن الفقر والتي تعتبر بمثابة المدخل الاجتماعي للمشكلات الأخرى في المجتمع على أساس أن الفقر يؤثر تأثيراً واضحاً على الصحة والتعليم والتغذية والإسكان والبطالة"[7].

2) العمالة:

تعرف المجتمعات العربية معدلات عالية للنمو السكاني اعتبرت من أعلى المعدلات في العالم ويرافق هذا النمو في السكان نمو في قوة العمل وهو ما يعين ضرورة توفير فرص عمل لكل هؤلاء الأفراد والدخل الملائم وهو ما يشكل أهم التحديات الهامة أما الحكومات العربية وخصوصاً وأن غالبة العاطلين عن العمل هم من الباحثين عن العمل لمرة الأولى وخصوصاً أنهم أساساً شباب.

3) التعليم والصحة:

لقد هدفت الحكومات العربية من خلال دورها في تمويل التعليم والصحة إلى أهداف تقديم الخدمة مباشرة لأغلبية السكان وتحسين نوعيتها، وتحقيق تكافؤ الفرص لوصول الجميع إلى الخدمات التعليمية

وتقديم خدمة ذا نوعية عالية للسكان كافة، وتأمين الفرصة المتكافئة والعدالة في تقديم الخدمات التعليمية والصحية.

4) البنى الأساسية:

إن الخدمات السابقة لا يمكن تقديمها للمواطن بدون وجود بنى أساسية ولقد كانت الحكومات هي الجهة الأقدر عل الاستثمار في مشاريع البنى الأساسية وإدارتها وبالرغم من أن معظم الحكومات العربية لم تتوافر لها الموارد الكافية إلا أنها لجأت إلى طلب قروض خارجية لتمويل المشاريع الكبيرة يضاف إلى ذلك أن النمو السكاني ومتطلبات النمو لاقتصاديات الدول العربية شكلت كذلك ضغطاً على البنى الأساسية المتوافرة.

5) العولمة وتأثيراتها والاتجاهات نحوها:

لقد تميزت نهاية القرن العشرين بظاهرة جديدة لم يألفها من قبل إلا وهي ظاهرة العولمة ويعتبر مفهومها مفهوماً ملتبساً يختلف باختلاف المؤلفين واتجاهاتهم الأيدولوجية وقد تبلورت هذه التعريفات في تيارين يسيطر عليها الانحياز المسبق "التيار الأول يتحيز للعولمة ويعتبرها قدراً حتمياً لا مفر من قبوله بغير تحفظ والتيار الثاني يرفضها رفضاً مطلقاً باعتبارها إعادة إنتاج لنظام الهيمنة الرأسمالي القديم وبين التيارين تيار ثالث يدعو إلى نوع التفاعل الواعي مع العولمة في اتجاه" تعظيم المنافع التي تبشر بها وتدني التكاليف الاجتماعية المقترنة بالاندماج فيها والتكامل معها[8].

وتعود هذه اللفظة إلى الكلمة الإنجليزية (Global) والتي تعني عالمي أو دولي أو كروي وترتبط أحيان كثيرة بالقرية ويصبح معنى المصطلح: القرية العالمية (Global Village) أي أن العالم عبارة عن قرية كونية واحدة. أما المصطلح الإنجليزي فيترجم إلى الكوكبة أو العولمة[9].

6) الأسس التي تقوم عليها العولمة:

تقوم العولمة على الأسس التي أشار إليها أغلب الكتاب المحدثون والتي يمكن تلخيصها بما يلي:

- حرية انتقال السلع عن طريق إزالة الحواجز والحدود أما حركة التجارة العالمية التي سيطر عليها الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان السوق الأوروبية المشتركة واليابان والعمل باتجاه دمج اقتصاديات العالم باقتصاد واحد خاضع لقوة البلدان الصناعية المتقدمة نحو شعار تحرير الأسواق.
- تعميم وتوسيع الخصخصة على جميع القطاعات الصناعية والزراعية والنقل والمواصلات والبنية التحتية وتصفية القطاع العام.
- حرية انتقال رؤوس الأموال الفائضة في البلدان الغنية وتوجيهها نحو البلدان والقطاعات ذات المردود العالي بحيث تكون سوق عالمي لرؤوس الأموال لا حدود له ودون معرفة على من سيعود مردودة.
- حرية انتقال العمالة وفرص العمل الضائعة وشراء العقول من الدول النامية.

- تقليص دور الدولة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وفتح باب على مصراعيه لهيمنة المنظمات الدولية والشركات متعددة الجنسيات. ولكون هذه الورقة تتناول موضوع دور الدولة الرعوي في ظل العولمة سيتم الوقوف على هذا الأمر

4- تقليص دور الدولة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

إن الاعتبارات الجيو – اقتصادية ستصبح هي المتحكمة في النظام الدولي أي أن التفاعلات الاقتصادية بين الدول سيصبح لها اليد العليا في رسم السياسات الخارجية للدول وفي تحديد مصالحهم القومية فقلد شهدت الحقبة الأخيرة تكتلات إقليمية عديدة كالاتحاد الأوروبي والآسيان، والأوبيك لتحقيق المصالح الاقتصادية للدول الأعضاء فيها، كما تزايدت كذلك العلاقات المتعددة الأطراف التي لا تهتم بمسألة الحدود الجغرافية وهكذا تبدو العولمة بأنها "ليست إلا عملية نقل للسيادة من الدول القومية إلى مجموعة من المؤسسات الجديدة فوق القومية، تتسرب بمقتضاها السلطة رويدا من يد الدولة القومية إلى المنظمات والوكالات الدولية العامة والخاصة التي سيعد إليها بالمزيد من المهام التي كانت تؤديها الجولة من قبل"[10].

ومن هذه المهام مثلا قضايا التلوث وشؤون الاتصال وأجهزة الإعلام والاتصال...الخ، ويكون أمام الدولة القومية خيارين لا ثالث لها: إما أن تعارض هذه السياسات وتقاوم ضغوط تلك المؤسسات وهو ما يعرضها إلى خطر إعلان إفلاسها وإما الرضوخ لهذه المطالب مما يؤدي بها إلى توترات اجتماعية حادة.

- إن الأحكام والقواعد التي فرضتها مؤسسات العولمة واتفاقية الغات ومنظمة التجارة العالمية والقيود التي فرضتها كل من صندوق النقد الدولي والسيطرة المفروضة على الدولة في صياغة السياسات النقدية والمالية عن طريق برامج الخصخصة والتكيف الهيكلي والتثبيت الاقتصادي إن كل هذا جعل حدود الدولة مجرد أسوار وهمية تتحرك فيها الشركات متعددة الجنسيات بحرية مطلقة متمتعة بالنفوذ الاقتصادي والسياسي الذي يجعلها قادرة على إخضاع سياسة أي دولة وفق ما تقتضيه مصالحها.
- كما تتراجع فكرة السيادة، عندما تكون من الواجب على الدولة أن تعيد النظر في تشريعاتها الوطنية، في حالة تعارضها مع قوانين وتشريعات المنظمات العالمية الجديدة، والواقع أن فكرة السياسة هو اختصاص تمارسه الدولة في ظل القانون الدولي، هذا الأخير الذي أدى توسيع مضمونه إلى إعطاء منظمات دولية معينة (الأمم المتحدة بصورة خاصة) الحق في التدخل في شؤون كانت تعتبرها الدولة من شؤونها الداخلية بل وتولت بعض الدول القومية مهمة التنفيذ نيابة عن الأمم المتحدة في أحوال معينة[11]. وما الشواهد في ليبيا ومصر وسوريا والعراق واليمن إلا دليل على ذلك.

- تقود العولمة الدول للتعامل المباشر مع المنظمات الوطنية غير الحكومية والتي تتلقى تمويلاتها في الغالب من وكالة التنمية الأمريكية كما صرح ل غور نائب الرئيس الأمريكي السابق أن نصف المساعدات الأمريكية الرسمية بل إن إتفاقات الشراكة المتوسطية – الأوربية تتضمن نصوصاً تعطي للاتحاد الأوروبي حق إقامة الصلة المباشرة مع المنظمات غير الحكومية في الدول العربية الأعضاء في اتفاقيات الشراكة من دون المرور بالدولة[12].

وهكذا فإن إضعاف سلطة الدولة يدفعها إلى الذوبان في كيانات أكبر منها والتي تضغط عليها للتفريط في استقلالية قرارها وفي سيادتها على إقليمها من جهة ومن جهة أخرى تؤدي بها إلى ظهور الانتماء إلى كيانات عصبية أصغر منها كالقبيلة والدين والطائفة مما يزج في صراعات عرقية وثنية. أي تتحول سلطة الدولة إلى أعلى حيث المنظمات الدولية كالمؤسسات المالية والدولية ومجلس الأمن وإلى أسفل حيث الولايات والمحافظات والجمعيات الأهلية والنقابات العالمية وجانبياً حيث الدول الأقوى والمنظمات غير الحكومية ذات النشاط الدولي والشركات متعددة الجنسيات.

وإضافة إلى الدور الذي تلعبه العولمة في إضعاف سيادة الدولة تقوم كذلك على تجاهل الجانب الاجتماعي في عملية التنمية الاقتصادية وإخضاع جميع جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية لمعيار مطلق ووحيد إلا وهو ربحية الرأسمال بالإضافة إلى تقنين عدد من المجالات كتنظيم العمل والتجارة العالمية وفي هذا الإطار يتساءل مؤلفاً كتاب (فخ العولمة) هل أن دولة الرفاهية قد غدت تهديداً للمستقبل وأن شيئاً من اللامساواة الاجتماعي قد أضحى أمراً لا مناص منه[13].

إضافة إلى ما تمارسه العولمة من تأثيرات هناك ظروفاً أخرى تشل بوادر لانحسار الدولة العربية وتنصلها من مسؤولياتها في رعاية المواطن والإنفاق عليه ويبدو أن هذه البوادر لم تكن طوعية وإنما جاءت تحت ضغوط أدت في كثير من الأحيان نوعاً من الفوضى "وتتمثل هذه الفوضى في تحلل وارتخاء سلطة الدولة، بما يشمل ذلك من تراجع دور الدولة في التربية والتعليم وسيطرة القطاع الخاص تدريجياً على هذا المرفق الحيوي واستغلاله لأغراض الثراء الشخصي، حتى الجيش لم يعد في عدد من الحالات القوة المسلحة الوطنية بل حرساً هزيلاً للحاكم، وما تشهده الآن هو تهاتف العقد الاجتماعي الذي نشأ في الخمسينات بين الدولة والمجتمع والذي بني على أساس أن الدولة تقدم للفرد الحماية والرعاية الاجتماعية إلى الحد الأقصى ضمن طاقاتها وإمكانياتها على أن يتعهد الفرد بأن لا يتعاطى السياسة من قريب أو بعيد"[14].

وتتمثل هذه البوادر:

- أن دور دولة الرعاية العربية وأسلوب التدخل نابع من دورها في توفير الأمن والدفاع وخصوصاً وأن المنظمة العربية شهدت العديد من الصراعات والتوترات والسؤال الذي يطرح هل ستؤدي عملية التسوية السليمة للصراع العربي – الإسرائيلي نحو تكبير دور القطاع الخاص أم أنه سيغلب تأثير النزاعات الحدودية والتوترات الداخلية في المنحنى الذي ساد في الماضي.

- إن بداية انحسار دور الدولة قد جاء كذلك نتيجة لانهيار المعسكر الشرقي وتراجع أنظمة التخطيط المركزي يضاف إليه كذلك رواج اتجاهات وأفكار الإسلام السياسي فقط بين العامة بل في الطبقة المثقفة من أعضاء النقابات المهنية والسؤال الذي يستحق النظر في هذا الصدد هو إلى أي حد تعتبر أفكار الإسلام السياسي "صديقة للسوق" على حد تعبيرات أدبيات البنك الدولي... وهذا غير مستغرب بسبب احترام الإسلام الأكيد للملكية الفردية والحريات والحقوق الفردية وما أوجبه من حمايتها جنباً إلى جنب مع ما أوجبه من العدالة في توزيع الثروة والتكافل الاجتماعي ومسؤولية ولي الأمر (الحكومة) في هذا المجال[15].
- إن مضي الحكومات العربية في الإصلاحات الاقتصادية وتطبيقها لسياسة الخصخصة التي لا تعترف بتدخل الدولة أو التحكم بأسعار وفرض الضوابط عليها ودعم السلع الأساسية التي يؤدي إلى هبوط أسعارها إلى فائض في الطلب وإلى تبديد الموارد.
- **الحلول والمقترحات لمواجهة الوضع القائم وتحقيق الأمن الإنساني:**

أن هذا الوضع يهدد مستقبل دولة الرعاية العربية ودورها في تحقيق الأمن الإنساني وما نجم عنه من توترات وتدهور الأوضاع الاجتماعية للمواطن العربي، يقتضي هذا التعامل مع الوضع بحكمة وتعزز دور الدولة ومصداقيتها وزيادة قدرتها على التحكم في الوضع كالتأكد من أن دور الدولة يتناسب مع قدراتها، أي أن تدخل الدولة يتم دائماً في حدود قدرها على القيام بالأعمال العامة (توفير السلع والخدمات العامة) المطلوبة ... وتركيز قدرات الدول في البداية على الأعمال التي لا غنى عنها (مثل حفظ القانون والنظام وتوفير البنية الأساسية والعدالة والتعليم الأساسي والصحة الوقائية ثم تتوسع الدولة بعد ذلك بقدر ما تمكنها قدراتها من التدخل المفيد..... وحتى تصبح الدولة القادرة دولة فاعلة، يتعين عليها استخدام قدراتها في صالح فرد أو قلة من الأفراد فقط) [16].

ويستلزم الأمر كذلك رفع القدرة المؤسسية للدولة بتقوية مؤسساتها العامة ويتطلب ذلك:

- منع احتكار السلطات والتحكم في اتخاذ القرارات ومحاربة الفساد.
- العمل على زيادة كفاءة المؤسسات التي تقدم الخدمات العامة وتقوية أجهزة التنفيذ وذلك بتعريض تلك المؤسسات للمنافسة مما يضعها أمام الأمر الواقع ويجبرها على تحسين مستواها من أجل الحفاظ على بقاءها.
- فسح المجال أمام مشاركة المجتمع في التعبير عن احتياجاته ومنح الفرصة لمؤسسات المجتمع المدني وتعزيز اللامركزية في العمل الإداري.

ويلاحظ كذلك تنامي الجهود المنظمات الدولية (الأمم المتحدة) في إطلاق حملات مستمرة لضرورة توفير الرعاية الاجتماعية وجعل التنمية حقيقة واقعة لكل البشر وتهدف تلك الجهود إلى جعل العولمة شاملة للجميع وتتسم بالإنصاف وتحقيق التنمية في المجتمع الدولي والقضاء على الفقر وتسريع النمو الاقتصادي في الدول المختلفة.

الخاتـمة والاستنتاجات

مما سبق الحديث عنه إذا فإن العولمة ظاهرة تحمل العديد من الآثار على العالم ومن بينها تهديد الدول بسحب صلاحيتها منها وتسليمها لمنظمات غير حكومية ومؤسسات ذات طابع دولي، وتهدد الدور الأمني الاجتماعي والإنساني الذي تبنته دولة الرعاية العربية منذ حصولها على الاستقلال .وبالرغم من الجهود التي تبذلها من أجل المحافظة على صلاحيتها إلا أنه يبدو أن تيار التغيير أقوى بكثير من قدراتها على المقاومة.

وبالرغم من جهود المنظمات الدولية في العمل على تقديم خدمات الرعاية مما يشكل سنداً لجهود الدول إلا أن السؤال يطرح حول مدى مصداقية هذه الدعوات وحسن نواياها ومدى استقلالية إرادة تلك المنظمات عن إرادة أسياد العالم التي تكرس المصلحة الاقتصادية فوق كل الاعتبارات الأخرى.

ونلخص تاليا أهم الاستنتاجات في ضوء ما تقدم من عرض وتحليل:

- إن الأمن الإنساني والرعاية نظام عادل شامل متوازن يقوم على إشباع حاجات أفراد المجتمع وهناك عدة مبررات وأهداف لقيام دولة الرعاية العربية أهمها: عبور فجوة التخلف عن الدول المتقدمة بعد الاستقلال ،وهناك أسباب تاريخية تقف وراء هيمنة الدولة على النشاط الإنمائي تتمثل بممارسات الاستعمار في السيطرة على المال العام.أما الأهداف فتتمثل ب(التخفيف من حدة الفقر، العمالة، التعليم والصحة، البنى الأساسية).
- هناك جملة من العوامل والظروف القسرية غير الطوعية تهدد مستقبل دولة الرعاية العربية وأمنها الإنساني، وتؤدي إلى انحسار دورها في المجتمع، أهمها العولمة وتأثيراتها ، وحالة الفوضى وتحلل سلطة الدولة ، وانهيار المعسكر الشرقي .تؤدي بمجملها إلى أوضاع وتوترات تهدد الحياة الاجتماعية للمواطن العربي.
- تمارس العولمة مجموعة من الضغوط وتفرض مجموعة من التحديات تعمل جميعها على تقليص وتناقص وذوبان دور الدولة العربية في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لصالح منظمات دولية وشركات عابرة للقارات والقطاع الخاص ،مما يدفع الدولة للذوبان في كيانات اكبر منها وبالتالي التفريط في استقلال قرارها وسيادتها على أرضها ويهدد أمنها الإنساني.
- هناك علاقة بين العولمة ومخاطرها على الأمن الإنساني تتضح من خلال : اقتصاد السوق وانحسار مفهوم الرعاية والرفاة، وتراجع دور الدولة المركزية، وظهور ما يسمى بالفاعلين الجدد (منظمات المجتمع المدني) والتوجه نحو الخصخصة.
- إن قيام الدولة بوظائفها في ظل العولمة قد اختلف أفقيا وعاموديا : أفقيا بمعنى إمكانية امتداده خارج إقليم الدولة، وعموديا بمعنى انه صار يمتد من القمة إلى الوحدات المحلية الصغيرة . وهناك تحول من السيادة المطلقة إلى السيادة النسبية.

- هناك جملة توصيات و حلول ومقترحات واليات ونصائح يمكن تقديمها لمعالجة الوضع القائم تتمثل ب:

أ- على الدول العربية التعامل مع تحديات العولمة ومتطلباتها بحكمة وعقلانية.

ب-على الدول العربية تعزيز دورها ومصداقيتها وزيادة قدراتها على التحكم في الوضع (تناسب دورها مع قدرتها) وبما يضمن توفير الأمن الإنساني.

ت- على الدول العربية أن تكون فاعلة وصادقة وقادرة من خلال عدة آليات لتعزيز دورها في المجتمع.

ث- رفع القدرة المؤسسية للدولة من خلال تقوية مؤسساتها العامة ،وهذا يتطلب مجموعة من الإجراءات تتمثل باللامركزية الإدارية، ومحاربة الفساد والشراكة المجتمعية في صناعة القرار، ومنع احتكار السلطة، ورفع كفاءة المؤسسات العامة من خلال التنافس.

الهوامش:

1 محروس محمد خليل، ص21، السياسة الاجتماعية والتخطيط في العالم الثالث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1986، ص21.

2 المرجع السابق، ص21.

3 علي الحوت، أسس التنمية والتخطيط الاجتماعي، دار الحكمة، طرابلس،1988، ص77.

4 محروس خليفة، مرجع سابق، ص 23.

5 علي الحوت، أسس التنمية، ص 36 التخطيط الاجتماعي، مرجع سابق، ص 36.

6 جميل جريسات، إدارة التنمية العربية في ظل السياسة اللامنهجية، دار فارس، عمان، 1988، ص88.

7 أحمد مصطفى خاطر، التخطيط الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1988، ص 47.

8 علاءالرواشدة، (2008) العولمة والمجتمع ، دار حامد للنشر والتوزيع ،عمان

9 نفس لمرجع، ص 125.

10 نفس المرجع، ص127.

11 عبد الحسين وادي العطية، الاقتصاديات النامية، أزمات وحلول، دار الشروق، عما، 2001، ص150.

12 مجموعة من المؤلفين، العولمة وتداعياتها على الوكن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003، ص128.

13 هانس بيتر مارتين وهارولد شومان، فخ العولمة، ترجمة عباس علي، الكويت 1998، ص29.

14 طاهر حمدي كنعان، دور الدولة في البيئة الاقتصادية العربية الجديد، ندوة العربي، الكويت 1997،ص28.

15 مجدالدين خمش ، الدولة والتنمية العربية في ظل العولمة ،دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ،عمان،2005،ص 30

16 عبد الحسين وادي العطية، الاقتصاديات النامية، أزمات وحلول، دار الشروق، عما، 2001، ص152

المراجع:

1- محروس محمد خليفة، السياسة الاجتماعية والتخطيط في العالم الثالث، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1986.

2- علاءالرواشدة، العولمة والمجتمع ، دار حامد للنشر والتوزيع ،عمان، 2008

3- علي الحوت، أسس التنمية والتخطيط الاجتماعي، دار الحكمة، طرابلس. 1988
4- جميل جريسات، إدارة التنمية العربية في ظل السياسة اللامنهجية، دار الفارس، عمان، 1998.
5- أحمد مصطفى خاطر، التخطيط الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1998.
6- مجموعة من المؤلفين، العولمة وتداعياتها عل الوطن العربي، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003.
7- عبد الحسين وادي العطية، الاقتصاديات النامية، أزمات وحلول، دار الشروق، عمان، 2001.
8- هانس بيتر مارتين وهارولد شومان، فخ العولمة، ترجمة عباس علي، الكويت، 1998.
9- مجدالدين خمش ، الدولة والتنمية العربية في ظل العولمة ،دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ،عمان،2005
10- دور الدولة في البنية الاقتصادية العربية الجديدة، ندوة تنظيم الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي وصندوق النقد العربي، الكويت، آذار 1997.

العوامل المرتبطة بالعنف لدى طلاب مدارس التعليم الثانوي الفني وطرق مواجهته (دراسة ميدانية)

د. محمد جبر السيد عبد الله جميل، أستاذ مساعد بكلية العلوم الإسلامية
جامعة المدينة العالمية – ماليزيا

مشكلة الدراسة

تواجه المدارس موجة متصاعدة من عنف الطلاب في الآونة الأخيرة. حيث تؤكد دراسات عديدة على تفاقم حدة عنف الطلاب بالمدارس تتمثل أهم مظاهره في الاعتداء البدني على الزملاء والمعلمين وإتلاف الممتلكات المدرسية. وتؤكد هذه الدراسات علي أن العنف الطلابي بات يمثل ظاهرة عامة في المدارس الثانوية.

ونظراً لما يترتب على هذه المشكلة من تكوين بيئة غير آمنة لعمليتي التعليم والتعلم بهذه المدارس، مما قد يحول بينها وتحقيق الأهداف التربوية المنشودة منها، كان السعي لدراسة العوامل المؤدية إلى مشكلة تزايد سلوك عنف الطلاب بمدارس التعليم الثانوي.

وتتركز مشكلة الدراسة الحالية في دراسة العوامل المرتبطة بمشكلة تزايد سلوك عنف الطلاب بمدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية وطرق مواجهتها. وهذا كمدخل لبلورة إطار تفسيري يساعد على فهم سلوك عنف الطلاب في ارتباطه بالإطار الثقافي والاجتماعي والسعي نحو طرح تصور يمكن أن يساهم في الحد من تزايد هذا السلوك في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية ويمكن تحديد مشكلة الدراسة في التساؤل الرئيس الآتي:

ما العوامل التي تؤدي إلي عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي بمحافظة الشرقية، وما الوسائل التي يمكن من خلالها مواجهته من وجهة نظر العاملين بهذه المدارس؟

ويتفرع عن هذا التساؤل الرئيس التساؤلات الفرعية التالية:

1- ما العوامل المجتمعية المؤدية إلى تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية من وجهة نظر المديرين ، الوكلاء، المعلمين، الإخصائيين العاملين بهذه المدارس؟
2- ما العوامل التعليمية المؤدية إلى تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية من وجهة نظر المديرين ، الوكلاء، المعلمين، الإخصائيين العاملين بهذه المدارس؟
3- ما العوامل الطلابية المؤدية إلى تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية من وجهة نظر المديرين ، الوكلاء، المعلمين، الإخصائيين العاملين بهذه المدارس؟

4- كيف يمكن الحد من العوامل المؤدية إلى تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية من وجهة نظر المديرين، الوكلاء ، المعلمين، الإخصائيين العاملين بهذه المدارس؟

أهداف الدراسة

انطلاقاً من التساؤلات السابقة تتحدد أهداف الدراسة كالآتي:

1- محاولة التعرف على العوامل المجتمعية التي تؤدي إلى تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية من وجهة نظر المديرين، الوكلاء، المعلمين، الإخصائيين العاملين بهذه المدارس.

2- محاولة التعرف على العوامل التعليمية التي تؤدي إلى تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية من وجهة نظر المديرين، الوكلاء، المعلمين ، الإخصائيين العاملين بهذه المدارس.

3- محاولة التعرف على العوامل الطلابية التي تؤدي إلى تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية من وجهة نظر المديرين، الوكلاء، المعلمين، الإخصائيين العاملين بهذه المدارس.

4- محاولة التعرف على الطرق التي يمكن من خلالها الحد من العوامل التي تؤدي إلى تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية من وجهة نظر المديرين ، الوكلاء، المعلمين، الإخصائيين العاملين بهذه المدارس.

أهمية الدراسة

تتضح أهمية الدراسة في أنها:

- تساعد على فهم تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية في مجالها الثقافي والاجتماعي، ومن ثم فهي تشكل حلقة في سلسلة الدراسات التي أجريت في ميدان عنف الطلاب بالمدارس على وجه الخصوص، والعنف المدرسي على وجه العموم.
- يمكن أن يفيد من نتائجها المديرين، الوكلاء، المعلمين الإخصائيين العاملين بمدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية في التخطيط لمواجهة مشكلة تزايد عنف الطلاب في هذه المدارس، بما يسهم في توفير مناخ تعليمي آمن يساعد على بلوغ الأهداف التربوية المأمولة من هذه التخصصات الحيوية من التعليم.

مصطلح الدراسة

عنف الطلاب:

يعرَّف عنف الطلاب في هذه الدراسة بأنه: أحد صور انحراف السلوك الطلابي الذي يتسم باستخدام القوة البدنية أو المادية أو التهديد باستخدامها بقصد إلحاق الأذى البدني أو المعنوي أو الضرر المادي بالزملاء أو المعلمين أو الممتلكات المدرسية.

افتراضات الدراسة

تنطلق الدراسة من الافتراضات الآتية:

1- إن مشكلات التعليم ليست ظواهر منفصلة عن الحركة التاريخية للمجتمع، وعليه فإن السعي نحو فهم هذه المشكلات يستلزم النظر إليها في علاقتها بالسياق المجتمعي.

2- إن مشكلات التعليم ذات طبيعة مركبة معتمدة. فعواملها عديدة ومتشابكة ، بحيث يصعب ردها إلى عامل سببي وحيد. كما أن هذه العوامل لا تمارس تأثيرها في تكوين هذه المشكلات واستمراريتها بصورة مستقلة عن بعضها البعض ، بل تعمل بصورة متداخلة ومتفاعلة.

3- وبناءاً على هذه الطبيعة المتعددة الأوجة لمشكلات التعليم، فإن مواجهتها تتطلب تناولاً يتسم بالشمول والتكامل والتنسيق بين قطاعات المجتمع المختلفة، فنجاح المدرسة في التغلب على هذه المشكلات يتوقف على ما في المجتمع من عوامل مساعدة أو معوقة.

منهج الدراسة

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي. ويستخدم في إطار هذا المنهج المدخل التحليلي. حيث تحليل العوامل المؤدية إلى مشكلة تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية وطرق مواجهتها في ارتباطها بالإطار المجتمعي الذي أحاط بنشأتها وتطورها.

حدود الدراسة

الحدود الموضوعية: تقتصر الحدود الموضوعية على دراسة العوامل المؤدية إلى مشكلة تزايد سلوك عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية وطرق مواجهتها.

الحدود المكانية: تقتصر الحدود المكانية على مدارس التعليم الثانوي الفني (زراعي – تجاري – صناعي) نظام ثلاث سنوات بمحافظة الشرقية.

الحدود البشرية: تقتصر الحدود البشرية على عينة من المديرين، الوكلاء، المعلمين، الإخصائيين العاملين بمدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية.

إجراءات الدراسة

عينة الدراسة:

تتكون العينة الإجمالية للدراسة من (315) مديراً، وكيلاً، معلماً، وإخصائياً تم اختيارهم بطريقة طبقية عشوائية من (6) مدارس ثانوية فنية (زراعية – تجارية – صناعية) نظام ثلاث سنوات بمدينتي الزقازيق وديرب نجم بمحافظة الشرقية.

أداة الدراسة

تعتمد الدراسة على استبانة مقفولة – من إعداد الباحث – بغرض جمع البيانات المتعلقة بأهداف الدراسة.

نتائج الدراسة

أسفرت الدراسة الحالية عن العديد من النتائج فيما يتعلق بالعوامل المرتبطة بعنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني، وطرق مواجهته؛ منها ما يتعلق بالمجتمع، ومنها ما يتعلق بالنظام التعليمي.وذلك علي النحو الآتي:

الفرع الأول: العوامل المرتبطة بعنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية:

المحور الأول: العوامل المرتبطة بالمجتمع:

العامل الأول: ضعف دور الأسرة في التنشئة الدينية للأبناء.

العامل الثاني: غياب الجزاءات القانونية الرادعة للأفراد عن الإقدام على ارتكاب العنف.

العامل الثالث: ضعف دور الأسرة في الرقابة والمتابعة المستمرة للأبناء.

العامل الرابع: كثرة مواد العنف في وسائل الإعلام:

العامل الخامس: افتقاد القدوة الحسنة في وسائل الإعلام.

العامل السادس: تراجع دور الأجهزة الثقافية والإعلامية في التوعية الدينية للأفراد.

العامل السابع: انتشار أماكن اللهو الرخيص (المقاهي – أندية الفيديو) حول المدارس.

العامل الثامن: قصور الرقابة الأمنية في أماكن التجمعات الطلابية بالمدارس.

العامل التاسع: ضعف فعالية المؤسسات الشبابية (مراكز وأندية الشباب) في شغل أوقات فراغ الشباب وامتصاص طاقاتهم.

العامل العاشر: تعرض بعض الأسر للحرمان من إشباع الحاجات الأساسية ونقص الخدمات الضرورية.

العامل العاشر م: التفاوت الطبقي الشديد.

العامل الأخير: تدعيم بعض الثقافات الفرعية (مثل ثقافة بعض الأحياء الشعبية) للعنف كوسيلة لحل المشكلات التي يواجهها الأفراد.

المحور الثاني: العوامل المرتبطة بالتعليم:

أولا: العوامل المرتبطة بالمناهج الدراسية

العامل الأول: ضعف اهتمام المناهج الدراسية بإكساب الطلاب أخلاقيات التعامل السليم مع الآخرين.

العامل الثاني: ضعف اهتمام المناهج الدراسية بتنمية قدرة الطلب على ضبط النفس والتحكم في السلوك.

العامل الثالث: ضعف مراعاة المناهج الدراسية للتفاوت بين الطلاب في القدرات والاستعدادات.

العامل الأخير: ضعف إشباع المناهج الدراسية لحاجات الطلاب الأساسية (كالحاجة إلى التقدير الاجتماعي).

ثانيا: العوامل المرتبطة بالمعلم:

العامل الأول: ضعف التزام بعض المعلمين بأخلاق المهنة (افتقاد روح الانضباط).
العامل الثاني: تراجع دور بعض المعلمين في التوجيه الخلقي والسلوكي للطلاب.
العامل الثالث: ضعف إلمام بعض المعلمين بالمهارات اللازمة للتعامل السليم مع مشكلات الطلاب السلوكية.
العامل الرابع: ضعف فاعلية طرق التدريس المتبعة من قبل بعض المعلمين في جذب وتشويق الطلاب.
العامل الأخير: استخدام بعض المعلمين للعقاب بكثرة في تقويم الطلاب.

ثالثا: العوامل المرتبطة بالإدارة المدرسية:

العامل الأول: افتقاداً الإدارة المدرسية للسلطات القانونية التي تمكنها من الحد من عنف الطلاب بالمدارس.
العامل الثاني: ضعف دور بعض الإخصائيين الاجتماعيين والنفسيين في بحث مشكلات الطلاب وإيجاد الحلول المناسبة لها.
العامل الثالث: اعتبار نسبي النجاح في الشهادات معيار فعالية المدرسة.
العامل الرابع: ضعف استخدام بعض الإدارات المدرسية لسلطاتهم في مواجهة مشكلات الطلاب السلوكية
العامل الخامس: ضعف اهتمام بعض الإدارات المدرسية بتوعية الطلاب بطبيعة العنف ومخاطره.
العامل السادس: تراجع دور المدرسة في توفير الرعاية الاجتماعية والاقتصادية للطلاب.
العامل السابع: ضعف اهتمام بعض الإدارات المدرسية بالأنشطة الطلابية.
العامل الأخير: تراجع دور بعض الإدارات المدرسية في تنمية القيم الخلقية في نفوس الطلاب.

المحور الثالث: العوامل المرتبطة بالطلاب:

العامل الأول: ضعف الوازع الديني لدى الطلاب.
العامل الثاني: تراجع قيم الانضباط في نفوس الطلاب (كاحترام الآخرين، احترام السلطة، احترام الملكية العامة والخاصة).
العامل الثالث: شعور الطلاب بالإحباط لاعتقادهم بعدم قدرة التعليم على تأمين مستقبلهم الوظيفي.
العامل الرابع: قابلية الطلاب للاستهواء والتقليد الأعمى لنماذج العنف.
العامل الخامس: فهم الطلاب الخاطئ للرجولة (ربط الرجولة بالعنف في التعامل مع الآخرين).
العامل السادس: الفهم الخاطئ لدى الطلاب بأن التسامح دليل على الضعف والجبن وأن الإنسان المسالم تضيع حقوقه.
العامل السابع: ضعف رغبة الطلاب في التعلم.
العامل الأخير: ضعف الشعور بالانتماء للمدرسة لدى الطلاب.

الفرع الثاني: طرق مواجهة عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني بمحافظة الشرقية

المحور الأول: المواجهة على الصعيد المجتمعي:

– تشديد الرقابة الأمنية على حمل الطلاب للأسلحة.

– إيلاء المؤسسات الدينية المزيد من الاهتمام نحو تبصير الأسرة بدورها في التنشئة الدينية السليمة للأبناء.

– تفعيل مراكز الإرشاد الأسري لدورها في تبصير الأسرة بأساليب التنشئة الاجتماعية السليمة للأبناء.

– إسهام وسائل الإعلام في إلقاء المزيد من الضوء على القدوة الحسنة في المجتمع.

– تفعيل دور الأجهزة الثقافية والإعلامية في التوعية الدينية للشباب.

– التقليل من مواد العنف في وسائل الإعلام.

– تفعيل دور المؤسسات الشبابية في شغل أوقات فراغ الشباب وامتصاص طاقاتهم.

– تفعيل برامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية بما يساعد على إشباع الحاجات الأساسية وتوفير الرعاية الاجتماعية للفئات المحرومة.

– إسهام وسائل الإعلام في تبصير الشباب بطبيعة العنف ومخاطره.

– العودة بسن الحدث إلى 15 عاماً بدلاً من 18 عاماً ليخضع كل من يبلغ هذه السن لطائلة قانون العقوبات في حالة الارتكاب المتعمد لأعمال العنف.

– تبني القطاع الحكومي للسياسات الاجتماعية الرشيدة التي تساعد على تقريب الفوارق بين الطبقات.

المحور الثاني: المواجهة على الصعيد التعليمي

أولاً: المواجهة على مستوى المناهج الدراسية:

- إيلاء المزيد من الاهتمام لمناهج التربية الدينية بما يساعد على تفعيل دورها في تنمية الوعي الديني للطلاب وإكسابهم القيم الخلقية الأصيلة وآداب السلوك الحميد.
- اهتمام المناهج الدراسية بتوفي المزيد من الأنشطة المتنوعة بما يساعد على إشباع حاجات الطلاب.
- إعادة النظر في المناهج الدراسية بما يساعد على مراعاة التفاوت بين الطلاب في القدرات والاستعدادات.
- وضع مقرر دراسي يساعد الطلاب على تنمية قدرتهم على ضبط النفس والتحكم في السلوك وحل خلافاتهم بأساليب مقبولة اجتماعياً.

ثانياً: المواجهة على مستوى المعلم:

- تأكيد الجهات المعنية بإعداد وتقويم المعلم على دوره في التوجيه الخلقي والسلوكي للطلاب.
- مراعاة المزيد من الدقة في اختيار المعلم بما يساعد على تأكيد دوره كقدوة حسنة لطلابه.
- تدريب المعلم على طرق التدريس الفعالة بما يساعد على جذب انتباه الطلاب وإثارة دافعيتهم نحو التعلم.

- إعطاء المزيد من الاهتمام نحو إكساب المعلم المهارات اللازمة للتعامل السليم مع مشكلات للطلاب السلوكية أثناء عمليات إعداده وتدريبه.

ثالثاً: المواجهة على مستوى الإدارة المدرسية:

- توسيع صلاحية اتخاذ القرار للإدارة المدرسية بما يمكنها من اتخاذ التدابير العقابية المناسبة للحد من تفاقم عنف الطلاب بالمدارس.
- تنظيم اللقاءات والندوات للارتقاء بمستوى الثقافة الدينية للطلاب وتأصيل القيم الخلقية الأصيلة.
- احتساب مدى التزام الطالب بالانضباط الصفي ضمن شروط نجاحه في الامتحانات.
- تنظيم اللقاءات والندوات لتوعية الطلاب بطبيعة العنف والمخاطر المترتبة عليه.
- تفعيل دور الإخصائي الاجتماعي والنفسي في بحث مشكلات الطلاب وإيجاد الحلول المناسبة لها.
- تفعيل دور مجالس الآباء والمعلمين والطلاب في المشاركة في إدارة العملية التعليمية وحل مشكلاتها.
- احتساب مدى كفاءة الإدارة المدرسية في تحقيق الانضباط الطلابي ضمن معايير فعاليتها.
- استغلال الأنشطة المدرسية في تنمية الشعور بالانتماء للمدرسة لدى الطلاب.
- تفعيل دور المدرسة في توفير الرعاية الاجتماعية والاقتصادية للطلاب.
- إعطاء المزيد من الاهتمام للأنشطة الطلابية.

توصيات الدراسة

لقد أسفرت الدراسة الحالية عن العديد من النتائج فيما يتعلق بالعوامل المرتبطة بعنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني، وطرق مواجهته؛ منها ما يتعلق بالمجتمع، ومنها ما يتعلق بالنظام التعليمي. وفي ضوء ما أسفرت عنه الدراسة من نتائج، توصي الدراسة الحالية بالآتي:

المحور الأول: توصيات علي مستوي المجتمع:

- تكثيف الرقابة الأمنية على حمل الطلاب لأدوات العنف.
- إيلاء المؤسسات الدينية المزيد من الاهتمام نحو توعية الآباء بأهمية دورهم في تربية الأبناء علي تعاليم الدين.
- تفعيل مراكز الإرشاد الأسري لدورها في تبصير الأسرة بأساليب التنشئة الاجتماعية السليمة للأبناء
- إحكام السيطرة الأمنية على أماكن اللهو الرخيص –كالمقاهي وأندية الفيديو– المحيطة بالمدارس.
- اعتناء وسائل الإعلام بتسليط المزيد من الضوء على النماذج الحسنة في المجتمع.
- تفعيل دور الأجهزة الثقافية والإعلامية في التوعية الدينية للشباب

- الحد من مواد العنف في وسائل الإعلام
- تفعيل دور مراكز، وأندية الشباب في شغل أوقات فراغ الشباب وامتصاص طاقاتهم علي نحو رشيد.
- توجيه الأجهزة الحكومية المزيد من الاهتمام نحو برامج التنمية الاجتماعية بما يساعد على إشباع الحاجات الأساسية وتوفير الرعاية الاجتماعية للفئات المحرومة.
- إسهام وسائل الإعلام في توعية الشباب بالمخاطر المترتبة علي العنف.
- الرجوع بسن الحدث إلي الخامسة عشر ليخضع كل من يجاوز هذه السن، ويثبت ارتكابه العمدي لأعمال العنف لطائلة قانون العقوبات.
- تبني القطاع الحكومي للسياسات الرشيدة التي تساعد على تقريب الفوارق بين الطبقات.

المحور الثاني: توصيات علي مستوي التعليم:

أولا: توصيات علي مستوي المناهج الدراسية:

- توجيه المزيد من الاهتمام لمناهج التربية الدينية – كما وكيفا – بما يساعد على تحصيل الثمرة المرجوة منها.
- اهتمام المناهج الدراسية بتوفير المزيد من الأنشطة المتنوعة بما يساعد على إشباع حاجات الطلاب.

مراعاة المناهج الدراسية للتفاوت بين الطلاب في القدرات والاستعدادات

ثانيا: توصيات علي مستوي المعلم:

- تأكيد المؤسسات المعنية بإعداد المعلم، وتدريبه، وتقويمه على أهمية دوره في التوجيه الخلقي للطلاب.
- مراعاة المزيد من الدقة في اختيار المعلم ليتسنى انتقاء أفضل العناصر الصالحة للتدريس.
- توجيه المزيد من الاهتمام نحو إكساب المعلم المهارات اللازمة للتعامل السليم مع مشكلات الطلاب السلوكية أثناء عمليات إعداده وتدريبه.
- إيلاء المزيد من الاهتمام نحو إعداد المعلم، وتدريبه علي طرق التدريس الفعالة بما يساعد على جذب انتباه الطلاب وإثارة دافعيتهم نحو التعلم.

ثالثا: توصيات علي مستوي الإدارة المدرسية:

- منح الإدارة المدرسية المزيد من الصلاحيات بما يمكنها من اتخاذ التدابير العقابية المناسبة للحد من تفاقم عنف الطلاب بالمدارس.
- تنظيم اللقاءات والندوات الدورية للارتقاء بمستوى الثقافة الدينية للطلاب وتأصيل القيم الخلقية الأصيلة في نفوسهم.
- احتساب معيار الانضباط الصفي من معايير انتقال الطالب للصفوف الأعلي.

- تنظيم اللقاءات والندوات لتوعية الطلاب بالمخاطر المترتبة علي العنف.
- تفعيل دور الإخصائي الاجتماعي والإخصائي النفسي في بحث مشكلات الطلاب.
- تفعيل دور مجالس الآباء والمعلمين والطلاب في المشاركة في إدارة العملية التعليمية والنهوض بالمستوي الخلقي للطلاب.
- احتساب معيار الانضباط الطلابي ضمن معايير كفاءة الإدارة المدرسية.
- استغلال الأنشطة الطلابية في تنمية شعور الطالب بالانتماء، والولاء للمدرسة.
- اعتناء المدرسة بتوفير الرعاية الاجتماعية والاقتصادية للطلاب المحرومين.
- توجيه المزيد من الاهتمام للأنشطة التعليمية بما يسهم في تصريف طاقات الطلاب الزائدة.

المحور الثالث: توصيات بمزيد من الدراسات المستقبلية:

توصي الدراسة الحالية بإجراء المزيد من الدراسات في النقاط الآتية:

- العوامل المرتبطة بالعنف الطلابي، وطرق مواجهته من وجهة نظر طلاب مدارس التعليم الثانوي الفني، دراسة ميدانية.
- دور الإدارة المدرسية في الحد من العنف الطلابي بمدارس التعليم الثانوي الفني، دراسة تقويمية.
- مدي كفاية القرارات الوزارية بشأن منع العنف في المدارس في الحد من عنف الطلاب في مدارس التعليم الثانوي الفني، دراسة نقدية.